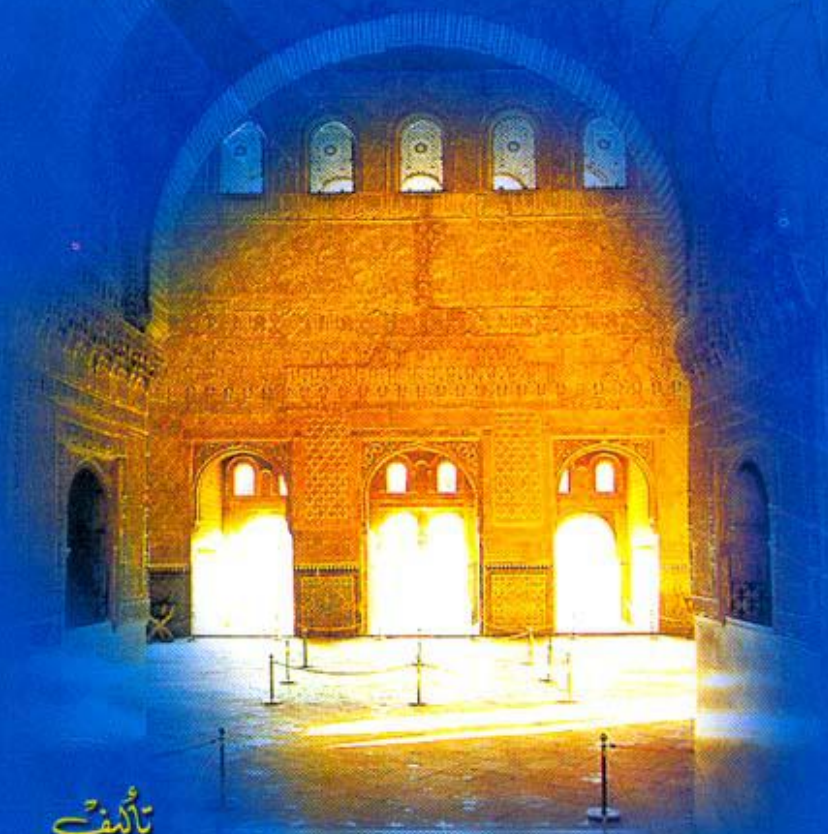


طهارة القلوب

والتخضوع لعِلم الغيوب



تأليف

العارف بالله تعالى سيدي عبد العزيز الدريفي

المتوفى ٦٩٧ هـ

دار الكتب العلمية

طَهْرَةُ الْقُلُوبِ

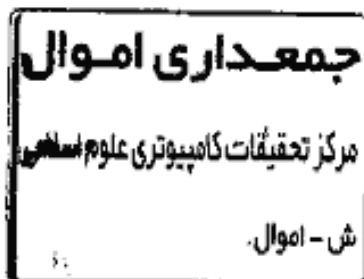
وَالْخَضُوعُ لِعِلَامِ الْغُيُوبِ



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

العارف بالله تعالى سيدي عبد العزيز الدريفي

المتوفى ٦٩٢ هـ



۴۸۱۶۸

دار الكتب العالمية

مبیزوت - بستان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم، الظاهر بواحديته والباطن بأحدثيته، والحمد لله الأزلي بأوليته والأبدي بآخريته. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله ونبيه وخليله وحبيبه، وخليفته الحقيقي الإنسان الكامل، مهبط الأنوار ومنبع الأسرار، الذي طهر القلوب بأقواله وأفعاله وأحواله.

وبعد فبما أن مدار معرفة الله تعالى وأساسها عند السادة الصوفية هو تزكية النفس وتطهير القلب من الرذائل وتحليتهما بالفضائل، حرصنا على إصدار كتاب «طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب» للعارف الشيخ عبد العزيز الدريني رحمه الله تعالى ونفعنا بعلومه، وضممنا إلى مجموعة كتب التصوف الإسلامي التي نقوم بتحقيقها وتنقيحها وتصحيحها ونشرها بأبهى حلة خدمة للركن الثالث من أركان الدين الإسلامي الكامل، الذي هو مقام الإحسان؛ مقام التربية والسلوك إلى ملك الملوك وعلام الغيوب؛ مقام: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ومما لا شك فيه أن كتب التصوف الإسلامي تساعد المريد على الإطلاع على الأحوال والمقامات، التي يمر بها السالك إلى الله تعالى، كما يطلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْتِيكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض. لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث؛ الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة؛ الملك والملوكوت والجبروت، مصداقاً لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء». وقوله ﷺ: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم».

ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبدنا الله به على لسان نبيه ﷺ: مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطَلِقُ عَنِ الْمَوْتَى﴾ [٣] إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿١﴾ [النجم: ٣، ٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] لننال السعادة الحقيقية المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَبُجُوهٌ يُؤْمَرُ بِأَحْسَنَ أَلْفَاظٍ﴾ [٢٢] إِنَّهَا نَظَرَةٌ ﴿٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]

كتبه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيتالي
الحسيني الشاذلي



مركز تحقيقات علوم القرآن

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ
(قرآن كريم)

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام العالم العلامة عالم عصره، وفريد دهره، بقية السلف الصالحين الشيخ ضياء الدين عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدريني رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثواه ونفعنا والمسلمين من بركاته وبركات علومه وخلواته وجلواته^(١) في الدين والدنيا والآخرة آمين .

أحمد الله الذي تفرد قبل وجود اللغات بالأسماء الحسنى، وتوحد في محامد الصفات بالمجد الأسنى^(٢) الذي وله^(٣) القاصدون إليه رغبة وطلباً، وتوَلَّه^(٤) بذكره الواجدون شوقاً وطرباً، وتَأَلَّه^(٥) لجبروته العابدون عبودية ورقاً، وتفرد بأوصاف الإلهية فهو المعبود حقاً، الأول الأزل بلا بداية، المتفضل أولاً بالعناية، الآخر الأبدى الباقي الدائم بلا نهاية، المتفضل آخراً بالفقران والإحسان والكفاية والرعاية، المالك القادر على الإيجاد والاختراع، المالك المتصرف فليس لحكمه دفاع، القدوس البرئ عن الآفات، الشبوح المنزه للمسبح بجميع اللغات، السلام السالم من نقائص المخلوقات، المتفضل بالسلامة والسلام على الذين

(١) جلواته : من جلا الشيء : أى أظهره ووضحه .

(٢) الأسنى ، من السناء : أى الرفعة .

(٣) أله ووله : أى وقع في عظمة الله وجلاله .

(٤) وتوَلَّه : الوله ذهاب العقل ، والتميز من شدة الوجد .

(٥) تَأَلَّه : أى تنسك وتعبد .

آمنوا وعملوا الصالحات ، الصمد السيد الذي لا يشبهه شيء من المخلوقات ، الغنى عن الأغيار
فلا تحويه الجهات ، القيوم المدبر الذي يمسك بقدرته الأرض والسموات ، الواحد فلا شريك
له في ملكه وأفعاله ، الأحد فلا نظير له في صفات كماله ، الوتر الفرد فلا سمي له في جلاله
الحميد المحمود بصفات الكمال ، الحى الذى ليس لحياته زوال ، العالم يعلم قديم ليس بضرورة
ولا استدلال ، العليم الخبير الواسع المحصى المحيط بباطن الأحوال ، المؤمن الذى صدق نفسه
بعلمه وقوله وإخباره بصدقه ، المهيمن الشهيد الذى شهد نفسه بالوحدانية^(١) قبل شهادة
خلقه ، العالم بصدق الصادقين من برائته ، الشاهد فلا يخفى عليه شيء عن علمه ورؤيته ،
السميع بغير إصغاء ولا إنصات ، البصير بغير جارحة ولا التفات ، الرقيب فلا يخفى عليه شيء
من أفعال العباد ، القريب بعلمه من السكافة وبتقريب الأسرار من أهل الوداد ، الخفيظ
الذى لا يعتربه سهو ولا نسيان ، الحافظ لمن يشاء فلا يكون للشيطان عليه سلطان ، القادر
بقدره قديمة أوجد بها الأعيان والآثار ، القدير المقتدر القوى المتين القاهر القهار ، المرید
بإرادة قديمة فهو المقدم المؤخر لما يشاء كما يشاء بحكمته ، فكل خير وشر ونفع وضر وإيمان
وكفر ورجح وخسران فهو يقضاه ومشيته ، الرحمن الرؤوف الكريم الصبور الحليم الودود
الغفور الغفار ، العفو الجليل البار ، رحمته ورأفته إرادته البر والإحسان والإينام ، وداده
ومحبته إرادته التقريب والإكرام ، ومغفرته إرادته الستر على الزلات ، وعفوه إرادته محو
آثار السيئات ، وصبره وحلمه إرادته تأخير العقوبات ، وجماله وبره إرادته جميع الخيرات ،
المتكلم بكلام قديم أزلى لا يشبه كلام الخلق ، به يأمر وينهى ، ويبشر وينذر ، ويتذر
ويعد ، ويتوعد ويحذر . والقرآن كلامه القديم ليس بمخلوق فيفنى بتصرم الأيام ، ولا صفة
لمخلوق فتفنيه الأفلام ، جلت صفات المهيمن العالم عن إحاطة الأوهام . كلامه مقروء
بالألسنة مكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى الصدور ، وصفاته لا يوصف بها غيره ، ولا يغيرها
حوادث الدهور . الشكور الذى يثنى على الحسنين بقوله ويجزى الشاكرين بمنته وطوله ،

(١) الرحدانية : انفراد الله سبحانه بالإيجاد والإمداد .

«البارئ للصَّور من غير مثال، البديع المبتدع المبدئ الفعل المتفضل الوهاب، مُعْطَى النِّوَال قبل السؤال، الرزاق معطى الأرزاق من غير احتيال، الفتاح مُيسِّر ماعِثَر من الأسباب، الفاتح بحكمته بين الخصماء يوم الحساب، القابض الباسط يقبض الأرواح عند انقضاء الآجال، ويبسطها في الأشباح عند البعث لمرض الأعمال، ويقبض الأرزاق فيضيئها عدلا ويبسط النعم فيوسعها فضلا، ويقبض النفوس بالمهم والترح ويبسطها بالسروور والفرح. الخافض الرافع، يرفع قدر من شاء بالإكرام، ويخفض من يشاء بالإهانة والانتقام. ويرفع الحق ودليله ويخفض الباطل وسبيله. ويحفظ أوليائه بحفظ عهده وحسن وزده وجميل رفده^(١) وصدق وعده. ويخفض أعداءه ببعدده وصدده وطرده وردده. الحكم العدل في جميع أحكامه، اللطيف بعباده فيلطفهم بإكرامه، الحبيب الكافي لمن يتولاه، الحبيب دعاء المضطر إذا دعاه. الباعث للرسل والأموات، الوكيل متولَّى أمر مَنْ يرجع إليه في المهمات، الولي الفاصر لمن تولاه، المبدئ المعيد، المحيي المميت فلا ملك سواه، القواب الراجع بمبذره من قفار معصيته إلى بساط قربه، المقسط العدل في جميع أقضيته، المنتقم من عصاه وجعده الهادي بهدأيته وحده المؤمن وعبدَه، النور الذي وضعت معرفته بهدأيته، متور قلوب المؤمنين بأنوار ولايته، الرشيد المرشد لمن يلهمه ويهديه، الغنى فيعطى من يشاء ويكفيه، المانع يمنع البلاء حفظا وعناية ويمنع العطاء عن يشاء بلاء أو حماية، الجامع لأجزاء الأجسام بعد البلى، المعز المذل فمن أعزه شرف وعلا. العلى الأعلى المتعال، وعالوه علو تعظيم وجلال العظيم الكبير الأكبر، المتكبر وكبرياؤه وصف القهر والكمال. المجيد الرفيع فلا يدركه الوهم والخيال، الظاهر فتعرفه العقول بصنعمته، الباطن فلا سبيل إلى إدراك صمديته، الجبار فلا تصل العقول إلى الإحاطة بجلاله، القاهر لمباديه فيجبرهم على ما يشاء من أفعاله، المتفضل على عبده بجبر كسره وإصلاح أحواله، العزيز الذي لا ضده ولا شبيه له الغالب المعز لمن يواليه، الجليل الذي دهشت في جلاله عقول العارفين، وكلت دون ثنائه ألسنة

(١) بمعنى جميل عطائه .

الواصفين ؛ فهم بين جماله وجلاله يرتعون وإلى أنوار هدايته يرجعون ، يتمسكون بحبل الله المتين ، (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) .

(أحده) على ما ألهمنا من معرفته وأكرمنا به من جزيل نعمته . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أعدّها من أكبر نعمه وعطائه ، وأعدّها وشيطة إلى يوم لقائه . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المصطفى ، الذي نفى به علل الصدور وشفق ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه مصابيح الهداية صلاة دائمة متوالية أبداً ، من غير نهاية .

هذا كتاب فيه فصول يتذكر بها من أصفى إليها بسمع قابل ، وينتفع بها من كان قلبه روضة بصيبيها الطلّ والوايل ، جمعتها ما بين آيات مفسرة وأخبار مسندة مؤثرة ، وخطيب وعظمية مبتكرة وكلمات مقولة عن السلف الصالحين . ونظم ونثر من كتب الأئمة العاملين وسميته كتاب : [طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب] .

ولأنما سميته بهذا الاسم لأنني لما أكلته رأيته في المنام وهذا الاسم عليه مكتوب بخط غليظ فسميته بذلك . ونسأل الله تعالى أن يسلك بنا قصد السبيل إليه ويرزقنا حسن الأدب بين يديه ، ويجعل مقاصدنا خالصة لوجهه الكريم ، إنه هو السميع العليم .

الفضل الأول

في الإيمان

الحمد لله الذي رسم في صناعات المصنوعات قواطع الدلائل ، وفرق بمحكم الآيات
اليينات بين الحق والباطل. الموجود بلا بداية فلم يزل أزلياً وأولياً وهو الأول، قبل الأوائل
الباقى بلا نهاية فلا يزال أبدياً وهو الآخر بعد كل زائل، الواحد القدوس فلا شريك له
ولا مماثل ، الحى العليم القدير المدبر الخبير السميع البصير المتكلم وهو أصدق قائل .
صفاته قديمة ثابتة بالنقل والعقل فمن عطل^(١) فهو بتخيالاته يجادل ، وتنزيهه عن أوصاف
الحدوث معلوم بالدليل فمن شبه فهو من أهل الباطل . كيف يشبه القديم الأزلى بالحدث
الزائل ؟ أم كيف تماثل الصنعة الصانع ؟ أو تضارع الأفعال الفاعل ؟ لاتدركه الأبصار ،
ولا تمثله الأفكار ، ولا يحيط به عقل عاقل . انقطعت الأوهام ، وحارت الأفهام ، وبحر
المعرفة ليس له ساحل . فالتسليم أسلم ، والتعظيم رد الأمر إلى من هو أعلم . فالعجز واقع ،
والخسر حاصل . فسبحان من نور أسرار أوليائه بذكره . وعاملهم بالفضل التام ،
والإحسان الشامل . فهم عن باب لا يبرحون ، وعلى بساط قربه ينعمون وينشرحون ،
وأنفاسهم إليه رسائل . لهم في الدجى أنس بذكره وخدمته ، فهم أيقاظ والناس ما بين
نائم وغافل . فتبارك من قسم عطاءه بين خلقه وهو فى أحكامه عادل ، يدعو الفقراء إلى
نواله . ويقول فى كل ليلة « هل من مستغفر ، هل من سائل ؟ » .

(١) المعطلة: هم الجهمية وهم أتباع جهم بن صفوان . وهو الذى عطل صفات الله
فكان يقول : إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ، ولا كلم الله موسى تكليمًا .

أحمد على جميع فضله الطويل المديد الوافر السكامل ، وأعتد على كرمه اعتماد عبد
أنفى إلى باب الرّواحيل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله لا ينقص خزائن
ملكه العطاء ولا تُبْرِمُهُ المسائل ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله انتخبه من أشرف القبائل ،
وزينه بأكل الفضائل ، وجعل اتباعه من أشرف الوسائل ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه
بالقدوة والأصال .

في قوله عز وجل : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا
تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

الإيمان : التصديق . فالؤمن من صدق بأن الله تعالى هو الإله الحق الأول الآخر ،
الظاهر الباطن ، القدوس الصمد الواحد الأحد ، الخى العليم القدير المدبر السميع البصير ،
المتكلم بكلام قديم يحل عن التحديد ، الملك الفعال لما يريد . وأن الله تعالى أنزل الكتب
وأرسل الرسل . وأنه يحيى الموتى ، وأن جميع ما جاء به الرسول حق . فهذا أصل الإيمان ،
والإقرار به فرض مع الإمكان ، وثمراته الخوف من وعيد الله تعالى ، ورجاء وعد الله تعالى
وتمظيم جلال الله ، وامتنال أمر الله ، واجتناب محارم الله ، والصبر على أحكام الله ،
والشكر لنعم الله تعالى ، ودوام الافتقار إلى الله تعالى ، والزهد فيما يقطع عن الله تعالى ،
والتوكل على الله تعالى ، والمحبة والشوق إلى الله تعالى ، والرضا بما قضى الله تعالى ، وإخلاص
النية في العمل لله تعالى ، والصدق في السر في معاملة الله تعالى ، والحساسية للنفس والفكرة
في آلاء الله تعالى ، والمرافقة والخياء من الله تعالى ، وغير ذلك من الأوصاف الحمودة .
واعلم أن الإيمان يزيد وينقص ، ويظهر تفاوته بالتفاوت في ثمراته ، ويرجع بقدر
اليقظة والذكر ، ويخفّ بقدر نسيان القلب وغفلاته . قال صلى الله عليه وسلم : « لا يزني
الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . وذلك
لأنه غافل حالة المعصية عن الله تعالى ، خال عن عبادة الله تعالى فينقص إيمانه بذلك .

وأما الإسلام : فهو الاتقياد لأوامر الله تعالى ، واعتقاد وجوب طاعة الله تعالى .

فمن صدق بقلبه واعتقد وجوب طاعة الله تعالى ولم يوفق لفعلها فهو مؤمن مسلم غير محسن ولم يمانه ناقص .

وأما الإحسان : فهو كمال الإيمان ، ومعناه فعل ما أمر الله تعالى به وترك ما نهى الله تعالى عنه . في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل » الحديث . « ثم أذبر الرجل فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : ردوا على الرجل ، فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم » .

وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

وعن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ النَّارَ » .

وعن عتاب بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَيَدْخُلُ النَّارَ » .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : « قلت يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ » .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ »

وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ .

وعن أنس أيضاً رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِحَارِهِ ، أَوْ قَالَ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَذْنَاهَا إِطَاعَةُ الْأَمْرِ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَآخِلْيَا شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : أَوَّلُهَا أَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ ، وَالْحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ » .

وعن ابن عمر أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشَبِّهُ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ لَا يَتَمَحَاتُ وَرَقُهَا تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا فَسَكَتُوا ، فَقَالَ : هِيَ النَّخْلَةُ » . وهذا الحديث يؤيده قوله عز وجل :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً (وَهِيَ كَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ (وَهِيَ النَّخْلَةُ) (أَصْلُهَا ثَابِتٌ) كَمَا أَنَّ أَصْلَ التَّوْحِيدِ مُسْتَقَرٌّ فِي الْقَلْبِ (وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) أَى صَاعِدٌ فِي الْمَلَوِ ، وَكَذَلِكَ فَرَعُ الْإِيمَانِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَالْإِحْسَانُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) وَالنَّخْلَةُ لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا ، وَالْمُؤْمِنُ لَا يَتَغَيَّرُ إِيْمَانُهُ بِاخْتِلَافِ أَهْوَاءِ أَهْلِ الْبَاطِلِ . وَالْمُؤْمِنُ شَرِيفُ الْمُؤْنَةِ كَالنَّخْلَةِ . وَالنَّخْلَةُ إِذَا فَرَعَتْ فَرَعَتْ وَإِذَا فَرَعَتْ أَثْمَرَتْ ، وَالْمُؤْمِنُ إِذَا أَدَّبَ تَأَدَّبَ ، وَإِذَا هُذِبَ تَهَذَّبَ . الْمُؤْمِنُ خَفِيفُ الْمُؤْنَةِ كَالنَّخْلَةِ إِذَا وَقَعَتْ عَلَى عَوْدٍ لَمْ تَكْسِرْهُ وَهِيَ تَأْكُلُ طَيِّبًا وَيَصْدُرُ عَنْهَا طَيِّبٌ . وَالْمُؤْمِنُ

يَأْكُلُ حَلَالًا فَيَصْدُرُ عَنْهُ صَالِحُ الْأَعْمَالِ . النَّحْلَةُ لَهَا بَها صَافٌ وَشَرَابُها شَافٌ ، وَالتَّوْمَنُ رُوْبُهُ شَفَاءٌ ، وَمَوْعِظَتُهُ دَوَاءٌ ، يُنْتَفَعُ بِرُوْبَتِهِ قَبْلَ رِوَايَتِهِ ، وَخَيْرُهُ بَادِرٌ وَشَرُّهُ نَادِرٌ .
 قَالَ الْفَضِيلُ : الْمُؤْمِنُ قَلِيلُ الْكَلَامِ ، كَثِيرُ الْعَمَلِ ، وَالْمُنَافِقُ كَثِيرُ الْكَلَامِ ، قَلِيلُ الْعَمَلِ .

وَقَالَ ذُو النُّونِ : الْمُؤْمِنُ بِشَرِّهِ فِي وَجْهِهِ ، وَحَزَنُهُ فِي قَلْبِهِ ، أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْرًا ، وَأَخْفَى شَيْءٌ نَفْسًا ، زَاجِرٌ عَنِ كُلِّ شَرٍّ ، آمِرٌ بِكُلِّ خَيْرٍ ، لَا حَقُودَ وَلَا حَسُودَ ، وَلَا مَرْتَابَ وَلَا سَبَّابَ وَلَا عِيَّابَ . يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ ، وَيُبْغِضُ السَّمْعَةَ ، طَوِيلُ الْهَمِّ ، كَثِيرُ الْغَمِّ ، حَلِيفُ الصَّمْتِ ، عَزِيزُ الْوَقْتِ ، لَا مُتَفَاخِرَ وَلَا مُتَهْتَكَ ، ضَحْكُهُ تَبَسُّمٌ ، وَاسْتِفْهَامُهُ تَعَلُّمٌ ، وَمِرَاجَعَتُهُ تَفْهِيمٌ ، لَا يَبْخُلُ وَلَا يَعْجَلُ وَلَا يَضْجُرُ وَلَا يَجْهَلُ ، لَا جَرَّعٌ وَلَا هَلْعٌ وَلَا عِنْفٌ وَلَا صَافٌ^(١) .
 قَلِيلُ الْمُنَازَعَةِ ، جَمِيلُ الْمِرَاجَعَةِ ، عَدْلٌ إِنْ غَضِبَ ، رَفِيقٌ إِنْ طَلَبَ ، خَلِيسُ الْوَدِّ ، وَثِيقُ الْعَهْدِ ، وَفِي الْوَعْدِ ، شَفُوقٌ وَصُولٌ ، حَلِيمٌ حَوْلٌ ، قَلِيلُ الْفَضُولِ^(٢) ، رَاضٍ عَنْ مَوْلَاهُ ، مُخَالَفٌ لِمَوَاهٍ ، لَا يُعَاطِظُ عَلَى مَنْ يُؤْذِيهِ ، وَلَا يَخُوضُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ ، إِنْ سُبَّ وَأُذِيَ لَمْ يَسُبَّ ، وَإِنْ طَلَبَ وَمُنِعَ لَا يَعْضَبُ ؛ وَلَا يَشْتُمُ بِمَصِيبَةٍ ، وَلَا يَذْكُرُ أَحَدًا بِغِيْبَةٍ ، هَشَّاشٌ بِشَّاشٍ ، لَا خَاشٍ وَلَا غَشَّاشٍ ، كَطَّامٌ بِسَّامٍ ، دَقِيقُ النَّظَرِ عَظِيمُ الْحَذَرِ . فَهَذَا هُوَ الْمُؤْمِنُ حَقًّا . وَفِي الْحَدِيثِ : « الْمُؤْمِنُ كَالْجَلْرِ الْأَنْوَفِ ، إِنْ قِيدَ انْقَادًا ، وَإِنْ أُرْبِخَ عَلَى جَهْرَةٍ اسْتَنَاحَ » وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا دُعِيَ ظَهَرَ أَجَابَ بِسَهْوَةٍ ، كَالْجَلْرِ الْخَزُومِ فِي أَنْفِهِ كَمَا قِيلَ :

خِيَانَةُ أَهْلِ الْحُبِّ أَنْ يُظَاهِرُوا الشُّكُورَ
 وَصِدْقُهُمْ فِي الْحُبِّ أَنْ يَكْتُمُوا الْبُلُورَ
 وَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَجَرَ الْحَبِيبِ كَوَضْلِهِ
 فَذَاقَ مِنْ طَعْمِ الْفَرَامِ سِوَى الدُّعْوَى

(١) لَيْسَ بِمُتَكَبِّرٍ وَلَا مُغْرُورٍ . (٢) أَيْ قَلِيلُ الْكَلَامِ .

وكان أن الجمل الأنوف إذا أنبغ على جمر استناخ. كذلك المؤمن مقيم على باب مولاه صابر معه على بلواه كما قيل فيه :

وَمَا زَالَ بِي شَوْقِي إِلَيْكَ يَقُودُنِي يُدَلِّلُنِي مَنِّي كُلُّ مُتَمَنِّعٍ صَعْبٍ
إِذَا كَانَ قَلْبِي سَائِرًا بِذِمَامِهِ فَكَيْفَ لِحُسْنِي بِالْمَقَامِ بِلَا قَلْبٍ

قال عبد الواحد بن زيد : مررت في بعض الجبال بشيخ أعمى أصم مقطوع اليدين والرجلين وهو يقول : إلهي وسيدي : مَتَمَنِّعَتْنِي بِجَوَارِحِي حَيْثُ شَتَّتْ ، وَأَخَذَتْهَا حَيْثُ شَتَّتْ ، وَتَرَكْتُ لِي حَسَنَ الظَّنِّ فَيْكَ ، يَا بَرَّ يَا وَصُول . قال : فقلت في نفسي : أَيْ بَرَّ مِنْ اللَّهِ عَلَى هَذَا ؟ وَأَيُّ وَصَلٍ ؟ فَقَالَ : إِلَيْكَ عَنِّي يَا بَطَّال ، أَلَيْسَ تَرَكْتُ لِي قَلْبًا يَعْرِفُهُ ، وَلِسَانًا يَذْكُرُهُ ، فَهُوَ نَعِيمُ الدَّارَيْنِ جَمِيعًا .

ويقال في قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ) الآية. قالوا بألسنتهم ثم استقاموا فصدقوا بقلوبهم. ويقال قالوها مصدقين، ثم استقاموا بالطاعة على التصديق حتى ماتوا مؤمنين. ويقال قالوها بالإيمان، ثم استقاموا بالطاعة والإحسان. ويقال لا إله إلا الله مفتاح الجنة، ولكن أسنانه الأعمال الصالحة، فمن جاء بالمفتاح وله أسنان فتح له .

وأما قوله : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَزُومُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) فهوؤلاء قوم منافقون أسلموا بظواهرهم ، ولم يصدقوا بسرائرهم . فلما ادَّعَوْا الْإِيمَانَ أَكْذَبَهُمُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ : (وَلَمَّا بَدَخِلِ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ) ثم بين وصف المؤمنين فقال (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) .

ويقال الإيمان كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك. الإيمان كسفينة موسى من ركبها كان الظفر له ، الإيمان كخاتم سليمان ، المز مع وجوده ، والذل مع فقده ، الإيمان كمصى موسى تلقف عصى السحرة. وكذلك الإيمان تحقق عنده الشبهات والتخييلات

وتغفر مع صحته السيئات . الإيمان كالماء العهور يطهر ما قبله وما بعده ، ولا ينبس حتى يتغير . الإيمان كالحرث من دخله كان آمناً . يقول الله تعالى : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي » .

رأى بعض الصالحين عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام في المنام فقال : إني أريد أن أصنع خاتماً فما أنقش عليه؟ فقال عيسى عليه الصلاة والسلام : انقش عليه « لا إله إلا الله الحق المبين فإنها تذهب الهم والغم » والإشارة إلى أن نقشها في القلب يذهب هم الآخرة ، كما قيل في ذلك :

نَقَشْتُ اسْمَ مَحْبُوبِي عَلَى قَصٍّ خَائِمِي وَمَا غَابَ عَنْ طَرَفِي وَلَمْ يَخْلُ عَنْ قَلْبِي
فِي مَسْـُـدِّ بُرْءِ السَّقَامِ وَلِثْمَةِ مُبِرِّدٍ مَا أَلْقَى مِنَ الْوَجْدِ وَالْكَرْبِ
حُرُوفُ اسْمِهِ مَنقُوشَةٌ فَوْقَ كُلِّ مَا أَعْيَيْنُهُ لَكِنْ تَدَاوَيْتُ بِالسَّكْتِ
حَرَامٍ عَلَى قَلْبِي الشُّلُوفُ وَإِنِّي لَمَبْدُ لَهُ فِي حَالَةِ الْبُعْدِ وَالْقُرْبِ

واعلم أن أصل الإيمان إلهام يلقى الله تعالى في القلب ، ثم يزداد بالنظر في المصنوعات قوة ووضوحاً ، وينمو بسماع القرآن وصحبة الصالحين ونحو ذلك .

قال الله تعالى : (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) حبيب إليكم الإيمان ، ويسر لكم القرآن ، وكره إليكم العصيان ، وصرف عنكم الشيطان ، وخلق لكم الجنان ، وضمن لكم الغفران ، ووهبكم الرضوان ، وزين السماء بأنوار الكواكب وزين القلوب بأنوار المواهب ، فزينة السماء محروسة عن الشياطين ، وزينة القلوب محفوظة عن إبليس اللعين .

قال الله تعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وقيل معناه في أصل الإيمان ، فإنهم وإن وقعوا في العصيان ، فإنهم بين خوف العقاب ورجاء الغفران . قلب المؤمن زينة الرحمن ، فهو كالبلستان غرسه الملك المنان ، وحفظه من الشيطان ، ومن زرع زرعا سقاء .

ومن صنع معروفاً أبقاه . ومن زين موضعاً وقاه . الإيمان من أفضله فهو أولى بحفظه .
ولما كاله كما قيل :

عِنْدِي حَدَائِقُ وَدَرِّ غَرَسٍ نِعْمَتِكُمْ قَدْ مَسَّهَا عَطَشٌ فَلَيْسَتْ مِنْ غَرَسَا
فَدَارِكُوهَا وَفِي أَغْصَانِهَا رَمَقٌ فَلَنْ يَمُودَ أَخْضِرَارُ الْعُودِ إِنْ يَسَا
إِنِّي صَدِيقَةٌ أَيْدِيكُمْ وَأَنْعُمُكُمْ فَلَا تَتْرُكُونِي فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ دَرَسَا
إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا أَنْشَأَ حَدَائِقَهُ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ تُسْقَى وَتَنْحَرِسَا

ما أعلمك به فهو به أعلم ، وما قواك عليه أقوى ، وما حبيبك إليك فهو له أحب ،
وقد حُبب إليكم الإيمان . فإذا كان يحب إيمانكم فهو أولى بحفظ محبوه ، فذلك
لا يسهو عنك بسهوك ، ولا يغفل عنك بلمهوك (وَكَرَّمَهُ إِلَيْكُمْ الْكَفَرُ وَالْأُسُوقَ
وَالْعِصْيَانَ) للؤمن يكره فعل المعصية وإن وقع فيها ، وإنما يُعْطَى على عقله وقت فعلها
فلذلك إذا وقع فيها عاوده الندم والأسف . قال تعالى : (أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضَلَّا
مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً) مدحهم على ما منحهم وأثنى عليهم بما أودع لديهم ، ثم عرفهم أن ذلك
من فضله ليشغلهم الشكر عن الإعجاب فإن الإعجاب حجاب .

خرج أبو حفص النيسابوري فرأى يهودياً فوق مغشياً عليه فلما أفاق سئل عن ذلك ،
فقال : رأيت رجلاً عليه لباس العدل وعلى لباس الفضل فغشيت أن يبدل الله لباسي
بلباسه ؛ فلبسحان من حُبب إلينا الإيمان وسبب وزين وبين ، وأيد وسدد وعصم وأنعم
وأكل وأجل وعرف وألف ، وأسمع وأطعم وقرب وأذن وطيب وأغنى وأقنى ، ثم
مدحنا على فضله وتفضل بالجزاء ، وطاعتنا من فعله ليسكون الثواب أهني والفضل أتم
وأسنى فله الحمد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

الفصل الثاني

في التناء

الحمد لله الذي عز جلاله فلا تدركه الأفهام ، وسما كماله فلا يحيط به الأوهام ،
وشهدت أفعاله أنه الحكيم العلام الموصوف بالحياة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر
والسكلام صفاته قديمة لا تشبه صفات خلقه ، فمن شبهه فقد شابه عبدة الأصنام ، جل
الواحد الأحد الصمد ، فلا يحيط به فكر ولا يحده حصر ولا يحويه نظر فلا يجب عليه
حق ولا يتوجه عليه ملام . هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ، تعرف
إلى خلقه بصنعمته فنصب على معرفته الأعلام ، وأوضح الدليل على تمام حكمته وكال قدرته
بترتيب مخلوقاته على وصف الإتيان والإحكام ، وقسم عطاءه بين خلقه في الظاهر والباطن
أقسام ، فالؤمنون حبيب إليهم الإيمان وشرح صدورهم للإسلام ، والكافرون حبيبهم عن يابه
وجرت بشقاوتهم الأقسام ، والعلماء زينهم بإقامة الحجج الدينية ومعرفة الأحكام ، والعارفون
أودعهم لطائف سره فهم أهل المحاضرة والإلهام ، والعاملون وفقهم نخدمته فهجروا لذية
المنام وأقام همهم فاستقاموا ، وقاموا في جنح الظلام ، والحيثون أذاقهم لذة قربه وأنسهم
فشغلهم عن جميع الأنام ، والنافلون أذهلهم عن النظر في المواقب فبحسوا للآثام ؛ فسبحان
من منح ومنع ووصل وقطع وفرق وجمع فبمشيئته الإحجام والإقدام ، يقبل التوبة
ويكشف الحوبة ويغفر الإجرام ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام .

أحمد على ما أولانا من جزيل الإنعام ، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له
شهادة من قال ربى الله ثم استقام ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وقد ارتفع من غبار

الشرك قتام ، وسطع من غير السكفر ظلام ؛ فلم ينزل صلى الله عليه وسلم يناضل بالحجج والسنن والحسام ، ويقاتل في سبيل الله بعزم واهتمام ، حتى انتشع عن سماء الحق تراكيم الغمام ، وطلع من أفق الإيمان بدر الثمام ، وأظهر حجج الله تعالى ، وبين الحلال والحرام ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه البررة الكرام ما وكف^(١) قطار واضطرب نهر وانفتح زهر ومال غصن وغرد حمام .

في قول الله عز وجل (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) .

تبارك : من البركة ، والبركة الدوام والبقاء وكثرة الخير والنفع ، والحق سبحانه وتعالى دائم البقاء كثير الخير دائم المعروف سبحانه ، ويقال تبارك : أى تعظم ربك ذو الجلال والجلال وصف العز والكبرياء والعظمة والعلو والرفعة ، ومعناها فى وصف الله تعالى تنزيهه عن مشابهة الخلق وتقديسه عن النقص ، وتعالى عن إدراك الوهم وتمام سلطانه ، وأنه ذو السطوة والقهر ، ومعنى الإكرام وصف الجلال والرحمة والرافعة والبر ، وأنه ذو المغفرة والعفو فإن الملك من هيئته يخشى فتوجب الرهبة ، ورأفته توجب الرغبة ليكون العبد بين خوف ورجاء وقبض وبسط وهيبة وأنس ومحو^(٢) وصحو^(٣) .

قال الله تعالى : (حُمِ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ - غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلُوعِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ) . ح أقسم بحلمى ، م أقسم بمجدى ، فمن الجلال الجدد والحلم ، ومن الجلال العز والعلم ، ثم من الجلال غافر الذنب وقابل التوب ، ثم من الجلال شديد العقاب ، ثم من الجلال ذى الطول : أى الفضل ؛ رَدَدَكَ بين خوفه ورجائه وأقامك بين رأفته وكبريائه ، فارتع بسرك على بساط ثنائه وتنعم بقلبك فى رياض أسمائه . فَبُحْ بِاسْمِ مَنْ تَهَوَّى وَدَعْنِي مِنَ السَّكْنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرٌ لَا رَاحَةَ لِلْمُؤْمِنِ دُونَ لِقَاءِ رَبِّهِ ، فلا راحة له اليوم إلا فى ذكره لمولاه فإنه نعم قلبه .

(١) وكف : يعنى ما نزل القطر . (٢) المحو : استره الحق ونفاه .

(٣) الصحو : هو الرجوع إلى الإحساس بعد الغيبة .

الْقُرْبُ مِنْكَ هُوَ النِّعَمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ
إِنَّ اللَّذِيحَ (١) مِنَ الْهَوَى شَوْقًا هُوَ الْقَلْبُ السَّلِيمُ

كيف يصبر عن قرب من وجد طعم حبه ؟ أم كيف لا ينقطع إليه من وجد التذلل بين يديه ؟ كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعوذُ برضائك من سخطك ، وبمغافاتك من عقوبتك ، وبك منك لا أحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » هذا سيد المرسلين وإمام العارفين ، معذل بين يدي رب العالمين ، ومشاهد عجز العقل عن إدراك كبريائه ، وقصور جميع الخلق عن حقيقة ثنائه ، جل الواحد الأحد فأنى بالوصل وتقدس القيوم الصمد ؟ فن ذا الذي للقرب أهل .

فَلَا وَصَلَ إِلَّا ذِلَّةً وَتَخِيْرًا وَهَيْبَةً إِعْظَامٍ بِعِزٍّ جَلَالِهِ
وَلَا قُرْبَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مُوَلِّيًا بِذِكْرَاهُ أَوْ مُسْتَفْرِقًا بِجَمَالِهِ

أيها الفقير لازم باب المولى الكريم ، وتعزز بالمولى العزيز العليم ، ونه عن كل الأكوام لمعبودك ، وهون الروح في طلب مقصودك فإنه كريم ، من توسل إليه بطاعته تفضل عليه بنعمته ، إن أطاع أكرمه وفضله ، وإن أضاع رحمه وأمهله ؛ فإن تاب وأناب شكره ، وإن عصى وأساء ستره ، عزيز شهد بجلاله جميع أفعاله ، ونطق بحاله جميع أفضاله ، ودل على ثبوته بدائع آياته ، وأخبر عن صفاته عجائب مخلوقاته ، كريم من دعاه لباه ومن توكل عليه كفاه ، ومن انقطع إليه آواه ، ومن رجع إليه رحمه وأدناه ، ومن سأله أكرمه وأعطاه ، ومن أعرض عنه ناداه ، ألف المحبون قرب به فلا يصبرون عن لقاءه ، ألف العارفون مجده فلا يستأنسون بسواه جل علاه .

حَبِيبٌ أَرْجِيهِ وَإِنْ جَفَانِي وَبِعَلَّمَ مَا لَقِيتُ مِنَ الصُّدُودِ
وَيُظْهِرُ فِي الْهَوَى عِزُّ الْمَوَالِي فَيَلْزُمُنِي لَهُ ذُلُّ الْعَبِيدِ

عزيز اعترف العارفون بالقصور عن إدراك صمديته ، جليل تمنعت العقول خجلًا من

(١) لذع الحب قلبه : بمعنى آله :

الطمع في الإحاطة بأحدثه ، كريم صغرت الحوائج على ساحات جوده ورأفته ، رحيم تلاشت قطرات زلات عباده في تلاطم أمواج بحار رحمته . هو الذي رباك بنصمته ، وهداك إلى معرفته ، وزينك بمحبته ، فما لك لا تنقطع بالكلية إليه ، ومالك لا تعتمد في مهامك عليه . يامسكين إن أعرضت وأبيت وفي جحودك تماديت ، فما أقرك إلى وما أغنانى عنك ، يامسكين أنت إن لم تكن لي فأنا عنك غني وأنت المسكين ، إن لم أكن لك من ذا الذي يحسن إليك ؟ من ذا الذي ينظر إليك ؟ من الذي يهتم بشأنك ؟ بمن تتوسل إذا طردتك عني ؟ عبيد أنا لا أرضى إلا أن تكون لي أفترضى أن لا أكون لك .

يَا قَلِيلَ الْوَفَا كَثِيرَ التَّجَنِّي كَيْفَ تَرْضَى بِطُولِ بَعْدِكَ عَنِّي
لَوْ تَحَقَّقْتَ قَدَرَ وَضْعِي وَقُرْبِي لَبَسَكَيْتَ الدَّمَا لِمَافَاتٍ مِنِّي

لا يليق الوله والغرام ، إلا في حب مولى ليس للوهم فيه مرام . عزيز أذل الكون بحملته في طلبه وهو عزيز ، لجميع الأعيان والآثار تنادى على أنفسها بلسان الحال : نحن عبيد من لم يزل ولا يزال .

إِذَا حَدَّثَ الرَّأْيِ أَحَادِيثَ حُسْنِهِ يَقُولُ الْوَارِي هَذَا حَدِيثٌ مُصَدَّقٌ

سُبَّحَ كُلُّ شَيْءٍ بِحَمْدِهِ وَنَطَقَ كُلُّ شَيْءٍ بِمَجْدِهِ .

وَكُلُّ مَنْ بَالَعَ فِي وَصْفِهِ أَصْبَحَ مَنَسُوبًا إِلَى الْعَلِيِّ
وَإِنْ نَشَرْنَا ذِكْرَ إِحْسَانِهِ أَعْجَزْنَا النُّشْرُ كَمَا الطُّيْ

جبار جبر أحوال من رحمه ، وتجبر على من أقصاه وحرمه ، لطيف يعلم خفايا تصنع العاملين ، ويغفر عظام ذنوب التائبين ، كريم يبصر ويستر ، ويغفر ويحبر ، من اعتنى بشأنه غمره بإحسانه ، فإن تمادى بمصيانه حال بينه وبين اختياره بقهر سلطانه ، إن لم يلزم الطاعة باختياره ، ألجأه بالبلاء إلى بابه باضطراره ، اختار قوما لا لينتفع بهم بل لينفعهم ، وأذل آخرين فطردهم ومنعهم ، سبوح سبعت أسرار المحققين في بحر توحيده فوجدوه بلا شاطئ ، فلا خروج ولا براح لحازت أيديهم جواهر التفريد فوضعوها في تاج العرفان ولبسوها يوم اللقاء .

أُخْرِى الْمَلَأْسِ أَنْ تَلْقَى الْحَبِيبَ بِهِ . يَوْمَ الزِّيَارَةِ فِي الثَّوْبِ الَّذِي خَلَعَا

قدوس تعالى عن الوصول والاتصال، ليس لمن عرفه إلا التعظيم والاعتراف بالمعجز
عن إدراك الجلال، وشهود الحقائق شهود الأفعال . عزيز لم تنفطر القلوب إلا بنسيم
إقباله، ولم تنفطر الدموع إلا من خوف هجره أو طمع في وصاله، عزيز دلت أفعاله على
جلال شأنه وذلت الرقاب عند شهود سلطانه، كريم أرواح المحبين لذكره ألفت،
وأسرار الموحدين بساحات جلاله وقعت، ونفوس العابدين بالمعجز عن أداء حقه اتصفت،
وعقول العارفين بالمعجز عن معرفة كبريائه اعترفت؛ كريم بسط للمؤمنين بساط جوده
أنى بالوصل ولا تحوله وأنى بالوجود ولا حد له؟ من ذا الذى يدركه بالزمان، والزمان
خلقه؟ من الذى يحبس في المكان والمكان فعله؟ من ذا الذى يعرفه إلا به يعرفه،
كريم من طلبه عرفه، فإذا عرفه لاطفه؛ فإذا وجد لطفه ألقه، فإذا ألقه أنف أن يخالفه؛
هدى قلوب النافلين إلى طلب الدنيا فعمروها، وهدى قلوب العابدين إلى طلب المعقبي
فكابدوها، وهدى قلوب الزاهدين إلى فناء الدنيا فرفضوها، وهدى قلوب العلماء
إلى النظر في آياته فلا زموها، وهدى للراغبين إلى عز وصفه فأثروه وهدى العارفين
إلى قدس نعمته فراقبوه، وهدى الموحدين إلى علو سلطانه فتركوا ما سواه وهجروه
وخرجوا عن كل مألوف ومعهود حين وجدوه، وعلّموا أنه وراء كل فصل ووصل،
فرجموا إلى وطن المعجز فتوسدوه، كريم إذا ذكره العاصون نسوا زاتهم في جنب كرمه
ورحمته، عزيز إذا ذكره الطيعون، غابوا عن طاعتهم في جنب منته وعزته، عزيز
لا غرض له في أفعاله، ولا عوض عنه في جلاله وجماله، عز لسان ذكره، وأعز منه
قلب عرفه، وأعز منه روح أحبه، وأعز منه سرّ شاهده؛ ليس كل من طلبه وجدّه،
ولا كل من وجدّه بقي معه، فسبحانه لا إله إلا الله العزيز الحكيم .

اللهم اجعل في قلوبنا نورا نهتدى به إليك، وتولنا بحسن رعايتك حتى نتوكل عليك،

وارزقها حلاوة التذلل بين يديك . فالمميز من لاذ بمركزك ، والسعيد من التجأ إلى حماك
وجودك ، والدليل من لم تؤيده بعنايتك ، والشقي من رضى بالإعراض عن طاعتك ،
والحكم حكمتك فما تغنى الخيل ، والأمر أمرك ، فأليك تحقق الأمل .

اللهم نزه قلوبنا عن التعلق بمن دونك ، واجعلنا من قوم تحبهم ويحبونك ، اغفر لنا
ولو الديننا ولجميع المسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ،
والحمد لله رب العالمين .



مرکز تحقیق و پژوهش در تاریخ و فرهنگ اسلامی

الفصل الثالث

في الذكر

الحمد لله الذي تفرّد في أزليته بعزّ كبريائه ، وتوحد في صمديته بدوام بقائه ، ونور
يعمره قلوب أوليائه ، وطيب أسرار القاصدين بطيب ثنائه ، وسكّن خوف الخائفين بحسن
رجائه ، ونعم أرواح المحبين في رياض معاني أسمائه ، وأسبغ على الكافة جزيل عطائه ،
وقسم بين عباده ؛ فالقبول والرد والوصول والصد والخول والجد بمشيئته وقضائه ؛ الحقّ
العليم فلا يمزب عن علمه مثقال ذرة في أرضه وسمائه ، الولي القدير فلا شريك له في تدبيره
وإنشائه ، السميع البصير فلا يخفى عليه حركة ذرة في لجة البحر عند تلاطم أمواجه وتراكم
ظلماته ، المتكلم بكلام أزلي قديم لا يشبه كلام خلقه ، والقرآن كلام الله أنزله بنهيه وأمره
ووعده وإيماده وأنبائه ، الملك العزيز الذي من التجأ إلى حماه عزّ بالتجائه ، وانقطع الفقير
إلى بابه وشكا مواجيد برحائه واكتفى بتدبيره لأنه مطلع على ما في سويدائه . فوجد
عنده الشفاء ومن أولى منه يشفائه ، ظهرت شواهد وجوده فدليل توحيده في غاية ضيائه ،
خالعوى والسفلى والعرش والكرسى والجنى والإنسى في دائرة الافتقار إلى تدبيره
وإبقائه ، استوى على العرش من غير افتقار ولا افتقار ولا استقرار ولا استقامة لاستوائه ،
له الجلال والجمال والكمال والثناء الذي أقصرت الأبواب عن إحصائه ؛ فالصامت ناطق من
حيث الدلالة والناطق صامت وإن بالغ في الإفالة ، فإن للعقل حداً يقف عند انتهائه ، فرط
المبطل فما اهتدى وأفرط المشبه واعتدى فهلكا في قفار الجهل وبیدائه ؛ فالعارف أشرق
قلبه بمعرفة الله تعالى وأطرق سره لهيبة الله فتمسّر بل بحاله ، فسبحان من تقرب برأفته ورحمته
ونور هدايته إلى قلوب أحبائه ، وتعرف لعباده بمحاسن صفاته فانبسطوا لذكره ودعائه ،
يودعنا إليه بقوله سبحانه وتعالى : (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ
يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) .

أحمد حمد معترف بالعجز عن عدد آلائه مفتظراً زوائد بره وآلائه ونعمائه مستعجراً من بعده وإقصائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ضمن الحسنى لقائلها يوم لقائه ، ووعدته بزيادة النظر إليه وهو أحق بوفائه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم أنبيائه ، وسيد أصفياه ، الخصوص بالمقام المحمود في اليوم المشهود ، فجميع الأنبياء تحت لوائه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وخلفائه ، وعلى من اقتفى أثرهم إلى يوم الدين ففاز باقتفائه ، صلاة دائمة مadder وأبل واقتز من الروض معاطف أرجائه ، وقر سائل فكث في الأرض خالص مائه .

في قول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) الآية .

المؤمن يذكر الله بكلمه ، لأنه يذكر الله بقلبه ففسكن جميع جوارحه إلى ذكره فلا يبقى منه عضو إلا وهو ذاكر في المعنى ، وإذا امتدت يده إلى شيء ذكر الله فكف يده عما نهى الله تعالى عنه ، وإذا سمعت قدمه إلى شيء ذكر الله فوقف عن السعى إلا فيما يرضى الله ، وإذا طمعت عينه إلى شيء ذكر الله فتمض بصره عن محارم الله ، وكذلك سمعه ولسانه وجوارحه مصونة بمراقبة الله تعالى ومراعاة أمر الله والحياء من نظر الله تعالى فهذا هو الذكر الكثير ، والذكر القليل ذكر المنافقين ، يذكرون الله تعالى بالسنتهم رثاء الناس وليس في قلوبهم من الذكر شيء قال الله تعالى : (يَرَاهُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) .

والذكر المطلوب ذكر القلب ، وإنما اللسان طريق إليه ، فمن لازم ذكر الله تعالى بلسانه مخلصا لله تعالى وصلت بركة الذكر إلى قلبه فعاش قلبه بذكر الله تعالى ، فعند ذلك يكون ذكره كثيرا ، وقد أمر الله تعالى بالذكر ورغب فيه بآيات كثيرة في كتابه فقال تعالى : (فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

ومعناه اذكروني بخدمة أذكركم بنعمتي ، اذكروني بالتوحيد أذكركم بالتأييد

اذكروني بالشكر اذكركم بالمزيد ، اذكروني بالحببة اذكركم بالقربة ، اذكروني بالخوف اذكركم بالأمان ، اذكروني بالرجاء اذكركم بتحقيق الآمال .

وقال تعالى : (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وقال تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي ، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَيْئًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » . معناه من جاهد نفسه قليلا في خدمتي تقربت إلى قلبي برحمتي ونشرت عليه كثيرا من الطاعات بحلاوة ورغبة ، ورزقته لذة مناجاتي وحلاوة الأنس بذكري فيصير محمولا بعد أن كان حاملا .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنْ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَائِكَةٌ سَيَّارَةٌ فَضَلَاءَ يَتَّبِعُونَ الذَّكَرَ فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَأُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَمَاءِ الدُّنْيَا فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ قَالَ فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ جَنَّتِهِمْ ؟ فَيَقُولُونَ جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ عِبَادِكَ فِي الْأَرْضِ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَيِّئُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ ، قَالَ وَمَاذَا يَسْأَلُونِي ؟ قَالُوا يَسْأَلُونَكَ جَنَّتِكَ ، قَالَ وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي ؟ قَالُوا لَا أَيْ رَبِّ قَالَ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي ؟ قَالُوا وَيَسْتَجِيرُونَكَ ، قَالَ : وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونِي ؟ قَالُوا مِنْ نَارِكَ رَبِّ ، قَالَ وَهَلْ رَأَوْا نَارِي ؟ قَالُوا لَا قَالَ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي ؟ قَالُوا وَيَسْتَغْفِرُونَكَ قَالَ : فَيَقُولُ قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجْرَتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا ، قَالَ يَمُوتُونَ رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَاةٌ إِيَّاهُمْ مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ قَالَ : فَيَقُولُ وَلَهُ قَدْ غَفَرْتُ ، هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ » .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْخَلْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عِدَلُ عَشْرِ رِقَابٍ ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَوُحِّيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَقٌّ يُمَسِّي وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ فِي يَوْمٍ حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ » .

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « أَيْعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْتَسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ ؟ فَسَأَلَهُ سَائِلٌ : كَيْفَ يَكْتَسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ ؟ قَالَ يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ فَيَكْتَسِبُ لَهُ أَلْفَ حَسَنَةٍ أَوْ نَحْطُ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ » .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَسْتَسْكِرُّا مِنْ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ ، قِيلَ وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّسْبِيحُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ » .

وقال معاذ بن جبل : « مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ عَمَلًا أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ » .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْتَعُوا فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، قِيلَ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ يَجَالِسُ الذِّكْرُ أَغْدُوا وَرَوْحُوا وَأَذْكُرُوا ؛ مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللَّهِ عِنْدَهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ بِنَفْسِهِ » .

ويروى « إن في الجنة ملائكة يفرسون الأشجار للذاكرين فإذا ترك الذكر وقف الملائكة ويقول : ترك صاحبي الذكر » .

وفي الحديث يقول الله تعالى « أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي أَوْ عَزَّكَ بِذِكْرِي شَفَعْتُهُ وَأَيُّمَا عَبْدٍ أَطْلَمْتُ عَلَى قَلْبِهِ فَرَأَيْتُ الْغَالِبَ عَلَيْهِ التَّمَسُّكُ بِذِكْرِي تَوَلَّيْتُ سِيَاسَتَهُ وَكُنْتُ جَلِيسَهُ وَأَرْبَيسَهُ » .

ويروى « إن بيوت الذاكرين لها نور يراه الملائكة بقدر ما فيها من الذكر كما ترى من النجوم في السماء » وقال سهل بن عبد الله : إن الله تعالى يقول : عبدى ما أنصفتنى ، أذكرك وتنسانى ، وأدعوك إلى وتذهب إلى غيرى ، وأذهب عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا . يا ابن آدم ماتقول غدا إذا جئتنى ؟ وقال ذو النون : من ذكر الله على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضا من كل شيء . ويقال ذكر اللسان حسنات ، وذكر القلب قربات ودرجات . ويقال الإشارة في قوله تعالى : (اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) أى أحبوا الله فإن في الحديث « مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ » فالحب لا ينسى محبوبه في بعد ولا قرب ولا وصل ولا هجر . وفي التوراة يقول الله تعالى : إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال فى جعلت نعيمه ولذته فى ذكرى ، فإذا جعلت نعيمه ولذته فى ذكرى أحبنى وأحبته ورفعت الحجاب بينى وبينه لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة ذكرتهم فصرفت بهم عنهم .

وفي بعض الكتب يقول الله عز وجل : يا ابن آدم إذا ذكرتنى ذكرتك ، وإذا تركتني تركتك والساعة التى لا تذكرنى فيها عليك لالك . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود أنا بذكرك اللازم فالزم بذكرك ، معناه أنا الذى لا بد لك منى فإلى أين تذهب عنى ؟ هل يقدر غيرى أن يغنيك إذا أفقرتك ، أو يستطيع أحد أن يقربك إن أبعدتك ، كم يتعرف إليك من هو عنى غفلك ، وتجهل عنه مع فقرتك إليه

قال ابن عباس رضي الله عنهما : جعل الله تعالى لجميع الطاعات أوقانا محدودة ، ولم يرض من الذكر إلا بالكثير من غير تحديد (أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) .

قوله : (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) التَّسْبِيحُ الصلاة والذكر ، والبكرة ربع النهار الأول ، والأصيل ربع النهار الآخر ، (هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ) صلاة الله تعالى رحمته ، وصلاته صلته وبره وثناؤه على عباده بما ألهمهم من ذكره ، وصلاة الملائكة استغفارهم ودعائهم للمؤمنين ليخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ من ظلمات الكفر والجهل والغفلة والخذلان إلى نور الإيمان والعلم ، والذكر والإحسان ، وفي الآخرة يخرجهم من ظلمات الموقف وشدائده إلى نور الرضوان ونعيم الجنان (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) ينظرون الله عز وجل ويسمعون سلامه عليهم فيكمل لهم النعيم قال الله تعالى (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) ويقال في قوله تعالى (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) فإن الذكر بالقلب أفضل من العبادات مع الغفلة وأكثر أجرا قاله سلمان الفارسي وقتادة ، وقيل معناه أن ذكر الله بالقلب ومراقبته ، والحياء من نظر الله تعالى أكبر زجرا ونهيًا عن المعاصي من جميع الطاعات ، قاله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه . وقال ابن عباس وأبو الدرداء ومجاهد وعكرمة : معناه ذكر الله لكم أكبر من ذكركم لله ، قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ) أي وسوسة من الشيطان (تَذَكَّرُوا) أن الله ناظر إليهم (فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) .

اللهم يا ذا الجلال والإكرام ، يا عزيز لا تحيط بجلاله الاوهام ، يا من لا غنى لشيء عنه ، يا من لا بد لكل شيء منه ، يا من رزق كل شيء عليه ومصير كل شيء إليه ، يا من يعطي من لا يسأله ، ويحود على من لا يؤمله ، هانحن عبيدك الخاضعون لهيبتك ، للتذللون لمرتك وعظمتك الراجون جميل رحمتك ، أمرتنا فقرطنا ولم تقطع عنا نعمتك ، ونهيتنا فمصبنا ولم تقطع عنا كرمك ، وظلمنا أنفسنا مع فقرنا إليك فلم تقطعنا مع غناك عنا يا كريم .
إلهي ردنا إليك بفضلك ورحمتك ، ووقفنا للأقبال عليك والاشتغال بخدمتك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الرابع

في الفكر

الحمد لله الذي تقدس في أزليته وأبديته وأحدثه^(١) عن النظير والشبيه ، وتنزه في جماله وجلاله وكلامه عن مقالات أهل التمويه ، الغنى عن جميع خلقه ، فلا أمد يحصره ، ولا أحد ينصره ، ولا ضياء يظهره ، ولا حجاب يحقيه ، الواحد الأحد القدوس الصمد الذي لا شك فيه ، شهدت بكمال قدرته عجائب صنعته ، فكل ما سواه موجد ومدير ومنعميه ، والحي العليم القدير السميع البصير الملك الكبير فلا مقرب لمن يبعده ، ولا مبعد لمن يدينه ، المتكلم بكلام قديم أزلي جلّ عن التكليف ، ومن عطل أو شبه فقد وقع في التيه ، حجب المؤمن إثبات صفات الكمال والعجز عن إدراك الجلال فهذا القدر يكفيه . ومن رام الوقوف على غاية أو ظن المعرفة لها نهاية فقد تعدى طوره ، « من حُسِنَ إسلام المرء تركه مالا يعنيه » . أما المصنوعات فللنظر فيها مقنع ، وأما خطيب الوجود فقد بلغ وأسمع ، وأما وقوفك حيث أوقفك مولاك فأسلم وأنفع ، ردد نظرك في آلائه فهي آلات التنبيه ، السماء قبة مرفوعة فيها

(١) الأحدية: أخذت من الأحد ، والأحد هو الله سبحانه ومنه قوله تعالى : (قل هو الله أحد) .

والفرق بين الواحد والأحد من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : أن الواحد يدخل في الأحد . والأحد لا يدخل فيه .

الوجه الثاني : أنك إذا قلت فلانا لا يقاومه واحد جاز أن يقال ولكنه يقاومه اثنان .

الوجه الثالث : أن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد يستعمل في النفي ، نحو ما رأيت

أحدا فيفيد العموم .

عجائب الأشكال ولا بقاء للأشكال إذا صح الدليل عند الفقيه ، انظر إلى النجوم في طالعها وارتفاعها وتوسطها وغروبها وهبوطها كل يشهد بحكمة مجريه ، والشمس في صعودها على سحاب النعم وكفت نحو الشمال وهبوطها نحو الجنوب ، والقمر في محاقه وتجليه ، والسحاب مسخرات بقدرته ، والرياح مبشرات برحمته ، وعطشان الأرض يستسقي مولاه فيسقيه ، فإذا خرج إلى رياض توقيع السكرم وكفت عليه سحاب النعم وكفها^(١) فاختال كل غصن يمس في ثنيته ؛ فالنسيم يحرك عيدان الأشجار ، والشوق يستنطق أطيار الأوكار ، والروض يشرق أقطار الأفكار ، فسبحان من يميتة ثم يحييه . فالعقل إذا نظر في بدائمه أدرك بسره تسبيحه لصانعه ، والغافل يشغل به ويليه ؛ جل ذو العز والجبروت ، وتبارك ذو الجلال والملكوت ، فله الثناء الذي لا يصل إليه العقل ولا يحصيه .

أحمدوه وهو أهل الحمد والثناء ، والعز والكبرياء والجد والآلاء ، بيده الخير فهو مانحه ومعطيه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نهاية لعلمه ولا معقب لحكمه . ولا معارض له فيما يقضيه ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله شفيع الأمة وكاشف الغمة .
(يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ بَيْتِهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ) .

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومتبعيه ، ماتبسم وجه الأرض ضاحكا بالنبات شاهدا بقدرة مبدئه ، وانهمل دمع الغمام سائلا بالقطر دلالة على حكمة مبدئه .

في قول الله تعالى : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) .
(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا) أى يتفكروا ويتدبروا في عجائب المملكة وبدائع ما في السموات والأرض ، ويتفكروا ما خلق الله من كل شيء فيجدوا فيه دلالة على حكم الله تعالى ، ويتفكروا في اقتراب الآجال وانقطاع الآمال فيبادروا إلى صالح الأعمال (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ) بعد هذا القرآن يؤمنون والفكر في المصنوعات من أعظم القربات .

(١) بمعنى صببت عليه ماء رحمتها وهذا .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدُرُوا قَدْرَهُ » .

وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال إبراهيم بن أدهم : الفكرة حج العقل والقلب . وفي بعض كتب الله المنزلة : إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فإن كان همه وهواه إلى جعلت همته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . والفكرة على ثلاثة أقسام :

الأول : الفكر في المصنوعات والاستدلال بها على الله تعالى ، وهو شأن العلماء بالله تعالى .

والثاني : الفكر في لطائف صنع الله وفواضل نعم الله وهو مادة الشكر لله .

والثالث : الفكر في الأعمال وتخليصها وهو شأن العابدين .

قال الفضيل رحمه الله تعالى : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ؛ فأما الفكرة في المصنوعات فهو المراد في هذه الآية وأمثالها ، وأقرب للمصنوعات إليك نفسك . ففي نظرك إلى خلقك وتركيبك وهيكلتك وشهواتك وحواسك كفاية في الاعتبار . قال الله تعالى : (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ثم في كل جزء من المصنوعات دلالة كافية ، وعبرة شافية ، فإن الله تعالى كان في الأول وحده ، ثم خلق ما خلق .

ويروى أن الله تعالى خلق اللوح المحفوظ من درة بيضاء حافتاه من ياقوت أحمر ، وخلق القلم من جوهرة طوله خمسمائة عام ، ثم نظر إليه نظرة هيبة فانشق نصفين نبع منه النور ، ثم قال له اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فكتب ثم قال له : (اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة) فأجراه الله تعالى فكتب ما هو كائن وإن له ترجيعا بالتسبيح كالرعد ، وكتابته نور . ثم خلق الله تعالى جوهرة خضراء غلظها غلظ السموات والأرض ، ثم ناداها فاضطربت من هيبة الله تعالى فذابت فصارت ماء ، ثم اضطربت فارتفع منها زبد ودخان . ثم خلق الله تعالى العرش جوهرة خضراء ، لا يوصف عظمها ولا نورها له قوائم بين كل

قائمتين خفتان الطائر المسرع ألف سنة ، وإن العرش يكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور لا يستطيع أحد من المخلوق أن ينظر إليه ، وإن للعرش ألف لسان يسبح الله تعالى بأنواع اللغات .

ويروى: إن في العرش مثال ما خلق الله تعالى في البر والبحر . فإن كل إنسان له تمثال تحت العرش ، فإذا عمل المؤمن حسنة تصور تمثاله كذلك فظهرت حسنته ، وإذا عمل سيئة أُرْخِيَ الله تعالى ستره على صورته ليستر سيئته .

ويروى: إن الكرسي من لؤلؤة لا يعلم طولها إلا الله تعالى ، وإن العرش خلق قبل الكرسي بألفي عام ؛ فالسماوات والأرض في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة ، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في فلاة ؛ ثم خلق الله تعالى الريح فكان العرش على الماء والماء على الريح ثم خلق الله تعالى حملة العرش أربعة ، ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدمه مسيرة خمسمائة عام يحملونه على كواهلهم ، فإذا كان يوم القيامة أيدوا بأربعة فهو قوله تعالى (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) ثم خلق الله تعالى من الزبد الذي فوق الماء الأرض طبقة واحدة ثم فتحها سهما غلظ كل أرض مسيرة خمسمائة عام ، وبينها وبين التي تحتها خمسمائة عام ، ثم بعث الله تعالى ملكا من تحت العرش فهبط حتى دخل الأرضين فوضعها على عاتقه ، وأمسك أطرافها بيده فلم يكن لتقديمه موضع قرار ، فاهبط الله تعالى من الفردوس نوراً له أربعة آلاف قائمة فسنامه موضع قدمي الملك ، وقرون الثور خارجة من أقطار البحر وتحت الثور صخرة غلظها غلظ السماوات والأرض ، وهي الصخرة التي عنها لقمان عليه الصلاة والسلام قوله : (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ) الآية ، والصخرة على الحوت وهو البهوت ، وتحت الحوت ماء وتحت الماء ظلمة ، وعندها انقطع علم الخلق .

ويروى إن تحت كل أرض بحراً وتحت البحر السابع والأرض السابعة جهنم ، وهي مغلقة ، فإذا فتحت يوم القيامة أحرقت البحار السبعة .

وروى أن الأرض كانت تميد على الماء فخلق الله تعالى الجبال رواسى تمنعها أن تميد ،
بوخلق جبلا محيطا بالدنيا من زمردة خضراء وهو جبل ق .

وروى أن خلف جبل ق أرضاً من ثلج مسعة خمسمائة عام ومثلها من برد ، ومن
وراء ذلك جهنم ، ثم خلق الله تعالى الجنان وهي ثمان ، ثم خلق الله تعالى السموات سبعة ،
غلط كل سماء خمسمائة عام من نار ، وبين كل سماء وسماء كذلك فالسفلى السماء الدنيا
فيها ملائكة خلقوا من نار وريح ، وعليهم ملك اسمه الرعد موكل بالمطر ، وتسبيحهم :
سبعان ذى الملك والملكوت . والثانية : فيها ملائكة بأنواع شتى تسبيحهم : سبعان
ذى العزة والجبروت . والثالثة : فيها ملائكة ذوو أجنحة شتى ، ووجوه شتى ،
والسنة شتى ، رافعى أصواتهم يقولون : سبعان الحى الذى لا يموت . والرابعة :
كلون الفضة ، فيها ملائكة عدد ملائكة السموات الثلاث التى تحتها مرتين ،
وهم قيام وركوع وسجود يقولون : سبوح قدوس ربنا الرحمن لا إله إلا هو ،
وكذلك ملائكة كل سماء على الضعف من الذين تحتهم . والخامسة : كلون الذهب ،
فيها ملائكة ركوع وسجود لا يرفعون أبصارهم إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة
رفعوا أبصارهم ورؤوسهم وقالوا : سبعانك ما عبدناك حق عبادتك . والسادسة :
من ياقوت أحمر ، فيها الكروبيون جند الله الأكبر رافعى أصواتهم بالتهليل والتسبيح
والتقديس ، عليهم ملك معه سبعون ألف ملك كل ملك منهم معه سبعون ألف ملك .
والسابعة : من درة بيضاء ، فيها ملك له سبعمائة ألف ملك ، كل ملك منهم له من الجنود
عدد كل شيء خلقه الله تعالى ، ففى السموات السبع موضع إلا وعليه وجه ملك ساجداً
أو قدم ملك قائماً أو راكعاً .

وروى ابن مسعود « إن بين السماء السابعة والكرسى مسيرة خمسمائة عام ، وبين
الكرسى وبين العرش خمسمائة عام والعرش فوق ذلك كله لا يعلم منتهاه إلا الله عز وجل » .
وروى أن سدرة المنتهى أصلها تحت الكرسى وأغصانها تحت العرش ، إليها ينتهى

أمر الخلائق ، تحت كل ورقة منها أمة من الأمم وعليها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ومقام جبرائيل في وسطها .

وروى أن جبريل عليه الصلاة والسلام ترعد فرائضه من هيبة الله أحيانا ، ويخلق الله تعالى من كل رعدة مائة ألف ملك ، فهم صفوف قائمون فاكسو رؤوسهم ، لا يؤذن لهم في الكلام ، فإذا كان يوم القيامة أذن لهم في الكلام فقالوا كلهم لا إله إلا الله ، فهو قوله تعالى (لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) فالصواب لا إله إلا الله .

وروى أن جبرائيل له ستمائة جناح كلها مرصعة بالدر والياقوت وجلجل الذهب محشوة بالمسك اسكل جلجل صوت لا يشبه الآخر ، لو نشر جناحا من أجنحته لسد الأفق . وإن إسرائيل له اثنا عشر ألف جناح . جناح بالشرق وجناح بالمغرب والعرش على كاهله ، ورجلاه تحت الأرض السابعة ، وأنه إذا سميح عطل على الملائكة تسبيحهم لحسن صوته ، وأنه يتصاغر أحيانا من هيبة الله تعالى حتى يصير مثل العصفور فما يحمل عرش ربك إلا قدرة ربك وهذا كله في قدرة الله تعالى كحاق خردلة ، قال الله تعالى (مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) فمن نظر في المخلوقات بعين الاعتبار علم أن الله تعالى هو الإله الحق الأول الآخر الظاهر الباطن الواحد الأحد القدوس الصمد الحى العليم القدير المدبر السميع البصير المتكلم الملك الكبير أوّل ليس له ابتداء ، وآخر ليس له انتهاء ، ظاهر يشته العقل ، باطن لا يدركه الوهم كل مخلوق محصور بحد مأسور في سور بطود ، والخالق بأن مبين يعرف بعدم مألوف التعريف . أين الأزل من الزائل ، ارتفعت لعدم الشبه الشبهة اتّخذ الأحد فهو أحد ، إنما يقع الإشكال في وصف من له الأشكال ، وإنما تضرب الأمثال لمن له أمثال ؛ فأما من لم يزل ولا يزال فما للحس معه مجال ، عظمت عظمته عن نيل كف الخيال ، كيف يقال له كيف ، والكيف في حقه محال ، أنى تتخيله الأوهام وهى صنعه ، كيف تحده المقول وهى فعله ، كيف تحويه الأماكن وهى وضعه ، انقطع سير الفكر ، ووقف سلوك الذهن ، وقصرت إرادة الوهم ، وعجز لطف الوصف ،

وغشيت عين العقل وخرس لسان الحس لآ طَوَّرَ لِلْقَدَمِ فِي طَوْرِ الْقَدَمِ^(١) عز المرتقى
فبئس المرتقى ، بحر المعرفة لا يتمكن منه غامض ، وليل لا يبين للحس فيه كوكب .

مَرَامٌ شَطَّ مَرَمَى الْعَقْلِ عَنْهُ فَدُونَ مَرَامِهِ بَيْدًا تَبِيدُ

جادة التسليم سامعه ، وادى النقل بلا نفع ، انزل عن علو التشبيه ، ولا تغل
قلل أباطيل التعطيل ، فالوادي بين الجبلين ، المشبه أعشى ، والمطل أعمى . ما عرفه من
كيفية ، ولا وحده من مثله ، ولا عبده من شبهه بما ينزه عنه وما يجب نفيه عنه ؛ جل وجوب
وجوده عن وضمر لعل ، سبق الزمان فلا يقال متى كان ، تعجد في وحدانيته عن زحام مع
تفرده بالإشياء فلا يستفهم عن الصانع بمن ، أبرز عرائس المخلوقات من كن بيت الحكم
فلا يعارض بلم ، تعالى عن بعضية من ، وتقدس عن ظرفية في ، وتنزه عن شبهه كان ،
وتعاضل عن نقص لو أن ، وعز عن عيب إلا أن ، ومما كانه عن تدارك لسكن ؛ إن وقف
ذهن بوصف صاح العز جز ، وإن صار الفكر نحوه قالت الهيبة عذ ، وإن قعد القلب عن
ذكره قال الشوق قم ، وإن سكنت المذنب حياء قال الحكم قل ، لا ينال عظمتها سابع تمثيل
ولا يدرك قعر بحر حكمتها سابع تخيل ، منزلة الذات عن الشبه والند والضد والمثل والعديل ،
ثابت الصفات وقد ضل أهل التعطيل ، جال الفكر حول حصى قدسه ثم رجع كالذليل ،
سار الوهم يحول في حندس الحس^(٢) نحو آنيته^(٣) فسد في وجهه السبيل ، وتاه في عرصة
النادي ، وحار الحادي ، وضل الدليل ، أحدى الذات قديم الوجود ، أزلى الصفات بذاته ،
فوجود صفاته كذاته ، فلا وجه للوجود ، كف الكيف مشاولة ، وباب التشبيه مسدود ،
تنزهت عن المشاية ذاته ، وتقدست عن الكيفية صفاته . وتعالى عن شبه الشكوك بيناته ،
ووضحت للعيون والعقول آياته . سبق الأشياء كلها ، فكلها مصنوعات ، عرى دليل وجوده

(١) يعني لاجال للقدم في اعتلاء طور القدم .

(٢) حندس الحس : أى ظلمته .

(٣) نحو آنيته : يعنى نحو حقيقته .

عن لباس الإلباس ، وعَزَّ بِإظهار عِزِّته عن مماثلة الأنواع والأجناس ، وتعالى عن إثبات صفة من صفاته بالمشابهة والقياس ، ويثس عن إدراكه فرجع حسيراً منسكسراً الراس ؛ فسبحانه من إله تنزه في ذاته عن مساواة المعلومات ومضاهاة العلل ، وتعالى من قيوم تقدس في ذاته وصفاته عن الشبه وال ضد والند والمثل ؛ لا يجوز عليه الحركات ، ولا تغيره الثقل ، يفعل ولا يقال للمالك لم فعل ؟ عدل في حكمه فما مال ولا عدل^(١) . أحاط بكل شيء علماً ، فما نسي ولا غفل ، أظهر في تكوين الكائنات أسرار ما حكم في الآزال من الخلق وخلق ، والسعادة والشقاوة والرزق والأجل . تنزهت حكمته أن توهم قاعدتها مرأى من جنين الاعتراض ، فقد جلت عن خلل ، ففي أمره مصارع الأبطال ، وفي قبض قهره تصرف الهدى والضلال . فمن ضمن علمه عدو الحب والنوى ، والفطر والذر والرمال ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .



مركز تحقيقات علوم اسلامی

(١) أي ماجار في حكمه وما ظلم .

الفصل الخامس

في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم

الحمد لله الذي نظم عقود المصنوعات فهي الشاهدة بإلهيته متفقة ، وبين بحدوثها قدم صفاته فالعقول على كمال علمه وقدرته مطبقة ، وبابن إرادته بين صفاتها فهي بتصرف إرادته مفترقة ، فالسما كأنها قبة لازوردية ، والنجوم فيها قناديل معلقة ، والشمس كالملك والقمير كالوزير ، والنجوم حوله جنود محدقة ، والأرض قبل نزول الفيث كالفقير المسكين فهي بالحرارة واليبس محترقة . فإذا ساقط إليها يد الإنعام تحف الغمام سقاها من الماء عذبه ، فالأن يابسها وزان يابسها ونسج طرازها فأحسن رواقه ، فالرياض تهتز من طرب الوصال ، والأغصان تميل في حلال الجمال ، ونسيم السحر يفتح من الزهر مغلقه ، وخطيب الأزهار والأطيار على منابر الأوكار يفرد في الأسعار بنغات العز مطلقه ، والأكوان كلها تنادي بلسان الحال (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) الذي خلق الإنسان من نطفة ثم من علقه .

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَبْلُغُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْتَعْطِ مِنْ وَرَقَةٍ)
والأفسكار تسرح في رياض آلائه ، فإذا انتهت إلى حمى كبرياته رجعت قاصرة معترقة مطرقة ، فسبحان من حجب الأوهام عن الإحاطة بصمديته فهي في بحار تعظيمه مغرقة ، وفتح باب كرمه إلى الفاصدين إذا ظلت أبواب غيره مغلقة ، وقبل توبة من أناب إليه وأقنع عن أفعاله الموبقة ، سمع شكوى العبد الضميف إذا لاذ بحماه الشريف يطلب الصدقة ، فأجاب سؤاله وحقق آماله وأمن خوفه ومنّ عليه وأعتقه ، وشرف نوع الإنسان عن جنس الحيوان بما ألهمه من البيان وأنطقه ، وأكرم المؤمن بتحف الإيمان والعرفان فهده

ووقفه (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)
أحمد على آلائه التي أصبحت القلوب بصفتها مشرقة ، وأضحت الأسرار بنهاها
رياضا موقنة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا راد لأمره فنفوس الخائفين
من سطوته مشفقة ، وقلوب العارفين بمروءة كرمه الوثقى متعلقة . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله
أرسله بحق شرعه وشرع حقه ، وأخذ بعور برهانه لطلب الباطل وأزقه ، ودمغ بسيف
تحقيقه دماغ البهتان فأزال بحسه ورهقه ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن آمن به
وصدقه كما أكمل نعمه لديه لحسن خلقه وخلقه .

وفي قول الله سبحانه تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَذَاعِيًا
إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَبِرَاجَا مُنِيرًا) .

فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تحصى ومعجزاته ومنافبه ومحاسنه لا تستقصى .
فَبَالِغٌ وَأَكْثَرُ لَنْ يُحِيطَ بِوَصْفِهِ فَأَيْنَ الثَّرْيَا مِنْ بَدِ الْمُتَنَاوِلِ
نعم ذكره يزيد في الإيمان ، وبغى القلوب والأسرار بأنوار العرفان ، فإن الله تعالى
جعل محبته مشروطة بمحبته ، وطاعته منوطة بطاعته ، وذكره مقرونا بذكره ، وبيعته
معمودة ببيعته .

قال تعالى : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ
إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) وقال تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) .
وقال تعالى : (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا نِي جِبْرِيلُ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكَ يَقُولُ :
أَتَدْرِي كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ ؟ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ^(١) ! قَالَ : إِذَا ذُكِرْتَ ذُكِرْتَ
مَعِيَ » ويقال معناه جعلت تمام الإيمان بذكرك معي ، ويقال معناه جعلتك ذكرا من
ذكرى فمن ذكرك ذكرني ، ومن أثبتك أثبتني ، ومن أنكرك فأنكرني ، ويقال معناه
لا يذكرك أحد بالرسالة إلا وذكرك بالربوبية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« أَوَّلُ نُورٍ خَلَقَهُ اللَّهُ نُورِي » .

(١) المراد بالرسول هنا : جبريل الأمين عليه السلام .

وروى أن الله تعالى لما خلق العرش كتب عليه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » بالنور فلما خرج آدم من الجنة رأى على ساق العرش وعلى كل موضع في الجنة مكتوباً اسم محمد مقروناً باسم الله تعالى ، فقال يارب هذا محمد من هو ؟ فقال الله تعالى : ولدك الذي تلواه لما خلقتك ، فقال : يارب بحرمة هذا الولد ارحم هذا الولد ، فنودي : يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السموات والأرض لشفعناك .

واعلم أن معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة وأعلاها قدراً وأوضحها ذكر هذا القرآن العزيز الذي عجزت الفصحاء عن معارضته ، وأيست العقلاء عن الإتيان بشيء من مثله .

فمن إعجازه حسن تأليفه والتشام كله وفصاحته وإيجازه وبلاغته ، ومن إعجازه حسن تصرفه وأسلوبه الذي لا يشبهه نظم ولا نثر ، ومن إعجازه ما أخبر من الغيبات المستقبلية فوق ما أخبر ، ومن إعجازه ذكر قصص الماضين مع كون النبي صلى الله عليه وسلم أمياً لم يقرأ الكتب ولم يخالط علماء أهل الكتاب ، وكذلك ما فيه من ذكر للملكوت الأعلى والملائكة ، وذكر القيامة وما فيها ، وذكر الجنة والنار ونحو ذلك .

ومن إعجازه انقطاع الأطماع عن معارضته وعجز العقول عن مقابلته ، مع فصاحة أهل زمانه وشدة عداوتهم ، وما ذاقوا في القتال من الأهوال والنزال ، ولم تخطر لهم المعارضة على بال .

ثم من آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر بمكة حين سأله ذلك فانشق فرفقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه وراه أهل الآفاق كلهم كذلك ، وفيه أنزل الله تعالى (اقترَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

ومن آياته أنه أسرى به في ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى راكباً ، ووجدت له الأنبياء كلهم وصلى بهم إماماً ، ثم عرج به من بيت المقدس إلى السماء ففتحت له كل سماء وسلم عليه من فيها من الملائكة ، حتى جاوز السموات السبع ووصل إلى سدرة المنتهى ، ثم جاوزها إلى أن وصل إلى مقام يسمع فيه صرير الأفلام ، فوق

موقف الكرامة والزاني ، وأقيم في مقام النجوى ، فكان في قرب الإكرام قاب قوسين أو أدنى فسمع خطاب العلى الأعلى ورأى من آيات ربه الكبرى وفرضت عليه الصلوات الخمس . ثم رجع في بقية ليلته إلى مكة ورد بذلك القرآن ، وانتشرت بفضل الأخبار واستمرت على ذلك الآثار .

ومن آياته نبع الماء من بين أصابعه وتكثير قليله ببركته في أوقات كثيرة رويت بأحاديث صحيحة : أحدها أنهم كانوا بالزوراء عند سوق المدينة وجاءت صلاة العصر فوضع يده في إماء فتوضأ منه نحو ثلاثمائة رجل ، قال أنس « فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه » .

وروى ابن مسعود قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس معنا ماء » فقال اطلبوا من معه فضل ماء فأتى بماء فصب في إماء ثم وضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه » .

وروى جابر قال : « عطش الناس يوم الحديبية فأتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشكوا إليه ذلك وكانت بين يديه ركوة فيها ماء قليل ، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، قيل لجابر كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، نحن كنا خمس عشرة مائة يعني ألفاً وخمسمائة » .

وروى جابر أيضاً « إن الناس عطشوا في غزوة بواط فأمر بحفنة فوضعت والناس فوجدوا قليلاً من الماء فصبه فيها وبسط يديه فيها وفرق بين أصابعه ، ثم سارت الحفنة واستدارت حتى امتلأت واستقى الناس حتى اكتفوا » .

وروى معاذ بن جبل « أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى عين تبوك وهي تبض بشيء من ماء فغرفوا منها شيئاً يسيراً فصب به وجهه ويديه وأعادها فيها ، فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق ؛ ونجرت عيننا معينا بماء كثير ثم قال : **يُوشِكُ يَا مُعَاذُ أَنْ طَالَتْ بَكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَهُنَا قَدْ مُلِئَ جَنَانًا** ، وكان كذلك ، وغرس سنهما من كنانته في قلبه ليس فيه ماء فجرى بماء كثير حتى اكتفى الناس يوم الحديبية » .

وروى « أن أبا طالب قال للنبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، ليس معي ماء . فضرب بقدمه الأرض فخرج الماء » . والأحاديث في هذا كثيرة صحيحة ذكرنا بعضها . ومن آياته البركة في الطعام القليل حتى كفى الجمع الكثير وبقي الزمان الطويل .

« دخل صلى الله عليه وسلم على أبي طلحة وعندهم أقراص من شمير فأمر بها فَفُتَّتْ وَعَصَرُوا عَلَيْهَا سَمْنًا وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ ، ثُمَّ قَالَ أَتَذْنُ لِعَشْرَةِ فَأَذْنُ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا ، وَأَذْنُ لِعَشْرَةِ كَذَلِكَ حَتَّى أَكَلَ الْقَوْمُ وَهُمْ نَحْوُ ثَمَانِينَ رَجُلًا . وَصَنَعَ جَابِرُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ صَاعًا مِنْ شَمِيرٍ فَأَطْعَمَ مِنْهُ أَلْفَ رَجُلٍ وَخَرَجُوا وَالطَّعَامُ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ . وَأَعْطَى رَجُلًا نَصْفَ وَشَقٍّ مِنْ شَمِيرٍ فَقَامَ بِهِ وَأَهْلُهُ وَضَيْفُهُ زَمَانًا طَوِيلًا حَتَّى كَالَهُ . وَصَنَعَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ مِنَ الطَّعَامِ قَدْرَ كِفَايَتِهِمَا وَدَعَاهُمَا . فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَدْعُو ثَلَاثِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ فَدَعَاهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى تَرَكَوهُ ، قَالَ ادْعُ سِتِينَ فَدَعَاهُمْ فَأَكَلُوا ، ثُمَّ قَالَ ادْعُ تِسْعِينَ . قَالَ أَبُو أَيُّوبَ : فَأَكَلَ مِنْ طَعَامِي مِائَةً وَثَمَانُونَ رَجُلًا » .

وروى سمرة بن جندب قال : « أتى النبي صلى الله عليه وسلم بقصعة فيها لحم ، فتمعقب القوم من غدوة إلى الليل يأكل منها قوم بعد قوم . وأطعم جميع أهل الصفة من صحفة » . قال أبو هريرة رضي الله عنه : « وخرجنا وتركناها كما وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع . وسقاهم كلهم من قدح ابن وخرجوا وتركوه بحاله » .

وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بني عبد المطلب وكانوا أربعين رجلاً ، منهم من يأكل الجذعة ويشرب الفرق فصنع لهم مِذَاً من طعام فأكلوا منه حتى شبعوا وبقي كاهو ، ثم دعا بمسٍّ فسقاهم فشربوا حتى تركوه . وكأنه لم يشرب » والعس : إناء يروى ثلاثة أو أربعة .

وروى أنس « أن النبي صلى الله عليه وسلم صنع طعاماً ودعا أصحابه فتوارد على الطعام نحو ثمانئة فأكلوا كلهم ، ثم قال لي : ارفع فلا أدري حين وضعت كان أكثر ، أو حين رفعت » .

وروى أبو هريرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وكان في مخيمه فقال له : هل من شيء ؟ قلت نعم شيء من التمر في المزود ، قال فأخرج بيده قبضة فبسطها ودعا بالبركة فأكل منها الجيش حتى شبعوا كلهم ، ثم قال خذ ما جئت به ، وأدخل يده وقبض منه ، فقبضت على أكثر مما جئت به . قال أبو هريرة : فلم أزل آكل منه وأطعم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم حتى قتل عثمان فانتبت مني » .

وجاء الناس في غزوة تبوك فأمرهم بجمع أزوادهم فجمعوا تمرات يسيرة فأطعمهم منها ، وملئوا مزادهم وهي بحالها حين وضعت ، والأخبار في هذا الباب أيضا كثيرة .

ومن آياته كلام الشجر وإجابتها دعوته . وروى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما « أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد في بعض أسفاره أعرابيا فدعاه إلى الإسلام ، فقال له : من يشهد على ما تقول ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشجرة ، ثم دعا بشجرة فأقبلت تحمد الأرض^(١) حتى قامت بين يديه وقالت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله ثلاث مرات ثم رجعت إلى مكانها » . وعن بريدة الأسدي « أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يريه آية ، فقال له : قل لتلك الشجرة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك . قال فجاءت تجر عروقها حتى وقفت بين يديه وقالت : السلام عليك يا رسول الله ، ثم أمرها فرجعت إلى مكانها » وفي حديث جابر « أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا شجرتين مفرقتين فاجتمعتا ثم أمرها فرجعت كل واحدة إلى مكانها » والأخبار في هذا كثيرة صحيحة .

ومن هذا الباب حنين الجذع ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستند إلى جذع ويخطب ، فلما صنع له المنبر وخطب عليه حن له ذلك الجذع وتشقق ، وسمع الناس له بكاء حتى بكى الناس ببكائه فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فجاء يحمد الأرض فالزمه ثم أمره

(١) تحمد الأرض : بمعنى تشققها .

خعاد إلى مكانه . روى هذا الحديث بضعة عشر من أكابر الصحابة :

ومن آياته ، نطق الجمادات له ، وقد اشتهرت بذلك الأخبار . قال أنس : « أخذ النبي صلى الله عليه وسلم كفا من حمى فسبح في يده حتى سمعنا التسبيح » . وقال ابن مسعود : « كذا نأكل الطعام مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نسمع تسبيحه » . وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : « كذا مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فخرج إلى بعض نواحيها ، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وقال : السلام عليك يا رسول الله » .

ومن آياته ما روى عن عمر رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في محفل من أصحابه إذ جاءه رجل من بني سليم بضرب فطرحه بين يديه ، وقال : لا أو من بك حتى يؤمن بك هذا الضرب . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا ضرب ، فقال بكلام حنين حتى سمعه القوم كلهم : لبيك وسعديك يا زين من وافي القيامة . فقال : من تعبد ؟ قال : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه ، وفي البحر سبيله ، وفي الجنة رحته ، وفي النار عقابه . قال فمن أنا ؟ قال رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، قد أفلح من صدقك ، وقد خاب من كذبك » فأسلم الأعرابي :

وروى أبو هريرة وأبو سعيد وغيرهما أن الذئب كلم راعيا وأخبره بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء فأسلم .

ومن المشهور : كلام الذئب لأهبان بن أوس ، وكان يرعى غنما فوق عتده وقال : العجب منك وأنت واقف عند غنمك وتركت نبيا لم يبعث الله قط نبيا أعظم منه قدرا ، قد فتحت له أبواب الجنة ، وأشرف أهلها على أصحابه ينظرون قتالهم ، وما يدرك ويدنه إلا هذا الشعب فتصير في جنود الله تعالى ، فذهب وأسلم .

وروى ابن وهب رضي الله تعالى عنه : أن أبا سفيان وصفوان بن أمية وجد ذئبا يطلب خيلها حتى دخل الظبي الحرم ، فوقف الذئب فتعجبا منه ، فقال لهما الذئب : أعجب من ذلك

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعوناه إلى النار .
ومن المشهور « أن رجلاً شكى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن أصحابه استعملوه زماناً طويلاً . فلما كبر أرادوا نحره فشفع فيه » رواه جماعة من الصحابة .
ومن آياته كلام الظبية التي أطلقها من يد الصياد لترضع أولادها فذهبت وهي تقول :
أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . وكذلك كلام الحمار الذي أصابه يوم خيبر .
وروى الواقدي : أن النبي صلى الله عليه وسلم وجّه ستة نفر من أصحابه في يوم واحد رسلاً إلى ملوك ستة ذوى لغات شتى ، فأصبح كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم .

ومن المشهور : كلام الشاة المسمومة له حين صنعها له يهودية بخير .
وأنى بصبي في حجة الوداع يوم ولد فقال له : من أنا ؟ فقال : رسول الله ، فقال : صدقت بآرك الله فيك ، فسمى مبارك اليمامة . وكان ثابت بن قيس قد قتل باليمامة ودفن فسمعه الناس حين وضع في قبره يقول : محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، عمر الشهيد ، عثمان البر الرحيم .

ومن آياته : إبراء ذوى العاهات .

روى « أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه يوم أحد فخرجت على وجهه ، فردها النبي صلى الله عليه وسلم فعادت أحسن ما كانت . وقال أبو قتادة : أصابني في وجهي سهم ، ففعل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ضرب على ولا قاح » . وأناه أعنى فسأله ردّ بصره ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يصلي ركعتين يقول : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بمحمد نبي الرحمة أن ترد عليّ بصرى ففعل ، فرد الله تعالى بصره » .

وتفل في عين عليّ رضي الله تعالى عنه يوم خيبر وكان به رمد شديد فبرئ من وقته .
وكذلك تفل في جرح سلمة بن الأكوع ، وفي ضربة سيف في زين بن معاذ .
وكذلك معوذ بن عفراء قطعت يده يوم بدر ، فألصقها النبي صلى الله عليه وسلم وتفل فيها فعادت كما كانت .

ومن آياته : إجابة دعائه فيمن دعا له فتلعق بركة دعائه الرجل وولده وولد ولده .

ومن آياته : دعاؤه في الاستسقاء وغيره ونفوذ دعوته فيادعا عليه ، وهذا الباب أعظم من أن يحصى . وقد ورد فيه أخبار كثيرة في كتب الأئمة المبسوطة نحو [كتاب الشفا في تعريف حقوق المصطفى] للقاضي أبي الفضل عياض رحمه الله تعالى .

ومن آياته ماورد من ذكره في كتب الله ، كالتوراة والإنجيل ، وما بشر به علماء أهل الكتاب قبل مبثته ، وما نطقت به الكهان ، وهتف به هواتف الجان ، وقد جمع عبد الله بن خلف كتاباً سماه [خير البشر بخير البشر] .

ومن فضائله ماوصفه الله تعالى في كتابه العزيز من حسن أخلاقه ، وما حلاه به من الكارم ، وما خصه به من المحاسن ، وأذخر له من الوسيلة والشفاعة يوم القيامة ، والمقام المحمود ، والخوض المورود والكوثر وغير ذلك . فتأمل تجد ذلك في كتاب الله العزيز كثيراً ؛ فهو الشاهد لمن آمن به واهتدى ، وعلى من جحد واعتدى ، والبشير بالثواب لمن أطاع مولاه ، والذئير بالمقاب لمن آثر هواه ، والداعي إلى الله بإذنه إظهاراً للحجة ، والسراج المنير لمن آمن به ، واستغناء بعموره فأبصر الحجة ؛ لم يزل نوره صلى الله عليه وسلم من زمن آدم عليه الصلاة والسلام مستور الصورة ، منشور الذكر ، عرفه آدم فتوسل به وأخذ ميثاق جميع الأنبياء له . أخذ صفوة آدم ونوح في بعض درسه علم لإدريس ، في ضمن وجده حزن يعقوب ، في سر وجده صبر أيوب ، في طي جوفه بكاء داود في بعض غنى نفسه يزيد على ملك سليمان ، حاز خلة الخليل ، ونال تكلم موسى الكليم ، وزاد رفعة على الملوكوت الأعلى ، فكان برهانه أوضح وأجلى ، فهو واسطة المقد ، وزينة الدهر ، يزيد على الأنبياء زيادة الشمس على البدر والبحر على القطر ، فهو صدرهم وبدرهم ، قطب ولايتهم عين كتيبهم ، واسطة قلاذتهم ، نقش فصحهم ، بيت قصيدتهم ، نقطة دائرتهم ، شمس ضحاهم ، هلال ليلهم يحرك لتعظيم هيئته السواكن ، فحن الجذع وسبح في كنهه الحصى ،

وتنزل الجبل وتسكلم الذئب والجل ، نظر المشركون إلى صورته دون معناه ، فقالوا :
(لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) مرضوا بقوة الحسد فأروهم
بغير عينه ، يا محمد هذا نقش ترهاتهم لا لون وجهك « (يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ) (يَا أَيُّهَا الْمَذْتَرُ) »
يا طيب ثماركن ، يا محمولا عنه بقل قم ، أنت إمام الأرض ، فاصعد إلى الملكوت الأعلى
لتسكون إمام أهل السماء ، يالها من ليلة ، قل فيها علت آية الأرض على آية السماء ، فأقبلت
رؤساء الللائكة يحيون الرئيس الأكبر ، فنوره أنور ، وبرهانه أزهر ، وسره أظهر ، وفضله
وقدره على ، وذكره أجلى ، وصورته أجمل ، ودينه أكمل ، ولسانه أفصح ، ودعاؤه أنجح ،
وعلمه أرفع ، ونداؤه أسمع ، وحواله أفضى ، وشفاعته أمضى ، نصره مؤيد ، واسمه محمد ،
وجسمه أعبد ، ورسمه أوحده ، واسمه أحمد ، هو حبيب المولى ، وهو بالمؤمنين أولى ،
صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم .



مرکز تحقیقات و پژوهش در تاریخ و فرهنگ اسلامی

الفصل السادس

في القيامة ومقدماتها

الحمد لله الذي نور بحميل هدايته قلوب أهل السعادة ، وظهر بذكره ولايته أفئدة الصادقين فأسكن فيها وداده ، وحرس سرائر المؤمنين فطرد عنها الشيطان وذاده^(١) ودعاها إلى ماسبق لها من عنايته فأقبلت متفاداة ، الذي بين أدلة معرفته فتحققت قلوب المؤمنين وجوده ووحدانيته وقدمه وبقائه ، وانفراده . الحميد المجيد الموصوف بالحياة والعلم والسمع والبصر والكلام والقدرة والإرادة ، شهد الله أنه لا إله إلا هو ، وفق من شاء لهذه الشهادة ، القدوس الذي لا يدركه كيف ، ولا يحيط به أين ، ولا تدرك صفاته بالقياس والعادة ، وفق من أراد كرامته فألممه رشاده ، وأيقظه بحسن نظره فتذكر معاده ، وبسرله سبيل طاعته فحصل زاده ، وتولاه برعايته فأعطاه أمله وزاده ، وخذل من شاء بحكم قهره فجعل لحظة بماده ، وأدار دائرة السوء على من كفر به وأباده وأهلك القرون الأولى من قوم نوح وشدد الوطأة على عاد وشداد فلم ينفعه ما شاده ، وأهلك حجر ثمود فطمس عيونه وأعماده ، وسلط بعوضه على نمود فنفعه مراده ، وزعزع ملك فرعون وقاع أوتاده ، وأخذ نار أبي جهل وقد كانت بالجهل وقادة ، ومزق الوليد بعد التمهيد فدمره بعد أن كثر ماله وأولاده ، وعجل عقوبة عقبه^(٢) وكذا عاقبة من أسلم للهوى قياده ، فكم مفرور بدنياء.

(١) ذاده : بمعنى دفعه ومنعه .

(٢) هو عقبه بن أبي معيط : وقصته مشهورة في كتب التفسير . وهي أنه اجتمع مرة بأبي بن خلف وكانا خليلين . فقال أحدهما لصاحبه بلغني أنك أتيت محمدا فاستمعت منه والله لا أَرْضِي عنك حتى تنفل في وجهه وتكذبه ، فلم يسلطه الله على ذلك . =

أرادَهُ وأزال اعتماده ، وعاجله ربُّ الموت فأجبح زرعه قبل أن يبلغ حصاده ، فسبحان من أعطى ومنع ، وخفض ورفع ووصل وقطع ، ومهد لمن ارتضاه فأحسن مهاده .
أحده على ما أولى من فضل وأفاده ، وأشكره معترفا بأن الشكر منه نعمة مستفادة .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وعد قائمها الحسنى وزيادة ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أقام به منابر الإيمان ورفع عماده ، وأزال به سنان البهتان ودفع عناده ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم الذين استخلفهم على دينه وملكهم قياده ، وأوضح بهم حجج الدين وأحكام العباداة .

في قول الله عز وجل (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ) .

ذكر الموت عون على الزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ يُمَحِّصُ الذُّنُوبَ وَيُزْهِدُ فِي الدُّنْيَا » .

« وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أُنَيسِ النَّاسِ ؟ فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الْآخِرَةِ » .

وقال الحسن : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحا .

= فقتل عقبة يوم بدر . وأما أبي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد في القتال . وهما اللذان أنزل الله فيهما (يوم يعرض الظالم على يديه) الآية .

تفسير الطبري . الجزء التاسع عشر سورة الفرقان ص ٨

طبعة مصطفى الحنبلي - الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَجْمَعُ الْفُقَهَاءَ فَيَقْضُونَ الْمَوْتَ وَالْقِيَامَةَ ثُمَّ يَبْكُونَ حَتَّى كَانَ يَبِينُ أَيْدِيهِمْ جَنَازَةً .

وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ لَا يَذْكُرُ فِي مَجْلِسِهِ إِلَّا الْمَوْتَ وَالْآخِرَةَ وَالنَّارَ .

وَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ الثَّوْرِيُّ : رَأَيْتُ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ شَيْخًا يَقُولُ أَنَا مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً فِي هَذَا الْمَسْجِدِ أَنْتَظِرُ الْمَوْتَ أَنْ يَنْزِلَ بِي ، فَلَوْ أَنَّنِي مَا أَمَرْتُ وَلَا نَهَيْتُ عَنْ شَيْءٍ .

وَمَرَضَ أَعْرَابِيٌّ فَقِيلَ لَهُ إِنَّكَ تَمُوتُ فَقَالَ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ بِي ؟ قَالُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ كَيْفَ أَكْرَهُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْ لَا أَرَى الْخَيْرَ إِلَّا مِنْهُ ، وَهَذَا حَالُ مَنْ كَانَ يَتَهَيَّأُ لِلْمَوْتِ وَلَا يَشْتَغِلُ بِالْدُنْيَا ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ غَافِلًا عَنِ الْآخِرَةِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ عَلَى غَرَّةٍ فَأَمَّا يَجِدُ لِقْدُومَهُ غَمًّا وَحَسْرَةً .

وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مِنْبِهِ : رَكِبَ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ فَأَعْجَبَهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا وَكَثْرَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَعْوَانِ وَالْمَلَابِسِ الْحَسَنَةِ ، فَأَمْتَلَأَتْهَا وَكَبَّرَهَا ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ شَخْصٌ رَثَّ الْهَيْئَةِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَخَذَ بِلِجَامِ فَرَسِهِ فَقَالَ لَهُ أَرْسَلِ الْعِجَامَ فَلَقَدْ تَعَاطَيْتُ أَمْرًا عَظِيمًا ، فَقَالَ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً أُسِرُّهَا إِلَيْكَ فَأَذْنِي إِلَيْهِ رَأْسَهُ فَسَارَّهُ وَقَالَ لَهُ : أَنَا مَلِكُ الْمَوْتِ ، فَتَغْيِيرُ لَوْنِهِ وَاضْطِرَابُ لِسَانِهِ وَقَالَ دَعْنِي حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي فَأُودِعَهُمْ ، فَقَالَ لَا وَاللَّهِ لَا تَرَى أَهْلَكَ أَبَدًا ، فَقَبِضُ رُوحَهُ فَوْقَ كَأَنَّهُ خَشَبَةٌ ، ثُمَّ مَضَى مَلِكُ الْمَوْتِ فَرَأَى عَبْدًا مُؤْمِنًا يَمْشِي فِي الطَّرِيقِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، فَقَالَ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً وَسَارَّهُ وَقَالَ أَنَا مَلِكُ الْمَوْتِ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِمَنْ طَالَتْ غَيْبَتُهُ ، وَاللَّهِ مَا مَنَ غَائِبٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَقَامَ مِنْكَ ، فَقَالَ مَلِكُ الْمَوْتِ أَقْبِضْ حَاجَتَكَ الَّتِي خَرَجْتَ إِلَيْهَا ، فَقَالَ وَاللَّهِ مَا مَنَ حَاجَةٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ فَاخْتَرِ أُمَّيَّ حَالَةً أَقْبِضُ رُوحَكَ عَلَيْهَا فَقَدْ أَمَرْتُ بِذَلِكَ ، فَقَالَ دَعْنِي أَصِلْ وَأَقْبِضْ رُوحِي فِي السَّجُودِ ، فَصَلَّى فَقَبِضَ رُوحَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَدَنِيُّ : جَمَعَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَمْوَالًا كَثِيرَةً فَلَمَّا

أشرف على الموت أمر باحضار أمواله فنظر إليها وبكى ، فقال له ملك الموت ما يبكيك ؟
والله ما أنا خارج حتى أفرق بين روحك وبدنك ، قال فأمهاني حتى أفرق أموالى ، قال
هيات انقطعت الملة ، هلا كان ذلك قبل حضور أجلك فقبض روحه .

وروى أن رجلا جمع أموالا كثيرة وصنع يوما طعاما لأهله وقعد على سريرته وهم بين
يديه يأكلون ، وقد وضع رجلا على رجل وهو يقول لنفسه تنعمى فقد جمعت لك ما يكفيك
فبينما هو كذلك إذ أقبل ملك الموت فى زى مسكين فقرع الباب فخرج إليه بعض الغلمان
فقالوا له ما حاجتك ؟ قال ادعوا إلى سيدكم فانهروه ، وقالوا له مثلك يخرج إليه سيدنا ؟
فقال نعم فجاءوا وأخبروا سيدهم بذلك فقال هلا ضربتموه ، فعاد وقرع الباب قرعا شديدا
فخرجوا إليه فقال أخبروا سيدكم أنى ملك الموت ، فلما سمعوا وقع على الجميع الذل ودخل
ملك الموت عليه فأحضر أمواله ونظر إليها تحسرا وأسفا وقال لعنك الله من مال ، أنت
شغلتنى عن عبادة ربى ، فأنطق الله إليه المال فقال لم تسبى وقد كنت تدخل على الملوك
نى ، وردد المتقين عني ، وقد كنت تنفقنى فى سبيل الشر فلا أمتنع منك ، ولو أنفقتنى
فى سبيل الخير لنفعتك ، ثم قبض ملك الموت روحه وانصرف .

وقال يزيد الرقائى : بينما جبار من الجبابرة فى بيته إذ دخل عليه شخص فثار إليه
مغضبا وقال من أنت ومن أدخلك دارى ، فقال أمّا الذى أدخلنى الدار فهو ربها ، وأمّا
أنا فالذى لا يمنع منى الحجاب فارتعد الجبار ووقع ثم قام ، وقال أنت إذا ملك الموت ؟
قال نعم ، قال أمهاني حتى أحدث عهدا ، قال هيات انقطعت مدّتك وانقضت أنفاسك
قال وإلى أين يذهب بى ؟ قال إلى عملك الذى قدّمته وبيتك الذى مهّدت ، قال فإنى
لم أعمل عملا صالحا ، قال فإلى لظى نزاعة للشوى ثم قبض روحه .

وقال عطاء بن يسار : يُدفع إلى ملك الموت ليلة النصف من شعبان صحيفة فيها اسم
من يموت فى تلك السنة . وروى أن سليمان عليه الصلاة والسلام سأل ملك الموت عن عدله
بين الناس فى قبض الأرواح ، فقال إنما هى صحف تلقى إلى فيها أسماء .

وروى أن الأرض بين يديه كالمائدة يقناول منها حيث يشاء . ويقال إن ملك الموت يقبض الأرواح ثم يسلمها للملائكة الرحمة أو للملائكة العذاب ، فهو قوله تعالى (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَائِكُ الْمَوْتِ الَّذِينَ وَكَّلَ بِكُمْ) ثم قال : (تَوَفَّتُهُ رُسُلُنَا) قيل معناه أن الرسل تأخذ الروح من ملك الموت ، والقباض على الحقيقة هو الله تعالى ، قال الله تعالى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) .

واعلم أن الموت مفارقة الروح للجسد ؛ فالروح باقية مدركة مفعمة في الجنة أو معذبة في النار ، وأول ما تدرك الروح عند مفارقة الجسد تختلف بحال الإنسان ؛ فالؤمن المقبل على الله المتنعم يذكره كان جسده سجنًا لروحه ، وحياته طريقًا إلى مقصوده ، وليس له في الدنيا إلا بُلغة يتزودها في سيره ، فإذا مات فقد خرج من السجن ووصل إلى محبوبه الذي كان يتنعم يذكره ، ولم يبال بما تركه من الزاد بعد أن عاين مطلوبه ، ثم ينكشف له ثواب ضاعته فيتم سروره ؛ وبالعكس منه من كان غافلاً عن المولى معرضاً عن الآخرة مشتغلاً بالدنيا متنعمًا بزهراتها فهو كسارق دخل دار الملك فجعل يأكل ويشرب ويلهو ونسى صولة الملك وبطشه ، فإذا أخذه الملك وأزعجه عن داره تحسر عند مفارقة ما كان فيه من اللذات ، وانكشف له عاقبة ما قدم من الجنائيات .

قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) أي آمنوا واتقوا (تَتَجَرَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ) أي ملائكة الرحمة عند قبض أرواحهم يقولون (أَنْ لَا تَخَافُوا) مما بين أيديكم فإن مصيركم إلى رحمة الله تعالى ، ويحضرون معهم بريحان من ريحان الجنة وحرير من حريرها (وَلَا تَحْزَنُوا) على ما فارقت من الدنيا فقد صرتم إلى أحسن مما كنتم فيه (وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) وروى أن الملائكة يقولون للمؤمن : السلام عليك يا ولي الله أبشر بالجنة حينئذ يجب لقاء الله تعالى وهو قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ لِقَاءَهُ » وروى أن ملك الموت يقول : أنا بكل سخي

وروى أن الله تعالى إذا أراد قبض روح المؤمن قال ملك الموت : اذهب فأنتى بروح ولى
فحسبى من عمله أنى قد بلوته فى السراء والضراء فوجدته حيث أحب ، فيذهب ملك الموت
ومعه مسك من الجنة وحرير أبيض ويهبط فى أثر خمسمائة ملك مع كل واحد ريحان من
الجنة ، فيمجدقون بالولى ويقول له ملك الموت يا ولى الله ارتحل من الدنيا الدنية فليست لك
بموطن ، فلك الموت باستخراج روحه ألطف من الوالدة الشفيقة بولدها ثم يرفعها للملائكة
الرحمة فيصعدون بها إلى السماء فتفتح لها أبواب السموات وتستغفر لها الملائكة ، وتقود
ها رائحة كرائحة المسك حتى توقف بين يدى الله تعالى ، فيقول الله تعالى : مرحباً بالنفس
الطيبة أبشرى برحمة ثم يؤمر بها فيعرض عليها مقعدها من الجنة ثم ترد إلى الميت عند
مسألة منكر ونكير فيعود حياً كما كان ويسأل عن الإيمان بالله تعالى والرسول فيثبته
الله تعالى بالقول الثابت كما أخبر سبحانه ، فإذا شهد بالوحدانية والرسالة نادى مناد صدق
ونفعه الصدق فيفسح له فى قبره ، ويفتح له باب إلى الجنة يحد منه لذة النعيم ، وتخرج الروح
فتكون فى عليين جنة المأوى عند سدرة المنتهى فى صدور طير بيض وخضر تسرح حيث
تشاء ، وتزور القبر يوم الجمعة فتكون عليه ؛ فالروح منعمة مدركة والجسد فى التراب وإن
فى وتلاشى ، فإن الله تعالى قادر أن يخلق فيه إدراكاً كما يشاء .

وفى الحديث « إن الملكين يقولان للمؤمن ثم هنيئاً فقد كنت تقول ذلك من قبل
فوالله ما نومتك تلك إلى أن يفتح فى الصور إلا كنوثة نامها أحدكم ثم استيقظ قبل أن
يرى رؤيا ، وأما الفاجر فتحضره ملائكة العذاب ومعهم أغلال ومسوح من النار فتخرج
روحه بعنف وشدة وتدفع للملائكة العذاب فيصعدون بها فتفوح لها رائحة خبيثة وتلعنها
الملائكة وتغلق دونها أبواب السماء وترد إلى الجسد عند سؤال منكر ونكير فيفتن
فى قبره ولا يشهد بالحق ، فيفتح له باب من النار فيكون الجسد معذباً إلى يوم القيامة ،
والروح محبوسة فى سجن صخرة سوداء على شفير جهنم تحت الأرض السابعة ، فإذا أراد الله
تعالى أن يميت جميع الخلائق عند انقضاء الدنيا أمر إسرافيل عليه الصلاة والسلام أن ينفخ

في الصور وهو قرن في فمه ، عرض القرن عرض السموات والأرض فينفخ فيه نفخة فيموت كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله وهم جبرائيل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل عليهم الصلاة والسلام فإنهم لا يموتون بالنفخة ولكن يميتهم الله تعالى بعد ذلك بقدرته ، ثم تمسكت الخلائق موتى أربعين سنة ثم يحيي الله تعالى إسرافيل فيأمره أن ينفخ ثانية وتجمع له الأرواح جميعاً في الصور لكل روح باب تخرج منه ويعيد الله تعالى الأجساد كما كانت في الدنيا فتسكون على ظهر الأرض ملقاة تنبت من الأرض نباتاً (فَإِذَا نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى) تخرج كل روح إلى جسدها (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) فالسعيد من أبقظه الله تعالى للاستعداد وتحصيل الزاد ، والغافل عن ذكر الموت والمعاد مصدق بقلبه مكذب بعمله يهتم للشتاء والصيف قبل دخوله وهو يغفل عن الموت وطوله فهو كمن أخبره مخبر أن هذا الطعام مسموم فقال صدقت ومدّ يده فأكل ، فهو مصدق بقلبه مكذب بفعله ، فنسأل الله تعالى أن يلمننا رشدنا بمنه وكرمه وفضله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

في قول الله سبحانه وتعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

قال أبو الدرداء : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال : « مَا بَالُ الْخِيَعِنَا أَحَدٌ قَبْلَكَ ، هِيَ الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تَرَى لَهُ » .

واعلم أن المرء لا يموت حتى يعلم إلى أين مصيره . ولما حضرت معاذ بن جبل الوفاة قال : اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك . اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا لجرى الأنهار ، ولا لفرس الأشجار ، واسكن لظلمة الهوانجر ، ومكابدة الساعات ، زاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر . فلما اشتد النزاع به قال : وعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك ثم أغشى عليه ثم أفاق ، وكان له ولد قتل شهيداً فقال : أتني ولدي فأخبرني أنه لحق بالذين أنعم الله عليهم ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سألني فيرواثة ألف من المؤمنين

والصديقين والشهداء والصالحين ، ومائة ألف من الملائكة المقربين يتلقون روعي ،
ويصلون عليّ ، ويشيعونني إلى قبري ، ثم جعل يصافح قوما لم نرهم ويسلم عليهم حتى طلعت
روحه . فلما مات روي في المنام على فرس أبيض^(١) ، وخلفه زحام كزحام مني ، رجال بيض
عليهم ثياب خضر على خيل بلق وهو يقول : (يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي
وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرَمِينَ) .

ولما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته واحزنانه . قال بل واطرباه :

(غدا نأقي الأحبه ، محمدا وحزبه)

ولما احتضر ابن المبارك فتح عينه وضحك وقال : (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) .

وقال الجريري : حضرت الجنيد عند وفاته وهو يقرأ القرآن نختم . قلت يا أبا القاسم
في مثل هذه الحالة ؟ فقال : ومن أولى بهذا مني ؟ والآن تطوى صحيفتي . وقيل للجنيد إن
أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت ، قال لم يكن بمجيب أن تطير روحه اشتياقا .
واحتضر بعضهم فبكيت عليه امرأته ، فقال لها ابكي على نفسك ، فأما أنا فقد بكيت لهذا
اليوم أربعين سنة .

وقال الجنيد . دخلت على السري في مرضه فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال :

كَيْفَ أَشْكُو إِلَى الطَّيِّبِ لِمَا بِي وَالَّذِي قَدْ أَصَابَنِي مِنْ طَبِيبِي

لَيْسَ لِي رَاحَةٌ وَلَا لِي شِفَاءٌ مِنْ سَقَامِي إِلَّا بِوَصْلِ حَبِيبِي

ودخل رجل على الجنيد في مرضه فوجده شاخصا فسلم عليه وجلس فرد الجنيد عليه

السلام بعد ساعة وقال اعذرني فإنني كدت في وردي .

وقيل للكسائي لما حضرته الوفاة : ما كان عملك ؟ قال لو لم يقترب أجلى ما أخبرتكم ،

وقفت على باب قلبي أربعين سنة كلما مر عليه غير الله تعالى رددته عنه .

(١) يعني يجمع بين السواد والبياض .

ولما احتضر مكحول ضحك وكان الغالب عليه الحزن ، فقيل له : لم ضحكت ؟ فقال
حنا فراق من كنت أحذره ، واقاء من كنت أرجوه .

وقال أبو علي الروذباري : مات عندنا رجل فقير غريب فغسلته واصلينا عليه ووضعته
في لحده فكشفت عن وجهه ليصيبه التراب . فقال يا أبا علي أتداني بين يدي من داني ؟
فقلت ياسيدي أحياة بعد موت ؟ فقال : أنا حي وكل محب لله حي ، لأنصر نك غذا بجاهي
ياروذباري .

وكان علي بن سهل يقول لأصحابه : إني عند موتي أدعي فأجيب ، فيدنا هو يمشي يوما
بإذ صاح لييك ووقع ميتا . ولما احتضر خير النساء نظر إلى ناحية في البيت فقال قف عافاك
الله فإنما أنت عبد مأمور ، وأنا عبد مأمور ، والذي أمرت به لا يفوتك ، والذي أمرت به
لا يفوتني ، ثم أحرم وصلي إيماء ثم غرض عينيه ومات .

ولما دفن سهل بن عبد الله جاء شيخ يهودي كبير فصاح أترون ما أرى ؟ قالوا ماذا
تري ؟ قال : أرى ملائكة ينزلون من السماء يتبركون بالجنائز .
وقيل لذي النون وهو في النزع : أوصنا ، فقال : لا تشغلوني فإني متمجب في محاسن
لطف الله تعالى بي .

ولما احتضر مالك بن أنس قيل له : كيف أنت ؟ قال : لأدري ما أقول لكم ،
نستعينون من فضل الله وعفوه ما لم يكن لكم في حساب ، ثم مات رحمه الله تعالى .
وروي أن أبا يزيد البسطامي عند موته بكى ثم ضحك فرؤى بعد موته ، فقيل له :
رأيتك بكيت عند موتك ثم ضحكت . قال : تصور لي إبليس وقال يا أبا يزيد قتلت من
شبهتي وأنت سالم فبكيت ، فنزل علي ملك الموت فبشرني بالجنة فضحكت .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يمسك لسانه ويقول : هذا الذي أوردني للوارد ،
فلما مات رؤى في المنام ، فقيل له : ما الذي أوردك لسانك ؟ فقال لا إله إلا الله ، فأوردني
إلى الجنة .

وروى يوسف بن الحسين في المنام ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي كل ذنب إلا ذنبا واحدا فإنه أوقفني فيه حتى سقط لحم وجهي من الحياء ، قيل له : كيف هو ؟ قال : نظرت إلى غلام بشهوة .

وروى مجمع في المنام بعد موته ، فقيل له : كيف رأيت الأمر ؟ قال رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخيري الدنيا والآخرة .

وروى عطاء السلي فقيل له : كنت طويل الحزن في الدنيا قال أما والله لقد أعقبني ذلك فرحا طويلا قيل له ففي أي الدرجات أنت ؟ قال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وروى زرارة بن أوفى فقيل له : أي الأعمال أفضل عندكم ؟ قال الرضا وقصر الأمل . وقال يزيد بن مذكور : رأيت الأوزاعي في المنام فقلت يا أبا عمرو دلني على عمل أتقرب به إلى الله ، فقال : ما رأيت هناك أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين فلم يزل يزيد يبكي حتى ذهب بصره .

وروى سفيان الثوري فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال وضعت إحدى رجلي على الصراط والآخرة في الجنة .

وروى الجنيد في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعات كنا نصليها بالليل .

وروى أبو سليمان الداراني فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال رحمني وما كان شيء أنضر علي من إشارات القول .

وقال سفيان بن عيينة : رأيت سفيان الثوري بعد موته وهو في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة ويقول (لِمِثْلِ هَذَا فَنَأْتِيَعْمَلُ الْعَامِلُونَ) فقالت له أوصني قال : أقلل من معرفة الناس .

وروى الشبلي فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال : حاسبني فلما رأى إياي تنمذني برحمته

وروى بعضهم فسئل عن حاله ؟ فقال :

حَاسِبُونَا فَدَقَّقُوا ثُمَّ مَنُوا فَأَعْتَقُوا

وروى الإمام مالك بن أنس فقيل له : ما فعل الله بك ، قال غفر لي بكلمة كان

يقولها عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه عند رؤية الجفازة «سبحان الحى الذى لا يموت» .

ولما مات الحسن البصرى رأى إنسان كأن أبواب السماء مفتحة ومناد ينادى : ألا إن

الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض . وقال بعضهم : رأيت الليلة التى مات فيها

داود الطائى نورا وملائكة نزولا وملائكة صعودا ، فقلت : أى ليلة هذه ؟ قالوا : مات

داود الطائى وقد زخرت الجنة لقدم روحه .

وقال أبو سعيد الشعام : رأيت الأستاذ أبا سهل الصعلوكى فى المنام فقالت : يا شيخ ،

فقال دع الشيخ ، قلت : الأحوال التى شاهدناها ؟ قال لم تفن عنا شيئا ، قلت : ما فعل الله

بك ؟ قال غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجزة . ورآه آخر على حالة حسنة فقال : يا أستاذ

بم نلت هذا ؟ قال بحسن ظنى بربى .

وقال ابن راشد : رأيت ابن المبارك بعد موته فقلت : ما صنع الله تعالى بك ؟ قال غفر لي

مغفرة أحاطت بكل ذنب . قلت : فسفيان الثورى ؟ قال بئخ بئخ ذاك (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ) .

وقال الربيع بن سليمان : رأيت الإمام الشافعى رضى الله عنه فى المنام ، فقالت : ما صنع الله

بك ؟ قال أجلسنى على كرسى من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب .

ولما مات الحسن البصرى رأى إنسان مناديا ينادى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا

وآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) واصطفى الحسن بن أبى الحسن على

أهل زمانه .

وروى بعضهم فقيل له : أى الأعمال وجدتم أفضل ؟ قال البكاء من خشية الله تعالى .

وماتت صبية زمان الطاعون فرآها أبوها في المنام فقال : يا بنية أخبريني عن الآخرة ؟
قالت : قد مناعلى أمر عظيم نعلم ولا نعمل ، ونعلمون ولا نعملون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان
أو ركة أو ركعتان في صحيفتي أحب إلى من الدنيا وما فيها .

وقال موسى بن حماد : رأيت سفيان الثوري في الجنة فقلت بماذا نلت هذا ؟ قال بالورع .
قلت فعلى بن عاصم ؟ قال ذلك لا يرى إلا كما يرى السكوكب الدرى .

ورأى بعض التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال : يا رسول الله عفاي ؟ فقال
نعم ، من لم يتفقد النقصان فهو في نقصان ، ومن كان في نقصان فالموت خير له .
ولما مات مالك بن دينار رأى إنسان كأن أبواب السماء قد فتحت ومناد ينادى :
ألا إن مالك بن دينار أصبح من سكان الجنة .

ولما مات كرز بن وبرة رأى إنسان أهل المقبرة التي دفن فيها خرجوا من قبورهم
وعليهم حلل بيض فقال : ما هذا ؟ فقيل : إن أهل القبور كسوا ثياباً بيضا لقدم
كرز عليهم .

وروى بشر الحافي في المنام فقيل : ما فعل الله بك ؟ قال : قال لي مرحباً يا بشر ، لقد
توفيتك يوم توفيتك وما على وجه الأرض أحب إلى منك .

في قول الله تعالى : (وَانْقُوا يَوْمَما تَرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ
مما كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) .

إذا قام الناس من قبورهم لفصل القضاء حشروا على أحوال مختلفة ، فمنهم من يكسى
ومنهم من يحشر عرياناً ، ومنهم راكب وماش ومسحوب على وجهه ، ومنهم من يذهب
إلى الموقف راغباً ، ومنهم من يذهب خائفاً ، ومنهم قوم نسوقهم النار سوقاً (وَتُبَدِّلُ
الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ) ويزاد فيها ، وتصير بيضاء عفراء ، وتمد مد الأديم ، وتذهب جبالها
وأشجارها وأوديتها ، فإذا اجتمع الأولون والآخرون في صعيد واحد ، تناثرت النجوم من
خوقهم ، وطمس ضوء الشمس والقمر ، واشتدت الظلمة ، وبمظلم الأمر ثم تنشق السماء على

غلاظها وصلابتها ، فتسمع الخلائق لانشقاقها صوتا عظيما منكرا فظيما تدهش لهوله الأجاب
وتخضع لشدته الرقاب ، ثم ينظرون إلى الملائكة هابطين إلى الأرض ، فتنزل ملائكة
سما الدنيا فيحيطون بالخلائق ثم ملائكة السماء الثانية خلقهم دائرة ثانية ، وكذلك حتى
تكون سبع دوائر في كل دائرة ملائكة سما ، ثم تسيل السماء كالمل وهو النحاس
الذباب فتطوى بعضها على بعض ثم تنهار وتذوب ، وتذهب حيث شاء الله تعالى وتدنو
الشمس من رؤوس الخلائق حتى تكون قدر ميل ، فيشتد الكرب من الزحام ويكثر
المرق كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْعَرْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيَذْهَبُ
فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ بَأَعًا وَإِنَّهُ لَيَبْغُ إِلَى أَفْوَاهِ النَّاسِ وَأَذَانِهِمْ » رواه مسلم في الصحيح .
« ويكون الناس يومئذ في العرق مختلفين ؛ فمنهم من يبلغ ركبتيه وحقويه وأذنيه ،
ولا ظل يومئذ إلا ظل الله ، وهو ظل يخلفه الله تعالى في الحشر لا يكون فيه إلا من أراد الله
تعالى إكرامه فيقف الناس كذلك شاخصين إلى نحو السماء قدر أربعين سنة من سنين الدنيا
لا ينطقون فإذا طال انتظارهم طلبوا من يشفع لهم يستريحوا من الوقوف والانتظار والكرب ،
فيأتون آدم فيطلبون منه الشفاعة فيقول : أست لها بشافع إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم
يفضب قبله مثله ولن يفضب بعده مثله ويدلهم على نوح فيقول لهم كذلك ، ويدلهم على
إبراهيم فيقول لهم كذلك ، ويدلهم على موسى فيقول كذلك ، ويدلهم على عيسى فيقول
كذلك ويدلهم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين فيقوم ويشفع حينئذ بإذن الله
تعالى ، فهذا أول الشفاعة لإراحة الناس من كرب الموقف ، فيقوم صلى الله عليه وسلم مقاما
عن يمين العرش لا يقوم فيه أحد من الخلق غيره ويسجد لله ويثنى عليه بثناء يلهمه إياه الله
تعالى في ذلك الوقت لم ينطق به غيره قط ، ويبقى قائما مفتصبا فيقول الله تعالى : ما تريد أن
أصنع بأمتك ؟ فيقول عجل حسابهم . روى أن المقام المحمود مقامه الذي يشفع فيه .
وروى أنه يكون على الكرسي عن يمين العرش صلى الله عليه وسلم .
و. وى « أن الناس يفزعون إذا نزلت الملائكة فزعا شديدا فيقولون الملائكة :

سبحان الله ربنا تعظيماً لله تعالى ولا كنه آت من بعد فيبقى الناس منتظرين ، فبينما هم كذلك إذ ظهر نور عظيم تشرق منه أرض المحشر وهو نور العرش فتزعد فرانس الخلق ويتيقنون أن الجبار عز وجل قد تجلى لنصل القضاء فيظن كل واحد منهم أنه هو المأخوذ المطاوب ، ثم يأمر الله تعالى جبرائيل عليه الصلاة والسلام أن يأتي بجهم فيأتيها فيجدها تلهب غيظاً على من عصى الله تعالى فيقول : يا جهم أجيبي الخالقك ومليكك فتثور وتغور وتشهق فتسمع الخلائق لها صوتاً عظيماً تمتلئ القلوب منه فزعا ورعباً ، ثم تزفر ثانية فيزداد الرعب والخوف ثم تزفر ثالثة فتعثر الخلائق على وجوههم وتبأغ القلوب الحناجر وينفطر الجرمون من طرف خفي ، فأول من بدى للحساب إسرافيل عليه الصلاة والسلام فيسأل عن تبليغ الرسالة فيقول بلغتها لجبرائيل فيصدقه جبرائيل ويقول بلغتها للرسول ، فيدعى أول المنذرين وهو نوح عليه الصلاة والسلام ، فيسأل فيقول بلغتها قومي فيدعى قومه فيستلون ، فمن صدق منهم فهو من المؤمنين ، ومن كذب وأنكر شهدت أمة محمد بما أخبرهم الله تعالى في القرآن ويصدقهم محمد صلى الله عليه وسلم فهو قوله تعالى : (لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَبَكُونِ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) ثم يسأل جميع الرسل عن البلاغ وهو قوله تعالى : (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) .

وقوله تعالى : (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ؟ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا) . قيل معناه لا علم لنا الآن ، ولا ندرى ماذا نقول ، وذلك لما استغرقهم من هيبة الله تعالى فإذا سكن روعهم قالوا بلغنا قومنا ، فمنهم مصدق ومنهم مكذب ، وقيل معناه لا علم لنا بمن صدقنا ولا بمن كذبنا فإننا لا نطلع على السرائر ، يدل عليه قوله تعالى : (إِنَّا لَنُكَرِرُكَ أُنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ)

وسؤال الملائكة والرسل إظهاراً للعدل ، وإقامة للحجة على من كذب ، وزيادة تخويف للجاحدين ، فكيف تكون عقول الخلائق إذا عاينوا الملائكة والرسل قد دعاهم الله تعالى للحساب والسؤال ، ثم تقبل الملائكة على الخلائق فينادي كل إنسان باسمه من

غير كنية ، يا فلان ، هلم إلى موقف العرض ! فن المؤمن من لم يحاسب ، ومنهم من يحاسب حساباً يسيراً يستره الله تعالى عن جميع الخلائق ويكلمه ويقرره بذنوبه ويقول له : حسرت عليك في الدنيا وأنا أغفر لك اليوم . ومن عصاة المؤمنين من يشدد عليه الحساب حتى يستوجب العذاب ، فيشفع فيه من يأذن الله له من الأنبياء والأولياء والصالحين ، فهذه الشفاعة الثانية يشترك فيها الأنبياء والأولياء والصالحون ، ولنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أكثرها وأوفرها .

روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يُوَضَّعُ لِلْأَنْبِيَاءِ مَقَارِيرٌ يُجْلِسُونَ عَلَيْهَا وَيَبْقَى مِنْهُمْ رَجُلٌ وَلَا أُجْلِسُ عَلَيْهِ إِلَّا قَائِمًا بَيْنَ يَدَيَّ رَبِّي مُنْتَضِبًا فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَا تَرِيدُ أَنْ أَضَنَعَ بِأَمَّتِكَ ؟ فَأَقُولُ : يَا رَبِّ عَجَّلْ حِسَابَهُمْ فَيُدْعَى بِهِمْ فَيُحَاسَبُونَ فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِي وَلَا أَزَالُ أَشْفَعُ حَتَّى أُعْطَى أَضْكَكَ كَأَنَّ رِجَالًا قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ حَتَّى إِنْ خَازِنَ النَّارِ لَيَقُولُ مَا تَرَكْتَ بِمُحَمَّدٍ لِنُصْبِ رَبِّكَ فِي أُمَّتِكَ مِنْ نِعْمَةٍ » وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا أَشْفَعَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَشَجَرٍ » .
وقال صلى الله عليه وسلم : « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِي رِجَالٌ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ رِبْعَةِ وَمُضَرٍّ » .

وروى أن من المؤمنين من يشفع في رجل واحد ، ومنهم من يشفع في رجلين ، ومنهم من يشفع في قبيلة على قدر درجاتهم .

وفي الصحيح « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

وفي رواية « مع كل واحد منهم سبعون ألفاً ، ومن العصاة من لا يشفع فيه فيؤمر به إلى النار » .

وأما الكفار فليس لهم حسنات وإنما يوقفون للتوبيخ والنفال ومقاساة الأهوال ، فيوقف الكافر للارض ، فيقول الله تعالى : ألم أكرمك وأسودك وأزوجهك وأسخر لك

الخليل والإبل ، وأذكرك ترأس وترتع فيقول بلى يارب ، فيقول : أفضننت أنك ملاقي ؟
 فيقول لا ، فيقول : إني أنساك كما نسيتني . ومنهم من يفكر الكفر ، ومنهم الذين يقولون :
 (وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) فيختم على أفواههم وتنطق جوارحهم بالشهادة عليهم
 كما أخبر الله تعالى . ثم إن الله تعالى مع علمه بأعمال العباد يظهر العدل ، ويقيم الحجة فيتنصب
 الموازين لوزن الأعمال . ويؤتى بالصحف التي كتبتها الملائكة على العباد فيخلق الله تعالى
 فيها ثقلا وخفة على قدر الأعمال ويؤتى بكل إنسان فتوضع صحيفة حسناته في كفة ، وصحيفة
 سيئاته في كفة حتى يتبين له ولغيره رجوعانه ونقصانه ، وتنطير الصحف فيعطى لكل عبد
 كتاب فيه جميع أعماله يقرؤه من كان يكتب ومن لا يكتب ، كل ذلك إظهاراً للعدل ، ثم
 يتعلق المظلومون بالظالمين ، هذا يقول هذا قتلى ، وهذا يقول هذا ضربني ، وهذا يقول هذا
 أخذ مالي أو غشني في معاملة أو بخسني في وزن أو كيل ، أو شهد على بزور ، وهذا يقول هذا
 سبني أو شتمني أو اغتابني أو استهزأ بي أو نظر إلي نظرة كبر أو احتقار ، فتفرق حسنات
 الظالم على المظلومين ، فإذا لم يبق حسنة جعل على الظالم من سيئات المظلوم حتى يستوفي
 كل ذي حق حقه ، فإن الرجل ليأتي بحسنات كثيرة فيأخذها خصومه وتطرح عليه سيئات
 ما كان عملها ، فيقول ما هذا ؟ فيقال سيئات من ظلمته .

وروى « أن الناس يقفون في الظلمة أربعين سنة ، فإذا تجلى الله تعالى لفصل القضاء أمر
 المؤمنين بالسجود فيسجدون ويؤمر غيرهم فلا يستطيعون ذلك وهو قوله تعالى :

(وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ) يعني الكفار (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) (وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ)

في الدنيا (إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ) فلا يسجدون ، ثم يقال للمؤمنين ارفعوا رءوسكم
 فيرفعون رءوسهم وقد أعطى كل مؤمن نورا على قدر عمله ، واحد كالشمس ، وآخر كالنجم
 وآخر كالصباح ؛ فإذا وقع السؤال ونصبت الموازين للأعمال ، وتنطير الكتب ، ووضع
 الصراط على متن جهنم أخذ من السيف ، وأرق من الشعر يؤمر الناس بالجواز عليه ، فأول

من يجوز عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيمر أولهم كالبرق الخاطف ، ثم كالريح ، ثم كالطير ، ثم كالخليل ، ثم عدوا ثم مشيا . ومن الناس من يزحف زحفا ، ومنهم من يسحب سحبا ؛ فمنهم من يسلم ، ومنهم من يزل فيقع في النار ، ومنهم من تخطفه كالليب فتلقيه في النار ، ويسمع الواقمين في الدار جلبة عظيمة ، وصياح شديد يدهش العقول ، ويقول الأنبياء : اللهم سلم سلم ولا ينطق حينئذ إلا الرسل ، ويتصور لكل أمة كفرة ما كانت تعبد ، وينادى مناد لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فتلقى أصنامهم في النار وأوثانهم وما كانوا يعبدون من الجمادات ، ويتبعهم من عبدهم وهو قوله تعالى :

(إِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) .

فهذا ورود الكفار والفجار .

وأما ورود السعداء فهو العبور على الصراط ، ونكون جهنم وحرها تحت أرجلهم كشحمة جامدة ؛ حتى يجوزوا على الصراط سالمين ، فهو قوله : صلى الله عليه وسلم « مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلَاثٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحَنُثَ لَمْ تَمْسُ النَّارُ إِلَّا تَحِيْلَةَ الْقَسَمِ » يعني لا يدخلها بل يمر عليها تحلة القسم في قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) وهذا قسم فإنه معطوف على قوله : (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) ثم قال : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) أى وما منكم إلا يرد النار ، فمنكم من وروده عبور ، ومنكم من وروده دخول ، ثم ينجي الله الذين اتقوا فيسلمون ويمرون على الصراط ، وينجي الله عصاة المؤمنين فيخرجهم بالشفاعة أو برحمته ويذر الظالمين فيها جثيا ، فإذا وقع الذين وجب عليهم العذاب وجاز الفأزون كلهم وردوا على حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم على نهاية ما هم فيه من العطش وما عابنوه من الأهوال ، فهذا أيضا من خواص فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ورد الحوض في الصحيح من رواية عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وجابر بن سمرة وحارثة بن وهب وجندب وأبي ذر وثوبان وعقبة بن عامر ،

وأسماء بنت أبي بكر في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، كَيْزَانُهُ كَنْجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا » .

وفي حديث أسماء : « آتَى عَلَى حَوْضِي حَتَّى أَنْظَرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ وَسَيُؤْخَذُ أَنْفُسٌ دُونِي . فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي وَمِنْ أُمَّتِي قَيِّقُولُ : مَا شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ ، وَاللَّهِ مَا بَرَّحُوا بَعْدَكَ يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ » .

وهؤلاء قوم ارتدوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفروا فخطفهم جهنم ، هذا أحسن ما قيل في هذا الحديث .

وكان ابن أبي مليكة إذا ذكر هذا الحديث يقول : « اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفن عن ديننا » .

وعليه يحمل حديث مالك في الموطأ الذي فيه « فيلاد رجال عن الحوض ، ثم يذهب المؤمنون إلى الجنة » فأول من يدخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم يدخل الجنة الذين لأحساب عليهم من هذه الأمة من الباب الأيمن ، فإذا وصل أهل الجنة إلى الجنة بقيت آلامهم متعلقة بنجاة العصاة من المسلمين الذين دخلوا النار ، فيطلب الصالحون الشفاعة لهم من الرسل ، فهذه أول الشفاعة الثالثة . وقد ورد بها الأخبار المسندة الصحيحة « أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم يستأذن ويسجد بين يدي الله تعالى . فيقول الله تعالى : ارفع رأسك وسل تعط ، وقل يسمع لك ، واشفع أشفع ، فيقوم فيشفع ، فيخرج الله تعالى من كان في قلبه مثقال دينار من الإيمان ، ثم يسجد الثانية وشفع فيخرج بشفاعته من كان في قلبه مثقال شعيرة من الإيمان ، ثم يسجد الثالثة فيخرج من كان في قلبه مثقال حبة من خردل ، ثم يسجد الرابعة وشفع ، ويقول ائذن لي فيمن

قال لا إله إلا الله ، فيقول الله تعالى ليس ذلك لك ولكن وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله .

وروى مسلم في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ وَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً وَيَكْبُؤُ مَرَّةً وَتَلَحُّهُ النَّارُ مَرَّةً .
فَإِذَا تَجَاوَزَهَا انْتَفَتَ إِلَيْهَا وَقَالَ تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكَ ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا
مَا أَعْطَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ » ، وذكر الحديث بطوله .

وفيه « أَنَّهُ يَرَى شَجَرَةً فَيَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُدْنِيَهُ مِنْهَا ، وَيُهَايِدُهُ أَنْ
لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا . فَإِذَا دَنَا مِنْهَا رَأَى شَجَرَةً ثَانِيَةً أَحْسَنَ مِنْهَا فَيَطْلُبُهَا ثُمَّ يَرَى ثَالِثَةً
عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ فَيَطْلُبُهَا وَرَبُّهُ يَمْذُرُهُ ، لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَنْهُ ، فَإِذَا سَمِعَ
أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَالَ يَا رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا ، فَيُعْطِيهِ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ قَدْرَ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ » .

وقد ورد في صحيح البخاري ومسلم : « إِنَّ الْعَصَاةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَمُوتُونَ فِي النَّارِ » ويحمل
على أنهم يعذبون على قدر ذنوبهم فيكون نهاية عذابهم ، فإذا وقعت الشفاعة أحياهم الله
تعالى وأخرجهم .

فتأملوا رحمكم الله تعالى هول الموقف وشدة إذا بعثت القبور ، وقام
الخلائق للنشور ، وحشر المتقون إلى الرحمن وفدا ، وسيق المجرمون إلى جهنم وردا ، ووقف
الخلائق وطال بهم الوقوف ، واشتد الزحام والصعقت الصفوف ، وكثر القلق ، وألجهم
العرق ، وأدهشهم الفرق ، واختلفت الفرق ، واشتد الغضب ، واحتدّ الهم . وجاءت
جهنم بظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يقنى من الهم ، ورمت بشرر كقطع الخشب ،
وجئنا الخلائق على الركب ، وغلب على الجميع الخوف والرهب ، وأيقن المجرمون بالعطب ،
وعاين الظالمون سوء المنقلب ، وبرزت الملائكة صفوا خاشعين ، وقام الناس لرب العالمين
وحشرت الوحوش والحوام ، وجميع الطير والأنعام ، وجرى بينهم القصاص إظهاراً لعدل
الحاكم ، وانصف المظلوم من الظالم ، ثم قيل لها كوني ترابا فصارت ترابا ، فعندها يتمنى

الكافر لو صار مثلها ولم يلق عذاباً، ثم وقع العقاب، وحرّر الحساب، ونشرت الدواوين.
ونصبت الموازين، ومد الصراط على متن جهنم، ووقع الفصل بين الأبرار والفجار، وسلم
السعداء إلى دار القرار، وذل الأشقياء إلى دار البوار، فياله من يوم ما أعظمه، وديان
ما أحكمه، وجبار ما أعلمه، وخطب ما أصعبه، وموقف ما أتعبه، يوم هو في الحقيقة كألف
سنة من هذه السنين، وهو قدر خمسين ألف سنة في الصعوبة على الجرمين، وتخفف أ ثقاله
عن قلوب المكرمين إذا حصلت لهم البشرى والأمان، وصح لهم رأس مال الإيمان،
وسلت لهم تجارة الإحسان، وفازوا بما نالوا من رضا الرحمن، فذهبت الأوجال وزالت
الأموال، وسكنت الزلازل والمرء ابن وقته زال مازال فصار الحساب عندهم كصلاة ركعتين،
والوقوف كوسن من بين الجفنتين، وصاروا إلى كرامة الأبد وعاشوا في جوار الواحد الأحد
الصد، فهل في لذة الشهوات ما يوازن هذه اللذات، أم في تعب الأعمال ما يقابل هذه
الأهوال، لا والله ولكن غلب على النفوس حب العاجلة، فتعملت في طلبها المتاعب .
وتسكفت جميع المشقات لتحصيل المآرب، آثرت الشهوات الفانية على اللذات الباقية،
واستصعبوا التعب القليل في الأعمال الصالحة، ولم يسلكوا طريق السلامة مع كونها واضحة .
اللهم أيقظنا من نوم الغفلة، وعافنا من دار الفتن والبطالة، وارزقنا الاستعداد لما
وعدتنا كما وعدتنا، وتوفنا على الإيمان كما أمرتنا، وآتمم اللهم علينا ما به أكرمنا، واغفر
لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين آمين .

الفصل السابع

في الوعيد

الحمد لله الذي زين قلوب أوليائه بأنوار الوفاق ، ورفع قدر أصفياه فملاً ذكراً في الدارين وفاق ، وسقى أسرار أحبابه شراباً لذيذ المذاق ، فهان عليهم حل المشقة لما حملهم من الأشواق ، رضى قلوبهم لغرس ولايته فأرسل إليها غيث عنايته وساق ، وطهرها وسقاها ووقاها حتى استوى نبات المعاملة على ساق ، وأكرمهم بالتحية والرؤية يوم التلاق (الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِمَعَاهِدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ) وأظهر عدله بإبعاد قوم حكم عليهم بالخيانة والشقاق ، وجعل لهم من الخذلان أغلالاً جمعت الأيدي والأعناق (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) قلوبهم معذبة بين صدود وإبعاد وحجاب وفراق ، أجسامهم مترددة بين كرب وضرب وإحراق (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ) هذه آثار سطوة الجبار وبطشه لا يطاق ، ولهذا ألزم قلوب الخائفين الوجل والإشفاق ، لما علموا أن القسمة سابقة في الشقاوة والسعادة والآجال والأرزاق ، فلا يعلم الإنسان في أي الدواوين كتب ولا في أي الفريقين يساق ، فسبيل العقلاء المبادرة والمسارعة والسباق ، ومد كفاف الافتقار ولبس ثياب الإملاق ، والوقوف على باب الغنى والانتظار لخروج الأوراق ، فإن سامح فيفضله ، وإن عاقب فيمده ، ولا اعتراض على الملك الخلاق .

(أحده) حمد معترف بالمعجز عن شكره مقتذل بين خجل وإطراق ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة صفاء مودها وراق ، وزاد بورها على حد الإسفار والإشراق ،

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله البشير النذير السراج المذير الذي عمّ نوره الآفاق ، والنور الذي لا يمترض ضياءه كسوف ولا يحاق ، والحبيب المقرب الذي أسرى به على البراق ، إلى أن جاوز السبع الطباق ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه مفاتيح الأغلاق ، السابقين إلى الإيمان والهجرة والإنفاق .

في قول الله عز وجل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا لَآئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْيُسْرِ) .

يا أيها المؤمنون بالله اعملوا بطاعة الله ، ولا تهملوا نفوسكم في معصية الله ، فإن النفس كدابة جموح قائدها نواب الله تعالى ، وسائقها خوف عقاب الله تعالى ، فإن تمطلت من الخوف والرجاء وبقيت في طبائعها رتمت في مراتع الهلاك فمن أمسكها عن هواها فقد وقاها ، ومن أطلقها فقد أرداها ، قال الله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) أى طهرها عن الخالقات ورفع قدرها بالطاعات (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) أى وضع قدرها بالخالفات فأوقعها في الهلكات . وقوله (وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) أى علموا أهليكم وأتباعكم ووقفهم وعظومهم وأديبهم . ثم وصف النار وصوبتها وشدة خزنتها وقال (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ) أى هي سبع طباق بعضها فوق بعض بين كل طبقتين مسيرة سبعين سنة . فالأولى جهنم لعصاة المسلمين ، والثانية لغى تغلظى أى تتلهب فتزعر الجلود ، ثم تحتها الحطمة تحطم أهلها فتسحقهم سحقاً ، ثم تحتها السعير تفسع رقيقاً كل بعضها بعضها وتحتها سقر تذيب الجلود واللحوم ، ثم تحتها الجحيم ومعناه الجمر الفايط ، وتحتها الهاوية من دخلها لم يستقر فيها ولكنه يهوى فيها أبداً ، فأول ما تملى الهاوية ثم التى فوقها حتى تمتلئ كلها ، وقوله (لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ) أى من أتباع الشياطين (جُزْءٌ مَقْسُومٌ) فمعناه لكل طبقة أهل قد جعلهم الله تعالى لها .

وروى « أن كل طبقة أعظم عذاباً من التى فوقها بسبعين ضعفاً ! وأن أهونها لو أن

رجلا بالغرب وكشف عنها بالمشرق لسال دماغه من حرها .

وروى مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَحْرُوقُوهَا » .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُهَا ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ جَهَنَّمَ . قَالُوا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَ قَبِيَّةٌ ، قَالَ فَإِنَّهَا فَضَّلَتْ بِسَعَةِ وَسَيِّئِينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا » . وعن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مِنْهُمْ مَنْ النَّارُ تَأْخُذُهُ إِلَى كَعْبِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْرَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرَفَتَيْهِ » . وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنْ أَهْوَنَ أَهْلُ النَّارِ عَذَابًا مِنْ لَهُ نَعْلَانِ مِنْ نَارٍ وَشِرَا كَانَ مِنْ نَارٍ تَغْلِي مِنْهَا دِمَاقُهُ كَمَا يَغْلِي مِنْهَا لِلْمَرْجَلِ ، مَا يَرَى أَنْ أَحَدًا أَشَدَّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ضَرَسُ السَّكَافِرِ أَوْ نَابُ السَّكَافِرِ مِثْلُ أَحَدٍ ، وَغِلَظُ الْجِلْدِ مَسِيرَةُ ثَلَاثِ » . يعنى يعظم الله تعالى جنته ليكثر عذابه ويتضاعف ألمه . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ : يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ رَأَيْتَ شَرًّا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَارَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ هَلْ رَأَيْتَ شِدَّةً قَطُّ ؟ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَارَبِّ مَا مَرَّ بِي مِنْ بُؤْسٍ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ » . وروى الترمذى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ كُلَّ أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَائِشَهُمْ فَكَيْفَ يَمَنْ يَسْكُونُ طَعَامَهُ ؟ » .

وقال الحسن البصرى : نأكل النار أهلها كل يوم سبعين ألف مرة كلما نضجت

جلودهم أعيدوا كما كانوا ، وتعلق أرواحهم في حناجرهم فلا يموت أحدهم فيستريح ولا يحيا حياة طيبة .

وقال أبو الدرداء ومحمد بن كعب « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيؤتون بالضرير وهو نبات يشبه نباتا في الدنيا لا تقدر الإبل على أكله من شدة مرارته ، فيأكلون فيفصون فيطلبون ما يسيغون به الفصص فيؤتون بالحميم ، وهو ماء حار يقر به أحدهم إلى فيه فتقع جلدة وجهه ، فإذا شربه قطع أمعاءه ، فيقولون لخزنة جهنم (اَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ) فتقول لهم الخزنة : (أَلَمْ تَكُنْ تُأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْآيَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا ، وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) فيدعون فلا يجابون ، فإذا أبسوا (نَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) معناه بالموت ، طلبوا الموت ليستريحوا ، فيسكت عنهم مالك مقدار ثمانين سنة وهو في مجلس له يرى أقصاها كما يرى أدناها ، ثم يقول لهم (إِنَّكُمْ مَا كَثُورٌ) أي مخلصون ، فيقول بعضهم لبعض اصبروا فلعل الصبر ينفعنا فإنما سَلِمَ أهل الجنة يصبرهم في الدنيا فيصبرون زمانا طويلا فلا ينفعهم فيقولون (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ سَيَّرْنَا مَا لَنَا مِنْ نَّحِيصٍ) فيأتون إلى إبليس فيقولون أنت أغويتنا فكيف الخلاص مما نحن فيه ، فيقوم إبليس على قل من نار يسحب سلاسله ويخطب خطبة ويقول فيها (إِنَّ اللَّهَ) تعالى (وَعَدَكُمْ) وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ) أي ما كان لي عليكم حجة ولا قهر ولا حلتكم على المعصية كرها ، ولكن (دَعَاؤُكُمْ) فَاسْتَجَبْتُ لِي (طوعا وتابتم هوى نفوسكم) فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) فإنها طلبت هواها فأرداها (مَا أَنَا بِمُضْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُضْرِخِي) أي مضيقكم ، فلا أقدر لكم على فرج ولا تقدرون لي على فرج (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ) أي بشرككم : أي أنا بريء منكم فعندها يمتنون أنفسهم مقتا شديدا فتناديهم الملائكة (لَقَدْ أَكْبَرُ مِنْ مَفْقِحِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) لا دعاكم إلى الإيمان فكفرتكم ، فعندها يسألون الله تعالى أن يعيدهم إلى الدنيا ليعملوا صالحا

فيقولون (رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ) فعنه فأنفت قادر أن تميدنا إلى الدنيا وقد اعترفنا وآمناء ،
 فينادون (ذَلِكَكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ) والإحياء مرتين إحياء في الدنيا
 بعد أن كانوا نطقا أمواتا ثم أحياءهم في الآخرة للبعث ، والموتان كونهم أمواتا نطقا
 ثم موتهم عند انقضاء آجالهم من قول ابن عباس وقول الضحاك ، ويدل عليه قوله تعالى :
 كَيْفَ (تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ
 إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) وقال السري : الحياة الأولى والموتة الثانية في القبر عند مسألة الملكين
 ثم يموتون . وقال ابن زيد : الحياة الأولى حين أخرجهم كالذر وقال (أَأَنْتُ يَرْبُّكُمْ)
 والأول أصح . ثم إن أهل النار يستغيثون مرارا فيجابون بما يكرهون حتى يقولون (رَبَّنَا
 غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا) فيقول الله تعالى (اخْسِئُوا فِيهَا) فينقطع حينئذ رجاؤهم ولا يتكلمون
 بعدها أبدا ويصير بعضهم ينبج في وجه بعض كالكلاب . قال الحسن : كلما لفحهم
 لفة لم تدع لحما ولا جلدا إلا ألقت على العراقيب ، وفي النار واد يسيل صديدا ، له سواحل
 فيها حيات وعقارب كالبحر فإذا اشتد عليهم حر النار هربوا لتلك السواحل ليستريحوا
 من حر النار فنشتد عليهم الحيات والعقارب فتأخذ شفاههم وتنش لحومهم فيهربون
 إلى النار .

قال ابن مسعود : إنه يسمع للموام في باطن جلد الكافر جلبة كجلبة الوحش في البرية ،
 وإن الحميم ليصب على رأس أحدهم فيذوب دماغه وينزل إلى بطنه فتقع أمعاؤه وجلده ،
 وإن أحدهم ليضرب بمقامع الحديد فكلما ضرب ضربة سقطت أعضاؤه كل عضو على
 حاله . وقال الفضيل بن عياض في قول الله تعالى : (كُلُّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا
 أُعِيدُوا فِيهَا) قال ما طعموا فيها بالخروج فإن الأرجل والأيدي لموتة ، ولكن يرفعهم
 لحبها ، وتردّهم مقامها .

ويروى أنهم يذنفسون في النار وأن النار تضيق بهم كما يضيق الريح في الرّج وتغل
 أيدهم مع أعناقهم ويقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة .
 وروى أن أول من يكسى في النار إبليس فيكسى حلة ويصيح واثبورا ، فيصيح

أهل النار واثبورا ، فيقال لهم (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) ،
والثبور : الهلاك والحسران .

قال كعب الأحبار : [ينظر الله تعالى إلى عبد فيقول خذوه فيخطئه مائة ألف ملك
حتى يفتت من أيديهم ، فيقول : أما ترحمون ؟ فيقولون كيف نرحمك ولم يرحمك أرحم
الراحمين ؟] .

• وروى أن خزان جهنم تسعة عشر مع كل واحد منهم ألف من الخزائن وإن على
باب من أبواب جهنم لأربعمائة ألف ملك ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة ،
لو طار طائر من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يصل إلى منكبه الآخر ، يعرفون
الكفار بسيماهم بزرقة العيون وسواد الوجوه ، فيأخذون الكافر فيجمعون بين رأسه وقدمه
من وراء ظهره كالقوس ويلقونه في النار فيميط هبوطا فهو قوله تعالى (يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ
بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ) ثم لا يزال كذلك حتى يخرج منها المسلمون
فلا يبقى فيها إلا الكفار وهو يوم الحسرة إذ قضى الأمر ، فتفتلق أبواب النار على الكفار
ويجعل كل واحد من الكفار في تابوت من الحديد ويضاعف عليهم العذاب كل يوم
أضعافا فيخلدون فيها أبدا من غير نهاية ، نسأل الله تعالى العافية . فحق على كل عاقل أن
يكون خائفا فإن الخلود في النار وإن كان مخصوصا بالكفار فإن العبد لا يدري بماذا يحتم
له ، وإن ختم للعبد بالإيمان فقد يؤخذ بالعصيان . ومن دخل النار ولو ساعة فقد ذاق ألما
شديدا لا يوجد مثله في الدنيا بوجه من الوجوه ، بل لو توعد الملك أحدا أن يسجنه في الحمام
أو في المسكان الحار في الصيف أو يتركه في الشمس إن أكل طعاما يشبهه لترك شهوته
خوفا من تلك العقوبة .

قال أحمد بن حنبل : والله إنا لنؤثر الظل على الشمس ولا نؤثر الجنة على النار . اللهم
سلمنا من هذه الأحوال بفضلك وكرمك وتوفنا على الإيمان فأنت أولى بتمام نعمتك ، وتجاوز
عن سيئاتنا بإحسانك ، ونعمدنا برحمتك وغفرانك إنك أنت أرحم الراحمين .

الفصل الثامن

في الجنة

الحمد لله الذي رسم في جميع مصنوعاته على وجوده وكاله دليلا ، ووسم بالعجز سائر مخلوقاته فكل تراه مفتقراً ذلولاً ، وحسب الأفسار عن الإحاطة بذاته وصفاته فلم يجعل لها إليه سبيلا ، الحى العليم القدير المريد السميع البصير المتكلم الملك الكبير لا يدركه الوهم ولا يحده الفكر تمثيلاً ، تعالى ذو الملك والملايكوت ، ولم يزل ولا يزال عظاماً مقتدراً جليلاً ، من شبهه بخلقه فقد شابه عبدة الأوثان ، وأضحى إيمانه عليلاً ، ومن نفى صفات الكمال فقد انتحل جحوداً وتعطيلاً ، نقس ذو العزة والجبروت ، فلا تستطيع الأوهام إليه وصولاً . قسم عطائه بين خلقه ، فجعل منهم كافراً ومنهم مؤمناً ومعرضاً ومقبلاً (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات) وأكبر تفضيلاً وفق من ارتضاء خدمته ، وأعد له أجراً جزيلاً ، وبوآه دار رضوانه وأكرم منواه ، فجعل له في دار فضله مقبلاً (لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظللاً ظاملاً) .

أحمده على نعمه التي لا تحصى جملة ، ولا تعد تفصيلاً . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله لم يزل على كل شىء وكيل . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله . المنزل عليه : (يا أيها المرسل قم الليل إلا قليلاً) صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه بكره وأصيل .

في قول الله عز وجل : (قُلْ أَوْ تُبْسِكُمْ يُخِيرُ مِنْ ذَلِكَ لِمَنِ اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) ذكر الله تعالى أصناف الأموال المحبوبة في الدنيا بقوله تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ) الآية ، ثم قال : قل أَوْ تُبْسِكُمْ ، أى قل يا محمد هل أخبركم بما هو خير من هذه الشهوات الفانية ، وهو ما وعد الله تعالى للمتقين من النعم الباقية (جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) والجنات ثمان : دار الجلال ، ودار السلام ، وجنة المأوى . ودار الخلد ، وجنة النعيم ، ودار القرار ، وجنة عدن ، وجنة الفردوس .

روى « أن في الجنة مائة درجة ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » وذكر الله تعالى في سورة الرحمن أربع جنات فقال : (وَلَيْنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتَانِ) ثم قال : (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) .

وفي الحديث الصحيح مثله وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « جنتان من ذهب آيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آيتهما وما فيهما » ولا تنافي بين هذه الأعداد ، فإن منزل كل مؤمن جنة له فيها جنات كثيرة ، وكل طبقة من هذه العاقيات جنة ، وكل ما تقارب شبهه في مساكنه وأهله سمى جنة بمفرده . وقد ورد في موضع في القرآن (وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) وفي موضع جنات بالجمع .

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » اقرءوا إن شئتم (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وفي الجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَبْطِئُهَا ، اقرءوا (إِنَّ شِئْتُمْ) (وَظِلِّ تَمْدُودٍ) وموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها » اقرءوا إن

سَيُتِمُّ : (فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ) .

وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ ذِمَّةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، ثُمَّ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَازِلُ . لَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَبْتَضُّونَ ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَنَجَائِرُهُمُ الْأَلْوَةُ ^(١) وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى طُولِ أَيْبِهِمْ آدَمَ سِتُونَ ذِرَاعًا » .

وعن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى بِرَبِّ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ أَلَا أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أَجِلٌ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أُسَخِّطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » . ويؤيد هذا قوله تعالى (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ ، وَلَسِكِنْ طَعَامُهُمْ رَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ ، يُلْهَمُونَ الْقُسْبِيحَ وَالْحَمْدَ سَكَا يُلْهَمُونَ لِلنَّفْسِ » .

وعن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ مَجْوُفَةٍ عَرْضُهَا سِتُونَ مِيلًا ، فِي زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلُونَ مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ أَوْثَمٌ » .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُورَةً يَأْتُونَهَا

(١) الألوة ، بفتح الهمزة وضم اللام : أى العود الهندي .

فِي كُلِّ جُمُعَةٍ فَتَهْبُ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْتُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا فَيَزْجُمُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ اَزْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا ، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُهُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ اَزْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا فَيَقُولُونَ : وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ اَزْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا .

وقال أبو هريرة : أنهار الجنة تنفجر من تحت جبال المسك . وروى أن أدنى لؤلؤة في الجنة تضيء ما بين المشرق والمغرب . وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدَهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْمَطْعَمِ وَالشَّرْبِ وَالْجَمَاعِ » . وقال ابن عمر : في قول الله عز وجل (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ) قال : يطاف على كل مؤمن بسبعين ألف صفحة من ذهب كل صفحة فيها لون من الطعام ليس في الأخرى . وقال ابن مسعود في قوله تعالى (وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ) قال : عين تنسم أي تجري صاعدة في العلو يمزج فيها شراب أهل اليمين وبشرها المقربون صرفا .

وفي الصحيح « لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ الْجَنَّةِ أَطْلَمَتْ إِلَى الْأَرْضِ لِأَضَاءَتِ مَا بَيْنَهُمَا » . وقال ابن عمر « إِنْ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً مِنْ يَخْدُمُهُ أَلْفُ خَادِمٍ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى عَمَلٍ مَا عَلَيْهِ الْآخَرُ » .

وروى « إِنْ سَوَّقَ الْجَنَّةَ فِيهِ مَجْتَمِعٌ مِنَ الْخَوَرِ ، فَمَنْ اِشْتَهَى زِيَادَةَ ذَهَبٍ فَأَخَذَ مَا شَاءَ » . وروى « إِنْ الرَّجُلَ فِي الْجَنَّةِ إِذَا اِشْتَأَقَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ الَّذِينَ كَانَ يُحِبُّهُمْ فِي الدُّنْيَا فِي اللَّهِ تَعَالَى سَارَ سَرِيرُهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى سَرِيرِ الْآخَرِ فَيَتَعَدَّدَانِ وَيَتَذَاكَرَانِ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الصَّحْبَةِ فِي اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ يَسِيرُ سَرِيرُهُ إِلَى مَكَانِهِ وَقَرَأَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ (وَسَيِّقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) فَقَالَ : إِذَا انْتَهَوْا إِلَى أَبْوَابِهَا وَجَدُوا عِنْدَ كُلِّ بَابٍ شَجَرَةً يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا عِمَاقَانِ تَجْرِيَانِ فَيُشْرَبُونَ مِنْ إِحْدَاهُمَا فَيَذْهَبُ اللَّهُ عَنْهُمْ كُلَّ بَأْسٍ وَدَاءٍ وَغَلٍّ وَيَتَطَهَّرُونَ مِنَ الْآخِرَى فَتَجْرِي عَلَيْهِمْ نَفْسَةُ الذَّعِيمِ ثُمَّ يَتَقَدَّمُونَ إِلَى الْأَبْوَابِ

فخول لهم الملائكة (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) وتلقاهم الولدان فرحين، ثم يذهب الولدان فيبشرون الحور العين فتفرح كل حوراء بزوجها ، حتى إنهن ليقفن على أبواب القصور منتظرات للمؤمنين ، فإذا دخل الرجل إلى منزله رأى أساس بنيانه جنادل الأول ، فوقه حيطان من ذهب وفضة ، فإذا دخل وجد أزواجا معطرة وأكوابا موضوعة ، وثمار مصقوفة ، وزراية مبثوثة ، فيتسكى حينئذ ويقول : (الْحمدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) فإذا التقى كل زوج مع زوجته ناداهم مناد : يا أهل الجنة تحيون فلا تموتون أبدا وقيمون فلا تظعنون أبدا ، وتصحون فلا تمرضون أبدا .

وقال الحسن البصري : أهل الجنة كلهم أبناء ثلاث وثلاثين سنة بيض كل جرد مرقد قد اطمانت بهم الدار وطاب لهم القرار ، وإن أنهارها لتجري على رضاء من ياقوت وزبرجد وتربها الزعفران ، وطينها المسك الأذفر ، وإن رائحتها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام ، وإن لم فيها ليل ولا نهار ، ورحالها وزمامها وسروجها من ياقوت ، يزاورون عليها وأزواجهم من الآدميات المؤمنات ، ومن الحور العين قد طهرت أخلاق الجميع من كل سوء ، وطهرت أجسامهم من كل دنس وتغير .

وفي الحديث : « لَا يَقْطَعُ رَجُلٌ تَمْرَةً مِنَ الْجَنَّةِ فَتَصِلُ إِلَى فِيهِ حَتَّى يُبَدِّلَ اللَّهُ تَعَالَى مَكَانَهَا خَيْرًا مِنْهَا . وثمارها يتناولها القائم والقاعد والمضطجع » قال الله تعالى : (وَذُلَّتْ قُلُوبُهُمْ تَذَلِيلًا ... مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ) وهي المجالس المرتفعة في الرياض المنصورة . (وَعَبَقَرِي حِسَانٍ) وهي البسط من الديباخ ، وهي الزراية أيضا والثمار الوسائد .

وروي أن الملائكة إذا أتوا إلى المؤمن وهو في قصره يقولون لعلمانه نحن رسل الله ، فاستأذنوا لنا على ولي الله ، فيدخلون ويسلمون ويتناولونه كتابا فيه : من الحى الذى

لا يموت إلى الحى الذى لا يموت^(١) . عبدى قد اشتقت إليك فزرى، عبدى هل أنت عنى راض ، فهذا هو الملك الكبير . ثم إن لأهل الجنة مع هذا النعيم والملك الدائم المقيم إكمال السرور وإتمام الحبور بالنظر إلى الله تعالى عيانا من غير شك ولا ريب ولا حجاب ، ينظرون إلى الله تعالى بأعينهم كما أخبر الله تعالى فى كتابه بقوله تعالى : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ) أى بهجة مسرورة (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ولهذا كانت الأولى بالضاد من النظارة والثانية بالظاء من النظر ، وقال : (تَحِيَّاتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) ينظرون إلى الله تعالى ويسلم عليهم بكلامه الذى لا يشبه كلام الخلق، تعالى ربنا وتقدس عن التشبيه والتكليف ولكن تراه الأبصار منزها عن معهود ومألوف (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فمن نفى الرؤية فهو معطل، ومن شبهه فهو مجسم ومذهب أهل السنة إثبات الرؤية فى الآخرة مع نفي التشبيه .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواها عدد كثير من الصحابة رضى الله تعالى عنهم .
روى أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى : « أن قوما قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : هَلْ تُضَارُّونَ فى رُؤْيَا الشَّمْسِ فى الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟ هَلْ تُضَارُّونَ فى رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ مَا تُضَارُّونَ فى رُؤْيَا رَبِّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فى رُؤْيَايَهُمَا » .
وعن صهيب قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى

(١) معنى هذه الرسالة من الله سبحانه للمؤمن : أن الروح أبدية خالدة : وتعتبر كذلك حياته أبدية .

والدليل على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا خَلَقْتُمُ لِلْأَبَدِ ، وَإِنَّمَا تَنْقَلِبُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ » :
فاعتبر الموت إذن كمنظرة بين الدنيا والآخرة .

وَنِيَادَةً) فقال « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نَادَى مُنَادٌ : إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا يُرِيدُ أَنْ يَنْجِزَ كُفُومَهُ ، فَيَقُولُونَ مَا هُوَ ؟ أَلَمْ يَثْقُلْ مَوَازِينَنَا ، أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ، أَلَمْ يَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ ، أَلَمْ يُجْرِ نَا مِنْ النَّارِ » فيكشف عنهم الحجاب فينظرون الله عز وجل . فما من شيء أحب إليهم من النظر إليه . ثم إن الله تعالى بين أوصاف سكان أهل هذه الدار فقال تعالى (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . الصَّائِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) وصفهم بالإيمان ثم بالاستغفار من الذنوب ولا يصح الاستغفار إلا بالتوبة بالله من الأوزار ، ثم وصفهم بالخوف من العقاب وأنهم يسألون الله تعالى السلامة من العذاب ، ثم وصفهم بالصبر ، والصبر تمام الأمر ، وهو الصبر على المكروه والمصائب رجاء ثواب الله تعالى ، والصبر عن الشهوات المحرمة خوف عقاب الله تعالى ، والصبر على ملازمة فرائض الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم « حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ^(١) لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ ؟ قَالُوا بَلَى ، قَالَ كُلُّ عَقْلٍ ^(٢) جَوَاطِ ^(٣) مُتَكَبِّرٍ ^(٤) » .

قال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد ، وفوت الآخرة أشد . وترك الدنيا مهر الجنة . وقال أيضا : في طلب الدنيا ذل النفوس ، وفي طلب الآخرة عز النفوس ، فبما عجباً لمن يختار المذلة في طلب ما يفتنى على العز في طلب ما يبقى . ثم وصفهم بالصدق في معاملة الله تعالى وهو استواء السر والعلانية لله تعالى ، وإخلاص القصد في العمل لوجه الله تعالى ،

(١) المتضعف : بفتح العين وكسرها وتشديدها هو ما يستضعفه الناس ويحتقرونه .

(٢) العتل : هو اللفظ الغليظ .

(٣) الجواط : هو المختال في مشيته .

(٤) المتكبر : بظن الحق وغمط الناس .

ورؤية الجنة في الطاعات من الله تعالى ، ثم وصفهم بالقنوت وهو الخضوع والانقياد لطااعة الله تعالى ، ثم وصفهم بالإلفاق في أموالهم لطااعة الله تعالى ، ثم وصفهم بالاستغفار في الأسفار والوقوف على الباب بوصف الافتقار ، فمن طمع في الجنة فليعرض أعماله على أعمالهم ، وليقاييس أحواله بأحوالهم وإلا كان مغرورا متمنيا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السَّكِينُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْفَاجِرُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَسَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانَةَ »

وكان ذو النون المصري يقول : يامعشر العلماء طريقتي الجنة لا تقطع بالكلام ، وإنما تقطع بالسعي والاهتمام ، فكيف تطعمون بالوصول إلى الجنة بالكلام .

وقال بعضهم : لا نعلم شيئا يباع في الدنيا بالكلام ولا حُرْمَةً بقل ، ويمكن شراء الجنة بالكلام بمعنى ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن والكلام في الخير .

وقد ذكر الله تعالى أوصاف أهل الجنة أيضا في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ) إلى قوله تعالى (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

لقد عظم الله تعالى قدرك أيها المؤمن حيث اشتراك مولاك وخالقتك ، وجعل الجنة ثمثك

فنعيم المشتري الجبار ، ونعم الدلال المصطفى المختار ، ونعم الثمن دار القرار ؟ هذا سلم المبيع

فتستحق الثمن ، ولا تؤخر تسليمه فإنه حيوان وربما يتلف قبل التسليم ، للمالك غنى عنك ،

وقد اشتراك لمنفعتك . ألا ترى أن نفع الشمس والقمر عائد إليك ، اشتراك مولاك أولا ،

واستولى عليك الشيطان بمواقفتك إياه ولا حق للقاصب « لَيْسَ لِمَرْقٍ ظَالِمٌ - ق » اشتراك

وهو عالم ببيوبك فلا يردك بالميب وهو قادر على إصلاحك بحسن نظره ، والرفاء يشتري

التياب الممزقة ، ويقول أنا أصلحها بصنعتي ، وأستر عيوبها بحسن معرفتي ، والأمير إذا

اشترى ضيعة عمرها بجاهه ، وانقطعت أطماع الظلمة عنها ، وقد اشتراك مولاك ولا عيش إلا

في حماه المنيع ، ولا عز إلا في حسنه الرفيع ، كأنه يقول من دعاني أجبتة ، ومن سألني

أعطيته ، ومن أطاعني شكرته ، ومن عصاني سترته ، ومن التجأ إلي جبرته ، ومن استنصر بي

بصرته ، العبد إذا أبق^(١) عن باب مولاه لا يستقر قلبه بخدمة سواه ، فإذا كان للمولى قادراً على رده إلى الباب وكان عنده من جملة الأحباب رده بالطفاف وإكرام ، وجذبه بالإحسان والإينام . يا عبدي أنت تفرّ عني ، وتعرض عن طاعتي ، وأنا أردك إلى خدمتي ، وأنت تعرض عن شكرى وأنا أسبغ نعمتى عليك .

ورد في الحديث « أن جابر بن عبد الله اعتلّ جملة في بعض أسفاره فاشتراه منه النبي صلى الله عليه وسلم وتركه تحت جابر إلى المدينة ، فمن حين اشتراه صار يسبق الركب ، فلما وصل إلى المدينة وقاه الثمن وتركه تحت جابر » وما كان قصده بشرائه إلا لإصلاحه . وقد اشتراك مولاك لإصلاحك فسلم المبيع فسيرجع إليك السكّل (إن الله اغنى^٢ عن العالمين) قال الجنيد : أخبرهم بأنه اشتراهم ليخرجهم عن التدبير ، ويكلوا الأمر إلى الملك الكبير . وقال أبو بكر الوراق : اشترى منهم أنفسهم حتى لا يبقى لهم التفات إلى أعمالهم وأموالهم . وقال أبو عثمان : اشتراها حتى لا يبقى لهم ما يختصمون عليه ، فإذا كانت الجنة ثمناً لنفسك ومالك ولم تبذل في طاعة الله تعالى ، ولم تنفق مالك لله تعالى ، فطلب الثمن مع إمساك المبيع ومنعه لا يصح . طلب الجنة بغير عمل أمانى وغرور ، وطلب القرب بمن لا تطيعه تعطيل وفتور . في الجنة عينان تجريان لمن له اليوم عينان تجريان من خشية الله تعالى ، قاصرات الطرف في الخيام ، لمن قصر طرفه عن الآثام ، رفع الحجاب لمن ترك الإعجاب ، بساينها زاهرة لمن له عين ساهرة ، قصورها عالية ، وأثمارها غالية ، ظلها ممدود لمن لا يتعدى الحدود ، عيشها مقيم لمن يؤمن بالله ويستقيم .

فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى من القول والعمل ، ويخلصنا من هذا التسويف والفتور والكسل ، ويؤمن روعتنا يوم التوبيخ والجلل ، ويميّزنا يوم النزع الأكبر من خيبة الأمل ، إنه غفور رحيم شكور حلیم .

(١) الآبق : بمعنى الهارب . ومنه قوله تعالى : (إذ أبق إلى الفلك المشحون) .

الفصل التاسع

في الخوف

الحمد لله الذي تفرد بعز كبريائه عن إحراك البصائر، وتقدس بوصف علاه عن الأشياء والنظار، وتوحد بكمال خبروته فالعقل في تعظيمه حائر، وتفرد في ملكوته، فهو الواحد القهار الأول قبل كل أول الآخر بعد كل آخر، للظاهر بما أبدع من صنعته فدليل وجوده ظاهر، الباطن فلا يخفى عليه ما هجس في الضائر، الحى العليم الخبير السميع البصير القادر، المتكلم بكلام قديم أزلى هو به ناه وأمر، صفات كماله ظاهرة ثابتة بالأدلة، فمن عطل فهو جاحد، ومن شبه فهو جائر، كيف تشبه الصنعة بالصانع، أو تماثل الفطرة الفاجر، زين قلوب المعارفين بنور هدايته فأضاءت منها السرائر، واختطف همهم إلى قنسيم توحيده عاطر، شمر في طلب معبودك، واحذر فوت مقصودك، وبادر بالتمريض لنفحات جوده وفضله، وخف من سطوة قهره وعدله وحاذر؛ فكم آمن تحت عطاء برء، نخانه نفقات مكره، فذبل من رياض سروره الغصن الناضر، يا خيبة من أبعده مولاه وقطعه، يا حسرة من صدّه عن بابه ومنعه، يا ضيعة من أهانه ووضع، يا شقاوة من خذله وصرعه، ومن خذله مولاه فليس له ناصر. قلب تمرز بغيره ما أذله، عبد أعرض عن خدمته ما أضله، عمر أنفق في غير طاعته ما أقله، من رضى بدونه فهو الخائن القادر، الشقي من حرمه، والسعيد من رحمه، والطريد من حجبه، والقريب من جذبه، والقدام من أهانه، والسلام من أعانه. وقد علم الولي والعدو والراجح والخاسر. فسبحان من أوضح الدلالة ويّين، وحبب الإيمان

إلى المؤمنين وزين ، وطبع على قلوب الجاحدين ، فهم يحادلون في الحق بعد ماتبين ؛ جلت
عظمته عن الإدراك ، قالوهم حسير قاصر .

(أحده) على إحسانه الوارد والصادر وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
عبد لأحكامه صابر ، ولآلائه شاكر ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اختاره من أطيب
العناصر ، واصطفاه من أنجب العشائر ، واختصه بأشرف الذخائر ، وأدار على من عاداه
أفزع الدوائر ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما دار فلك دائر ، وسار كوكب
في الجوّ سائر .

في قول الله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ
هِيَ الْمَأْوَىٰ) .

الخوف من مقام الله وحسابه يدعو إلى المواظبة على العمل والعلم لتتال رتبة القرب من
الله تعالى ، والخوف سوط الله تعالى يقوّم به الشاردين عن بابه ، فمن خاف المقام بين يدي
ربه يوم العرض ونهى النفس عن هواها وردّها عن غيها (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) .
وينبغي للمؤمن أن يكون كثير الفكر فيما بين يديه من الأهوال كثير الحاسبة لنفسه
في عدّ نعم الله تعالى وعد جنایات نفسه ليدوم بذلك خوفه ، فإن الخوف إذا فارق القلب
خرب ، والغالب على النفس الفتور والأمن والسكسل عن الطاعات ، والميل إلى الشهوات
ودواء ذلك الخوف ؛ فأما من دام عليه الخوف حتى مال إلى القنوط واليأس من رحمة الله
تعالى فينبغي أن يداوى بالرجاء ويذكر سعة رحمة الله تعالى ؛ فمثال الخوف والرجاء كمثل
الحرارة والبرودة ، فمن غلب عليه أحدهما حتى خيف عليه الانحراف والتلف يداوى بالآخر
حتى يرجع إلى حد الاعتدال . فقد ورد في الحديث « لَوْ وُزِنَ خَوْفُ الْمُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ
لَاَعْتَدَلَا » وفائدة الخوف التقوى والورع والمبادرة والاجتهاد ، فإذا مال إلى حد يخرج
عن حد الاعتدال وقع في القنوط وبطل العمل وذهبت فائدة الخوف ، وإذا دخل عليه
الرجاء والطمع رده إلى التقوى والورع ، فالمطلوب التقوى ، وأما الخوف والرجاء
هما طريقان .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِذَا جَعَّ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ نَسَبًا وَجَعَلْتُكُمْ نَسَبًا فَوَضَعْتُكُمْ نَسَبِي وَرَفَعْتُكُمْ نَسَبَكُمْ . قُلْتُ : إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَاكُمْ وَأَبْنَيْكُمْ إِلَّا فُلَانٌ بَنَ فُلَانٍ وَفُلَانٌ أَغْنَى مِنْ فُلَانٍ ، فَالْيَوْمَ أَضَعُ نَسَبَكُمْ وَأَرْفَعُ نَسَبِي أَيْنَ الْمُتَّقُونَ فَيُنْصَبُ لِلْقَوْمِ لِيَاكُلُوا ، فَيَذَبُّهُمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلِّقٌ بِالسَّجْدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَافْتَرَقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ وَجَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وقف يصلي الليل يسمع لدمعه وقع كوكف المطر . وكان إذا تغيرت الريح تغير وجهه وبتردد خارجا وداخلا خوفا على أمته من عذاب الله تعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَا جَاءَ فِي جِبْرِيلُ قَطُّ إِلَّا وَهُوَ يَرْعُدُ فِرْعَا مِنْ الْجِبَارِ عَزَّ وَجَلَّ » .

ولما مكر إبليس لعنه الله طفق جبرائيل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام يبكيان ، فأوحى الله تعالى إليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ قالا يارب ما تأمن مكرك ، فقال الله تعالى : هكذا كونا لا تأمنا مكرى .

وكان إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم يسمع لقلبه أزيز إذا وقف يصلي كحس الرجل . وبكى داود عليه الصلاة والسلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من

دموعه فتودى : يا داود أجاثع أنت فتطعمم أم ظمآن فتسقى ، أم عارفتكسى؟ فاتعجب عند ذلك حتى احترق العشب من حرّ جوفه . وكان لا يمد يده إلى طعام ولا شراب إلا تذكر خطيئته فيبكي حتى يثوى بالقدرح ناقصاً فيتمّ بالدموع . وما رفع رأسه إلى السماء حتى مات . وكان يقول : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليّ الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت لي روحي ، سبحانك إني أتيت أطباء عبادك ليداووني فسكاهم دلوني عليك فبهؤسا للآمنطين من رحمتك . إلهي أمدّ عيني بالدموع وضعني بالقوة حتى أبلغ رضاك عني . وذكر ذنبه يوماً فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت عليه السباع فقال ارجعوا لا أريدكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقباني إلا بالبكاء ، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخاطي . وكان يعاتب في بكائه ، فيقول دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء ، وقبل انحرأق العظام واشتعال الحشا ، وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ولما طال بكأؤه وضاق ذرعه واشتد غمه ، قال يارب أما ترحم بكائي؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك؟ فقال إلهي وسيدى كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلتني الطير على رأسي وأنست الوحوش بي . إلهي وسيدى كم هذه الوحشة بيني وبينك؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية . إن آدم خلق من خلق خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقارى ، وشكا إلى الوحدة فزوجته بحواء أمي وأسكنته جنتي وعصاني فأخرجته من جوارى عريانا ذليلاً . يا داود اسمع مني والحق أقول : أطعنا فأطعناك وعصيتنا فأمرهناك ، وإن عدت على ما كان منك قبلناك . ويروى أن داود عليه الصلاة والسلام كان إذا أراد أن ينوح على ذنبه مكث سبعة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يقرب النساء ، ثم يخرج له منبر إلى البرية ثم يأمر سايمان عليه الصلاة والسلام أن ينادى بصوت عال : من أراد أن يسمع نوح داود فليأت ، فتأتى

الوحوش من البراري والآكام ، وتأتي الهوام من الجبال والطيور من الأوكار ، وتخرج العذارى من خدورهن وتجتمع الخلائق لذلك اليوم ؛ فيأتي داود فيرق المنبر فيحيط به بنو إسرائيل على طبقاتهم وكل صنف من الخلائق على حدته وسليمان عليه الصلاة والسلام واقف على قدميه عنده ، فيأخذ داود في الثناء على الله تعالى فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فيموت خلق كثير من الناس والوحوش والهوام والطيور ، ثم يأخذ في أهوال القيامة وينوح على نفسه فيموت من كل صنف طائفة عظيمة ، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال : يا أباه مرقت المستمعين كل ممزق وماتت طائفة من بني إسرائيل ومن الوحوش والطيور ، فيأخذ في الدعاء حتى يقع مفشياً عليه فيحمل إلى منزله وتكثر الجنائز في الناس ، فيقال هذا قتيل ذكر الله ، وهذا قتيل خوف الله ، وهذا قتيل ذكر الجنة ، وهذا قتيل ذكر النار ، ثم يدخل داود بيت عبادته ويفلق بابه ويقول : يا إله داود أغضبان أنت على داود ؟ ولا يزال يناجي حتى يأتي سليمان فيستأذن ويدخل ويقدم إليه قرصاً من شعير ، فيقول : يا أبت تقوّت بهذا على ما تريد ، فبأكل ما شاء الله تعالى ثم يخرج إلى بني إسرائيل .

وقال يزيد الرقاشي : خرج داود عليه الصلاة والسلام مرة بنوح على نفسه ومعه أربعون ألفاً فمات منهم ثلاثون ألفاً فما رجع إلا في عشرة آلاف . وكان إذا جاءه الخوف سقط واضطرب حتى يقعد إنسان على رجليه وآخر على صدره لثلاث تنفرق أعضاؤه ومفاصله . وقال عمر بن عبد العزيز : دخل يحيى بن زكريا عليه الصلاة والسلام بيت المقدس وهو ابن ثمان سنين ، فرأى عباد بني إسرائيل وقد لبسوا مدارع الصوف والشعر ، ونظر إلى اجتهادهم وما يصنعون بأنفسهم فهاله ذلك ، فرجع إلى أبيه فسألها فألبسها مدرعة من شعر ولزم بيت المقدس فكان يخدمه نهارة وينقطع فيه ليلاً حتى أتت عليه خمس عشرة سنة ، فخرج إلى البراري والجبال والغدران والشعاب ، فخرج أبواه في طلبه فوجداه على بحيرة الأردن ورجلاه في الماء وقد كاد العطش أن يهلكه وهو يقول : وعزتك وجلالك

لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك؟ فسألاه أبواه أن يفطر على قرص شعير
كان معهما ويشرب الماء ويرجع معهما ففعل ذلك وكفر عن يمينه، فلذلك مدحه الله تعالى
بالبر فقال: (وَرَأَى الْوَالِدَيَيْنِ) فرجع إلى بيت المقدس فساكن إذا قام يصلي يبكي حتى يبكي
معه الشجر والمدر، ويبكي زكريا لبكائه، فما زال يبكي حتى طرق الدمع في خديه طريقتين
فقال له أبوه: يا بني سألت ربي أن يهبك لي لتقر عيني بك فما هذا البكاء؟ قال: يا أبت
إن جبريل أخبرني أن بين الجنة والنار مغازة لا يقطعها إلا كل بكاء، فقال زكريا فبك
يا يحيى. وروى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان كثير البكاء، فأتاه جبريل وقال له:
الجبار يقرئك السلام ويقول: هل رأيت خليلا يخاف خليله؟ فقال يا جبريل إذا ذكرت
خطيئتي نسيت خلتي، هذا خوف المرسلين مع عصمتهم من المخالقات وطهارتهم عن
الزلات، وإنما كانت خطاياهم نظرة إلى مباح أو لفظية في ظاهرها مكروه وفي باطنها صلاح.
إبراهيم عليه الصلاة والسلام كسر الأصنام وقال: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) يعني على
زعمكم لينخصم قومه ويظهر الحق عليهم في عبادة من لا يقدر على شيء، وقال أيضا: (إِنِّي
سَقِيمٌ) أي مآلى إلى السقم حتى لا يخرج معهم في لهوم، وقال في زوجته سارة هذه أختي،
يعنى في الإسلام ليخلصها من يد ظالم، وليس في شيء من هذا إثم فلا وزر. وداود عليه
الصلاة والسلام نظر إلى امرأة جاره أول مرة ثم غض بصره ولا إثم في ذلك، ثم اشتبهى
أن تكون زوجته في الحلال، فخرج زوجها في الغزو فقتل من غير أن يتسبب داود
في قتله بشيء، هذا أعظم ماورد في قصته وما زاد على هذا فهو باطل. وقيل إنه سأل أن
يطلقها قاله ابن عباس وابن مسعود، وقيل إنما كان خاطبا وسأله أن ينزل عن خطبتها وليس
في شيء من هذا إثم، وإنما كانوا أعلم بالله وأشد خشية وتعظيما، فصارت هذه الأشياء
عندهم عظاما لشدة إجلالهم لله تعالى وتعظيمهم لهيبته وجلاله. فلا يفتر الجاهل المسكين
بما يسمع من ذكر معاصي هؤلاء بل ينبغي أن يشتد خوفه ووجله وإشفاقه من ذنوبه وينظر
شدة خوفهم مع رفيع مقامهم وخفة هنواتهم، فكيف يعاين قلب من لا يعلم عاقبة أمره،

أَمْ كَيْفَ يَسْكُنُ قَلْقَى مِنْ ضَمِيعٍ فِي الْخَالَفَاتِ سَالِفِ عَمْرِهِ، فَتَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَتَغَمَّدَنَا بِرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَكَلَى رَبَّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ) الْمُؤْمِنُ حَقًّا مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَاتُهُ : الْوَجَلَ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْخُشُوعَ عِنْدَ سَمَاعِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالتَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الْإِذْرَومَ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْجُودَ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَلْبِغَ اللَّابَنُ فِي الضَّرْعِ » وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لَا تَدْخُلُ النَّارَ عَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ تَحَارِمِ اللَّهِ ، وَلَا تَدْخُلُ النَّارَ عَيْنٌ بَسَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » .
قَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) فَلَمَّا بَلَغَ (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) خَرَّ مَغْشِيًا عَلَيْهِ . وَبِمَعِ مَرَّةٍ أُخْرَى قَارَأَ مَا يَقْرَأُ فِي سُورَةِ (وَالطُّورِ) فَوَقَفَ ، فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَهُ تَعَالَى (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مِمَّا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) اسْتَنْدَ إِلَى حَائِطٍ سَاعَةً وَذَهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَضَ شَهْرًا وَالنَّاسَ لَا يَدْرُونَ مَا سَبَبُ مَرَضِهِ .

وَكَانَ سَفِيانُ الثَّوْرِيُّ إِذَا جَلَسَ مَعَ النَّاسِ كَأَنَّ النَّارَ أَحَاطَتْ بِهِ لَمَّا يَرَى مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِ وَجَزَعِهِ .

وَقَالَ فِرْقَدُ السَّنْجِيُّ : دَخَلْتُ بَيْتَ الْقُدْسِ خَمْسًا مِائَةَ عَذْرَاءَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِبَاسُهُنَّ الصُّوفُ فَتَذَكَّرَنَ ثَوَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَعِقَابَهُ فَمِئَتَيْنِ كَاهِنٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ . وَصَلَّى زُرَّارَةُ بْنُ أَوْفَى بِالنَّاسِ صَلَاةَ الصُّبْحِ فَقَرَأَ (فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمٌ مِثْلُ يَوْمِ عَسِيرٍ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) فَوَقَعَ مِيتًا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ) - صَاحَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيُّ صَيْحَةً وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ .

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ يَقُولُ : أَبْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا قَتَبَا كَوَا، فَوَاللَّهِ لَوْ يَلِمُ أَحَدُكُمْ لَصَرَخَ حَتَّى يَنْقَطِعَ صَوْتُهُ ، وَصَلَّى حَتَّى يَنْكَسِرَ صَلْبُهُ . وَاجْتَمَعَ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ يَوْمًا

على باب الفضيل رحمه الله تعالى ، فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ويهحف ، فقال عليكم بالقرآن ؛ عليكم بالصلوات ، وهذا زمان بكاء وتضرع ودعاء كدعاء الفريق ، هذا زمان : احفظ لسانك وأخف مكانك ، وعالج قلبك وخذ ماتصرف ودع ماتنكر وهذا أخدم الفضيل من حديث عقبة بن عامر لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم اختلاف الزمان فقال : « مَا النِّجَاحُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسِّتْكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » .

وكان الفضيل يوما يعيش فقيل له إلى أين ؟ قال لا أدري وكان والمأ من الخوف ، ووقف قوم بما به يبكي فقالوا له ما يبكيك ؟ قال روعة يجدوها الخائفون في قلوبهم ، قالوا وما هي ؟ قال روعة الفداء بالعرض على الله تعالى .

وكان الخواص يبكي ويقول : إلهي كبرتُ وضعف جسمي عن خدمتك ، فأعتقني . وجاءت مولاة لعمر بن عبد العزيز فقصت عليه أنها رأت في المنام كأن الصراط قد مده على جهنم وهي تزفر على أهلها ، وذكرت أنها رأت رجلا مرءوا على الصراط فأخذتهم النار ، قالت ورأيتك يا أمير المؤمنين وقد جئ بك ، فوقع مغشيا عليه وبقي زمانا يضطرب وهي تصيح في أذنه رأيتك والله قد نجوت .

وكان طاوس يفرش فراشه ويضطجع عليه فيثقل كما تثقل الحبة في القلاة ، ثم يقوم فيطويه ويصلي إلى الصبح ويقول طير ذكر جهنم نوم الخائفين . وكان الحسن البصري إذا جلس كأنه أسير قدّم ليضرب عنقه ، ومكث أربعين سنة لم يضطك .

وقال رجل لبعض الصالحين أوصني ، قال : يا أخى إن استطعت أن تكون كرجل احتوشته السباع والهوام فهو خائف أن يغفل فتفترسه السباع ، أو تنهشه الهوام فهو خائف حذر وجل القلب ، فهو في الخوف في إيله وإن أمن المغترون ، وفي الحزن في نهاده وإن فرح البطالون ، فقال زدني رحمك الله ، قال : يا أخى الظمآن يحزبه من الماء يسيره .

وهو تب عطاء في كثرة بكائه فقال: إذا ذكرت أهل النار مثلت نفسي بينهم فإلى لأبكي.
وقال أبو طارق شهدت ثلاثين رجلاً أتوا إلى مجلس الذكر صحاحاً فتصدعت قلوبهم
من خوف الله تعالى فأتوا كلهم في مجلس واحد .

قُصُوا عَلَى حَدِيثَ مَنْ قَتَلَ الْمَوِيَّ إِنَّ النَّاسِيَّ رُوحُ كُلِّ حَزِينٍ
قال منصور بن عمار : دخلت الكوفة ، فبينما أمشي في ظلمة إذ سمعت بكاء رجل
بصوت شجي من داخل الدار ، وهو يقول : إلهي وعزتك وجلالك ما أردت بمصيبي
مخالفتك ، ولكن عصيتك بجهلي ؛ فالآن من ينفذني من عذابك ، ويحبيل من أعتهم إن
قطعت حبلك عني ، واذنوباه واغوثاه يا الله ، قال منصور بن عمار : فأبكاني كلامه فوقفت
فقرأت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا
مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فسمعت للرجل
اضطراباً شديداً وصياحاً فوقفت حتى انقطع صوته ومضيت . فلما أصبحت أتيت إلى الدار
فوجدت الرجل قد مات والناس في تجهيزه وعجوز تبهكي فسألت عنها فقيل هي أمه ، فتقدمت
إليها وسألتها عن حاله . فقالت : كان يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويكتسب الحلال ،
فيقسم كسبه أثلاثاً ، ثلث يفرط عليه ، وثلث ينفقه على . وثلث يتصدق به . فلما كان البارحة
مراً لإنسان وهو يقرأ فسمع آية من القرآن ففارق الدنيا . وسمع مرزوق بن محمد قارئاً يقرأ :
(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْكَاذِبِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا) فشقق شهقة
لحق فيها الآخرة .

وقال صالح المري : قدم علينا ابن السماك فقال أرني بعض عجائب عبادكم ، فذهبت به
إلى رجل في خص فاستأذنا ودخلنا فإذا هو يعمل الطوص فقرأت عليه (أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي بَضْرَفُونَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ،
فَسَوْفَ يَمْلِكُونَ . إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
يُسْجَرُونَ) فشقق الرجل ووقع مغشياً عليه نفرجنا . وذهب إلى آخر وقرأ عليه الآية فوقع

مغشيا عليه ، ثم جثت به إلى ثالث فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا فدخلنا ، فقرأت عليه (ذَلِكَ إِنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) الآيات فوق مغشيا عليه ، فأدبرته على ستة رجال كل واحد يخرج ويتركه مغشيا عليه . ثم أتينا إلى السابع فدخلنا على شيخ فان وهو في مصلاه ، فسلمنا فلم يشعر بسلامنا ، فقلت بصوت عال : إن للخلائق غدا مقاما . فصاح بين يدي وبقي مبهورا فأتخا فاه يصيح بصوت ضعيف . نخرجنا وتركناه ، ثم بعد ذلك سألت عن أحوالهم ، فقيل لي : مات منهم ثلاثة وبقي الشيخ على حاله ثلاثة أيام ثم أفاق .

وسمع يحيى البكاء رجلا يقرأ (وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ) فصاح صيحة مرض منها أربعة أشهر بعد من أطراف البصرة .

واعلم أن الخائفين على مراتب : خوف العارفين خوف إجلال وتعظيم ، لما غلب على قلوبهم من ذكر جلال الله تعالى وعظمته من غير فكرة في شيء من أفعاله ، وهذا خوف الأنبياء والملائكة وخواص الأولياء وأما خوف أكثر المؤمنين فيذكروا الوعد والوعيد وأهوال القيامة ، مع فكرتهم في الجنايات والتفريط ، واتهامهم لنفوسهم أن يكون فيها من الآفات الباطنة ما يربى على المعاصي الظاهرة ، كالعجب والرياء والحسد والكبر ونحوها ، وأشد ما يهيج خوف هؤلاء ويزعج قلوبهم خوف السابقة الخاتمة ، إذ العبد لا يدري هل سبق له في علم الله تعالى السعادة أو الشقاوة .

والخاتمة تجري على ماجرت به السابقة ، فمن سبق له في علم الله تعالى السعادة ختم له بخاتمة الإيمان ، ومن سبق له في علم الله تعالى الشقاوة ختم له بخاتمة الخذلان ، قال الله عز وجل (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمُتُّ كَافِرًا ، وَيُمُتُّ مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا » . وأكثر ما يكثر عند الموت بأرباب البدع وأصحاب الآفات الباطنة والظلمة الجاهرين بالمعاصي ، فإن كان في ظاهره الصلاح ومكر به فلا فات باطنة .

ذكر أن فتى من أصحاب الفضيل بن عياض مات فرآه الفضيل في المنام فسأله عن حاله فأخبره أنه مُكْرَب به ومات يهودياً . فقال له : لم ذلك ؟ قال : لأنى كنت أظن أنى أفضل أصحابك فكنت أتكبر عليهم ، وكانت يى علة باطلة فوصف لى شرب الخمر ، فكنت أشرب الخمر فى كل سنة قدحاً .

وحكى أن رجلين اصطحبا فى العبادة زماناً طويلاً ، ثم سافرا أحدهما زماناً طويلاً ، فبينما الآخر فى غزاة من غزوات المسلمين يقاتلون الروم ، إذ برز فارس من عسكر الروم فطلب المبارزة ، فقتل ثلاثة من المسلمين ، فبرز إليه ذلك العابد وتطارد فحسر الرومى عن وجهه ، فإذا هو رفيقه الذى كان معه فى العبادة . فقال يا فلان ما هذا الخبر ؟ فقال : إن الأبد ارتد عن الإسلام وتزوج من الروم وصار له فيهم مال وأولاد ، فسأله أن يرجع إلى الإسلام ، فأبى . فقال له : يا فلان كنت تقرأ القرآن كثيراً ، قال : لأذكر اليوم منه حرفاً واحداً ، فقال له انصرف فقد قتلت ثلاثة ، فانصرف المرتد فتبعه العابد فقتله : فبعد تلك المجاهدات والعبادات قتل على غير الإسلام ، فكلم من مغبوط فى أحواله انعكس عليه الحال ، ورى بمقارفة قبيح الأعمال ، فبدل بالأنس وحشة وطردا ، وبالقرب غيبة وبدأ كما قيل :

أَحْسَنْتَ ظَنَّنَكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا بَأْتَى بِهِ الْقَدَرُ
وَسَأَلْتَنِي اللَّيَالِي فَأَغْسَرْتُ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

وخرج عيسى عليه الصلاة والسلام يوماً ومعه عابد من عباد بنى إسرائيل فتبعهما رجل عاص فقتله العابد ، وقال اللهم لا تجمع بينى وبين هذا العاصى ، فقال العاصى اللهم اغفر لى ، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام قد استجبت دعاءهما فرددت الصالح وغفرت للمحروم .

وقال سهل بن عبد الله : خوف الصديقين خوف سوء الخاتمة عند كل خطوة وحركة .

وكان سفيان الثورى كثير البكاء والجزع ، فقيل له : يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن

غفر الله أعظم من ذنوبك ، فقال أو على ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بمثل الجبال من الخطايا . ومرض بعض العارفين فقال لبعض إخوانه اقعد عند رأسي حتى أموت ، فإن مات على التوحيد فاشتر بجميع ما أملكه لوزاً وسكراً وفرقه على صبيان البلد وقل هذا عرس فلان ، وإن لم يكن كذلك فأعلم الناس حتى لا يفتروا بخفازتي فقعد عند رأسه حتى مات على الإيمان فاشترى اللوز والسكر وفرقه على صبيان البلد ، هذا خاف فسلم ، ومن لم يخف من سائب الإيمان فهو على خطر .

شكا نبي من أنبياء الله تعالى الجوع والفقر ، فأوحى الله تعالى إليه : عبيدي أما رضيت أن عصمت قلبك من أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا ، فأخذ التراب ووضع على رأسه وقال بلى يارب قد رضيت . ويقال في قول الله تعالى إخباراً عن أهل الجنة (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) أي كنا ونحن في الدنيا بين أهلينا خائفين من سوء الخاتمة (قَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّوْمِ) أي من علينا وتوقانا على الإيمان .

وكان علي بن أبي النجم يبكي ويقول : إلهي إن ابتليتني بكل معصية فلا تبتليني بأن أجهدك فتعزدي في النار .

وكان حبيب المعجم يبكي ويقول ، من ختم له بلا إله إلا الله دخل الجنة ثم يبكي ويقول : ومن لي بأن يحتم لي بلا إله إلا الله ؟

وقال حامد : إذا صعدت الملائكة بروح اللؤم تقول للملائكة كيف سلم هذا من حار فتن فيها خيارنا .

وقال سفيان الثوري : رأيت رجلاً متملقاً بأستار الكعبة وهو يقول اللهم سلم سلم ، فقلت له يا أخي ما قضيتك ؟ قال : كنا أربعة إخوة مسلمين فتوفي منا ثلاثة ، كل واحد يفتن عند موته ، ولم يبق إلا أنا فما أدري بم يحتم لي .

وقاب رجل نباش فسئل عن سبب توبته ، قال رأيت سبعين رجلاً في قبورهم قد حولوا عن القبلة .

وقال الحسن : دخل بعض الفقراء إلى بلاد الروم فرأى جارية فافقتن بها فخطبها فأبوا أن يزوجه حتى يتنصّر ، فأجابهم إلى ذلك ، فأحضروا له القسيسين وتنصّر فخرجت الجارية وبصقت في وجهه ، وقالت : يا ويحك ، تركت دين الحق لشهوة فكيف لا أترك أنا دين الباطل للنعيم المقيم الأبدى ؟ أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وأتى بعض الصالحين بطبيب نصراني في مرضه فصاح أخرجوه عني ، ثم قال : إلهي وعزتك لو صهبت عليّ كل بلاء في الدنيا لم أبال بعد أن لا تغذيني بالكفر . من سلمت خاتمته ختمت سلامته وتمت كرامته ، ما أتم الرجال بخواتم الآجال ، صفار الحدود من حذار الصدود ، والدموع السواكب من خوف العواقب :

مُنْقَطِعٌ عَنْكَ كَانَ مُتَّصِلًا وَنَارِخٌ بِالْفَنَاءِ فَارْتَحَلًا

يا أيها المغرور بأحواله الممجّب بأعماله ، على يد أي نقيب عرضت ، وفي أي الدواوين رسمت ، وبأي النداء نوديت ، فمن كان حاله مبهما عنه فأولى به الخوف والوجل والحياء والجليل .

وكان يحيى بن معاذ يبكي ويقول : إلهي ليس بيكيني اليوم ذنب وإن عظم ، وإعما بيكيني حالي التي لأدري كيف أنا بها عندك . إلهي العياذ بك من مكرك ، والاستعانة على قدرك بقدرك لا تبذل قلبي بالفراق ، فإنه يارب أضعف من بلى بفراق .

اللهم اجعل الإيمان لنا سراجا ولا تجعله لنا استدراجا ، اجعله لنا سلما إلى جنتك ، ولا تجعله مكرا إلى مشيئتك ، إنك أنت الحليم الغفور ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل العاشر

في الرجاء

الحمد لله الذي دلت بدائع صنعته وعجائب مملكته على انفراده بالإيجاد والإنشاء ،
وذلت لمظلة هيئته وقهر سطوته رقاب العظماء ، وكأت عن حقيقة معرفته وكال صمديته
أفهام العقلاء ، وجلت صفات ربوبيته ونموت وحدانيته فلا تحصيلها بلاغة الفصحاء ،
الأول بالتقدم قبل ابتداء جميع الأشياء ، الآخر بالعز والملك والبقاء ، الظاهر بالاختراع
والابتداع والقهر والكبرياء الباطن عن الإحاطة بالأفهام عاجزة عن إدراك الجلال والألسنة
قاصرة عن حقيقة الثناء ، القدوس الغني عن جميع خلقه فلم يزل غنيا قبل وجود العرش
والكرسي والماء والهواء والسماء ، الواحد الأحد القيوم الصمد الخلي المنزه عن مشابهة الأحياء ،
العليم السميع البصير فلا يخفى عليه ما يحتاج في الضمير عند تنفس الصعداء ، القادر على رد
الشاردين ووصل المنقطعين وتقريب البعداء بمشيئته الضر والنفع والبلاء ، والدفع والخفض
والرفع فكل يجري على سابق القضاء المتكامل بكلام قديم أزلى جل عن التشبيه والتكليف
والانتهاء قصّرت بصائر أهل التشبيه عن معرفة التنزيه فحاضوا في البدع والأهواء ،
وعصيت أبصار المعطلين عن الاستضاءة بنور الله تعالى فتأهوا في الظلمات ، فسبحان من أوضح
أدلة وجوده وخص المحققين بكشف الغطاء ، وأكمل لهم المنّة بما أولاهم من كريم المعطاء
وفتح باب جوده للقاصدين وبسط بساط الرجاء ، ومهد للمؤمنين من إحسانه مهادا وأوسع
الأرجاء ، وشرح لقبول أمره والإقبال على ذكره صدور السعداء ، ووفق العاملين لخدمته
ووعدهم بجزيل الجزاء فتلذذوا بمناجاته لما علموا أنه قريب سميع الدعاء .

(أحده) على ما أولانا من الفضل والطول والآلاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أدخرها عنده ليوم اللقاء، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم الرسل والأنبياء، وسيد النجباء والأولياء والأصفياء، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أهل الصدق والوفاء، صلاة دائمة ما تبسم فجر فاتحف الجو بالضياء، وتصرم مبحر فطاب الوذ والصفاء .
 في قول الله عز وجل (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) سبب نزول هذه الآية : « أن قوما قالوا : يا رسول الله يغفر لنا ربنا إن أسألتنا على ما كان منا من الكفر والقتل وغيره فنزلت » قال ثوبان : لما نزلت قال صلى الله عليه وسلم : « مَا أَحَبُّ أَنْ لِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ » ومعنى الآية إن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هي أرجى آية في القرآن، وقيل أرجى آية : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) وقيل أرجى آية : (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا) وقال زين العابدين : أرجى آية (وَأَسْوَفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) فإن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يرضى وواحد من أمته في النار .

وآيات الرجاء في القرآن كثيرة، وقد ذم الله تعالى من انقطع رجاءه من فضل الله تعالى، فقال تعالى : (إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) والرجاء حسن الظن بالله تعالى في قبول طاعة وفقت لها أو مغفرة سيئة ثبت منها . فأما العلمانية مع ترك الطاعات والإصرار على المخالفات فأمن وغرور، وقد نهى الله تعالى عنه بقوله تعالى (وَلَا يَغُرُّكُمْ بِآيِهِ الْغُرُورُ) بمعنى الشيطان فإنه يحسن لك المعاصي وربما يحرك إلى ذلك رجاء عفو الله تعالى وكرمه، وقد وصف الله تعالى الراجين فقال : (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا وَتَسْتَغْفِرُوا لَدَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ

فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ » وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ لِي بِمِائَةِ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ ، فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ ، وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوُحُوشُ عَلَى وَلَدِهَا ، وَأُخَرُ نِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : « قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَسِي فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْغِي إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَالْبَصِقَتْهُ بِعَطْمِهَا فَأَرْضَعَتْهُ ؛ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنْتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَلَّاحَةً وَالدَّهَاءَ فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا لَا وَاللَّهِ وَهِيَ تَتَدَرَّرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوَلَدِهَا » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كَانَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ إِذْ قَالَ لِأَهْلِهِ إِذَا مِتُّ فَأَخْرِقُونِي ثُمَّ أَذْرُوا نِصْفِي فِي النَّارِ وَنِصْفِي فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللَّهِ لَنْ يَكُنَّ قَدَرُ اللَّهِ عَلَيَّ لِيُعَذِّبَنِي عَذَابًا لَا يُعَذِّبُ بِهِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَلَمَّا مَاتَ قِيلَ لَهُ كَمَا أَمَرْتُمْ بِهِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى النَّبِيَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا بِنَفْسِكَ ؟ فَقَالَ مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ ، فَغَفَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ » . وعن أبي أمامة « أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْنِي عَلَى ، فَسَكَتَ عَنْهُ ، فَأَعَادَ الْكَلَامَ ثَلَاثًا وَأَقِمْتَ الصَّلَاةَ ، فَصَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ ثُمَّ انْصَرَفَ ، فَتَبِعَهُ الرَّجُلُ وَأَعَادَ الْكَلَامَ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَرَأَيْتَ حِينَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ أَلَيْسَ قَدْ تَوَضَّأْتَ فَأَحْسَنْتَ الْوُضُوءَ ؟ فَقَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ ثُمَّ شَهِدْتَ الصَّلَاةَ مَعْنَاءَ ، قَالَ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ غَفَرَ لَكَ حَدَّكَ أَوْ قَالَ ذَنْبَكَ » .

وعن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ » وفي الصحيح يقول

الله تعالى : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي » وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : « أَحْبَبْنِي وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّنِي وَحَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي » ، قال : يارب وكيف أَحْبَبْتُكَ إِلَى خَلْقِكَ ؟ قال : اذْكُرْنِي بِالْحَسَنِ الْجَمِيلِ ، اذْكُرْ آلَاتِي وَإِحْسَانِي وَذَكِّرْهُمْ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مِنِّي إِلَّا الْجَمِيلَ .

وكان أبو عثمان يتسكلم في الرجاء كثيرا فرؤى بعد موته في المنام فقيل له كيف كان قدومك على الله تعالى ؟ فقال أوقفني بين يديه وقال ما الذي حملك على ما فعلت ؟ فقلت أردت أن أَحْبَبْتُكَ إِلَى خَلْقِكَ ، فقال قد غفرت لك ذنبك .

وروى « أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم فيقول الله تعالى له يوم القيامة اليوم أؤيسك من رحمتي كما كنت تقنط عبيدي منها » وروى « أن رجلا من يوم القيامة يخرج من النار فيقول الله تبارك وتعالى لها : كيف وجدت ما قياك وسوء مصيرك ؟ فيقولون شر مقييل وأسوأ مصير ، فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما ، وما أنا بظلام للعبيد ، فيأمر بردهما إلى النار ، فأما أحدهما فيبادر إليها ، وأما الآخر فيتوقف فيقول الله تعالى للذي بادر ما حملك على ما صنعت ؟ فيقول عصيتك في الدنيا أفاء عصيتك في الآخرة ؟ ويقول للذي توقف ما حملك على ما صنعت ؟ فيقول حسن ظني بك يارب حين أخرجتني منها أن لا تعيدني إليها ، فيرحمهما ويأمر بهما إلى الجنة » .

وفي الصحيح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل الله عز وجل في أمر أمته وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك » . وقال إبراهيم بن آدم : خلا لي المطاف ليلة فصرت أطوف بالبيت وأقول : اللهم اعصمني فهتف بي هاتف وقال : يا إبراهيم كلكم تسألون الله تعالى العصمة ، فإذا عصمكم فعلى من بتسكروا ؟

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ كَيْفَ فَرَّانَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً مَا خَطَرَتْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَيْفَ فَرَّانَ اللَّهِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً يَتَطَاوُلُ لَهَا إِبْلِيسُ رَجَاءً أَنْ تَمْلَأَهُ .

وقال أبو يعقوب القاري : رأيت في المنام أويسا القرني فقلت أوصني ، فقال : ابتع رحمة الله عند محبته ، واحذر قنمته عند معصيته ، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك .

وقال مالك بن دينار : رأيت مسلم بن يسار بعد موته في المنام ، فقلت له ما لقيت بعد الموت ؟ فقال : لقيت والله أهوالا وزلازل عظاما شدادا . قلت : فإذا كان بعد ذلك ؟ قال : ما أراه يكون من الكريم إلا السكرم ، قَبِلَ مِنَّا الحسَنَات ، وعَفَا عَنَّا السيِّئَات ، وضمن عَنَّا التَّعْبَات ، قال ثم شهِقَ مالك شهقة ووقع مغشيا عليه ، ثم مات بعد ذلك بأيام ، وكانوا يرون أن قلبه قد انصدع .

وروى بعضهم في المنام ، فقيل له : بماذا قدمت على الله ؟ قال بذنوب كثيرة محامها عني حسن الظن بالله تعالى .

ونظر الفضيل إلى الناس يوم عرفة وهم واقفون يبكون ويتضرعون ، فقال لرجل إلى جانبه : أرايت أن هؤلاء كلهم واقفون على باب رجل من الأغنياء يطلبون دانتا^(١) أكان يردهم ؟ فقال لا ، قال فإن المغفرة عند الله تعالى أهون من دانتى عند أحدكم .

ويروى « أن الله عز وجل أوحى إلى بعض الأنبياء : بعيني ما يتجمل للمتجملون من أحلى وما يكابد المسكابدون في طلب مرضاتي ، أتراني أنسى لهم عملا وأنا الرحيم بخاقي ؟ ولو كنت مما جلا بالمعقوبة أحدا لعاجلت بها القانطين من رحمتي . ولو يرى عبدي أنؤمنون كيف أستوهمهم من ظلمهم ثم أحكم لن وهمهم بالخالد المقيم في جوارى إذا ما اتهموا فضلى وكرمى . » وقال ابن مسعود : يقول الله تعالى يا عبدي لِمَ تَقْنَطُ من رحمتي ؟ أليس أنا الذى أظهرتك ولأمانى طوقتك ؟ مالك تتجاهل على كائنك ما عرفتني وتتنحى كائنك ما وافقتني . عبدي إن استقامت أفلانك ، وإن تبت إلينا قبلناك ، وإن عزمت على قصدنا أدينناك ، وإن اضطرب دليلاك أريناك ، وإن عاديت نفسك في حب ودنا واليناك ، وإن بكيت لعوز دوائك داوبناك ، وإن بكيت لضرك شفيناك ، وإن بكيت خشية أحضرناك ، وإن بكيت خوفا

(١) الدانتى : سدس الدرهم .

أمتناك ، وإن بكيت أسفا على ما فأنك من حقوقنا عوضناك : لا تقنطوا من رحمتي ، هل رأيتم من انقطع إلى ذلك ؟ هل رأيتم من احتسى من أجل اعتل ؟ هل رأيتم من تنسم رياض قربي اختل ؟ هل رأيتم من رأى أعلام نصرتي انقل ؟ هل رأيتم من وجد حلاوة ذكرى انسل ؟ كأنه سبحانه وتعالى يقول : يا عبدي لا تقنط فإنك إن كنت بالفدر موصوفا فأنا بالوجود معروف ، وإن كنت ذا خطايا فأنا ذو عطايا ، وإن كنت ذا جفاء فأنا ذو وفاء ، وإن كنت ذا إساءة فأنا ذو أناة ، وإن كنت ذا غفلة ومسهوة فأنا ذو غفو ورحمة ، وإن كنت ذا خشية وإنابة فأنا ذو قبول وإجابة . لا تقنط من رحمة من جاد بالمغفرة على الألوف من السحرة وجعلهم من البررة .

كان بعض الصالحين يتعلق بأستار الكعبة ويقول : ههنا وعدتني ، وإلى هنا دعوتني ، أفعد خلني النار وتوحيدك في قلبي ؟ ما أظنك تفعل ، وإن فعلت فلا تجمع بيني وبين قوم قد عاديتهم فيك .

ونظر أعرابي إلى الناس بالموقف فأنشد يقول :

رَزُوا لَوَجْهَكَ يَا كَرِيمُ بِدَعْوَةٍ أَلْقَاهَا شَيْءٌ بِمَعْنَى مُفْرَدٍ
يَصْنَعُونَ بِحَرْكَ بَاعْزِزُ وَمَا عَنَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْهُ بِوَصْفٍ مُجَرَّدٍ
فَأَسْمَحُ بِمَغْفِرَةٍ تَكُونُ إِسْقَرَانَا زَادَا إِلَيْكَ غَدَاةَ يَوْمِ الْمَشْهَدِ

وأتى آخر إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، قلت فسمعنا ، وبلغت عن ربك فقبلنا ، وكان فيما بلغت عن ربك أنه قال : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) وهانحن قد ظلمنا أنفسنا وقد جئناك مستغفرين فاستغفر لنا . وقال فتبح للوصلي : لقد كثرت خطاياي وكبرت حتى لقد آيستني من عفو الله عز وجل ، ثم قال : وأنا آيس منك وأنت ولي كل خير ونعمة ، وأنا آيس منك وأنت المؤمل لكل فضل ومعروف ، وأنا آيس منك وأنت المغيث عند كل كرب ، فلم يزل يقول : وأنا آيس منك حتى سقط مغشيا عليه .

الفصل الحادي عشر

في التسوية

الحمد لله الغفور الودود ، الكريم المقصود ، الملك المعبود القديم الوجود ، المميم الجود
للتعالى عن الأمثال والأشكال والجهات والحدود ، الحى العالم السميع البصير ، فلا يخفى
عليه ديبب النملة السوداء فى الليالى السود ، ويسمع حس الدود فى خلال العود ، ويرى
جريان الماء فى باطن الجلود ، وتردد الأنفاس فى الهبوط والصعود ، القادر فاسواه فهو
بقدرته موجود ، وبمشيئته تصاريف الأقدار ، وبقسمته الإدبار والسود ، المتكلم بكلام
قديم أزلى غير متناه ولا محدود ، صفاته قديمة ثابتة بالنقل والعقل ، فمن عطل وقع فى الجحود .
وتنزيهه عن الأشباه معلوم ، فالتشبيه مذهب اليهود كف الكيف مشلولة ، وباب
التشبيه مسدود ، ودلائل العقل مقبول ، وتخويل الوهم مردود ، والمتبع مقرب ، والمبتدع
مطرود ، والحق غنى عن العباد ، فلا ينفعه المطيع ولا يضره الكنود . أباد بسطوته قوم
نوح ، وأهلك عادا وقوم هود ، وأعاد من بعد عاد دائرة السوء على نود ، وسلط ضعيف
البعوض بقدرته على نمرود ، وأغرق فرعون وقومه لما تلاطمت عليهم أمواج الصدود ،
وأعمى بصائر الجاحدين فى أعناقهم أغلال ، وفى أرجلهم قيود (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ
فِي آبٍ مِنْ نَارٍ يَصْبُونَ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَرِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ) وشرح
تقبول الحق صدور السعداء ، فلم يضرهم كيد العدو ، والحسود لا يسود ، سعى إبليس
فى طرد آدم فسكران هو المطرود ، وخادعه بإظهار النصيحة فزين له الخلود ، لكنه كان
حاسدا ، والحسود لا يسود ، وكم جد فى طلب القرب وبذل الجهد ، ولكن صاحب الجِدِّ

إذا لم يساعده الجُدُّ فهو مجذوذ غير مجذوذ^(١)، فسبحان من قرب وأقصى، وعلم وأحصى، وكل ماسواه مشهود.

أحمد، وهو الشكور المحمود، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يفوز فائزها في اليوم الموعود، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صاحب اللواء المعقود، والحوض المورود، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الركع السجود، صلاة دائمة باقية إلى يوم الورد.

في قوله تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) أمر الله تعالى عباده بالتوبة في آيتين فقال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً) ووعده بقبول التوبة في آيتين فقال تعالى (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ) ووعده بالمغفرة للذناب في آيتين فقال تعالى (وَأَنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى) وقال تعالى (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ) وقد ذكر التائبين فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) وقال تعالى: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ). والآيات في ذكر التوبة كثيرة.

وفي صحيح مسلم عن الأعرج المدني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي أَنُوبُ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ

(١) المجذوذ هنا: بمعنى الممنوع من الحظ. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «قميت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء. وإذا أصحاب الجحيم محبسون» أي ذور الحظ والغنى في الدنيا (تراجع مادة ج في لسان العرب).

«لَشَّمْسٌ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» . وللبخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنْ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ » .

وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ . وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : (إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) قيل : يا رسول الله وما علامة التوبة ؟ قال الندامة » .

وعن أنس أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ شَأْنٍ تَابَ عَلَيْهِ » ويقال إن الله تعالى يقول في بعض كتبه « يَا ابْنَ آدَمَ عَلَيْكَ الْجَهْدُ وَالْقَوَى الْوَفَاءُ ، وَعَلَيْكَ الصَّبْرُ وَعَلَى الْجَزَاءُ ، وَعَلَيْكَ السُّؤَالُ وَعَلَى الْمَطَاءُ ، وَعَلَيْكَ الْإِمْلَاءُ وَعَلَى الْكِتَابَةِ ، وَعَلَيْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَى الْإِجَابَةِ ، وَعَلَيْكَ الشُّكْرُ وَعَلَى الزِّيَادَةِ ، وَعَلَيْكَ التَّوْبَةُ وَعَلَى الْقَبُولِ » .

وفي الحديث « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِذَا تَابَ عَبْدِي أَنْسَيْتُ جَوَارِحَهُ عَمَلَهُ وَأَنْسَيْتُ الْبِقَاعَ وَأَنْسَيْتُ حَافِظَيْهِ حَتَّى لَا يَشْهَدُوا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وعن الحسن البصرى رحمه الله تعالى قال : لما تاب الله على آدم عليه الصلاة والسلام هبط جبريل عليه الصلاة والسلام وكذلك ميكائيل وحردائيل وقالوا : يا آدم قرت عينك بتوبة الله تعالى عليك ، فقال آدم يا جبرائيل فإن كان بعد هذه التوبة السؤال فأين مقامى ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ورثت ذريتك الثعب والنصب وورثتهم أنا التوبة ، من دعائى منهم بدعوتك تبت عليه كما تبت عليك ، ومن سألتى المغفرة لم أبخل عليه كما لم أبخل عليك ، لأنى قربت بحبيب . يا آدم أحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعائهم مستجاب . وروى أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أكل من الشجرة ونزع عنه لباس الجنة قولى هاربا . وجعل يستتر بورق الجنة فناداه ربه أفرارامنى يا آدم ؟ قال بل حياء منك يارب ، فقال

الله تعالى أما خلقتك بيدي ، أما أسجدت لك ملائكتي أما نفخت فيك من روحي ، أما أسكنتك جنتي في جوارى فلم عصيتني ؟ اخرج من جوارى فلا يجاورني من عصائي ، فقال آدم : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي فإنك خير الغافرين ، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت رب عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين ، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت رب ظلمت نفسي وعملت سوءا فاقب عليّ إنك أنت التواب الرحيم ، فهذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه قاله مجاهد . وقال الحسن : الكلمات قوله تعالى (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

وقال ابن عباس وقتادة : الكلمات أنه قال أي رب أنتوب عليّ إن تبت ، فقال تعالى نعم فتاب الله عليه . وقال جماعة من أهل النقل : الكلمات التي قالها من توبته : اللهم بحرمة محمد اغفر لي فغفر له . ولا تناقض بين هذه الأقوال فإنه يجوز أن يكون قال ذلك كله فتاب ، فتاب الله عليه .

مركز توثيق مكتبة مصر

وذكر أن بعض الرجال عبد الله تعالى عشرين سنة ثم خايل عشرين سنة ثم نظر في المرأة فرأى الشيب في لحيته فأحزنه ذلك وقال يارب إن تبت إليك أتقبلي ؟ فسمع هاتفا يقول : يا فلان أطمعنا فشكرناك ثم تركتنا فأمهاناك ثم إن عدت إلينا قبلناك فماد إلى التوبة والإجابة .

وقال ذو النون المصري : بينما أنا أطوف بالبيت إذ رأيت شابا عليه جبة صوف وهو يتبختر ويقول : إلهي هذه خطوة من افتخر بغيرك وتبرز بسواك ، فكيف تكون خطوة من ليس له محبوب سواك ؟ فقلت له حبيبي ما الخبر ؟ فقال باع انظر إلى ذلك الشاب يتبختر عجباً لأنه عبد أمير مكة ، قال ذو النون : فتقدمت فإذا شاب يسحب إزاره على الأرض عجباً ، فقلت له : يا فتى أنت تتبختر لأنك عبد أمير مكة ، وهذا الفقير خلفك وهو عبد ملك السموات والأرض ، تأخر حتى يتقدم فهو أحق بالتبختر منك ، فرأيت الشاب

قد تأخر وتغير لونه ، وقال للفقير تقدم فأنت والله أحق مني ، طوبى لمن كان مثلك ، ثم قفى طوافه ومضى وهو منكس الرأس وقد عملت فيه الكليات ، فرجع إلى سيده فاشترى منه نفسه وتصدق بكل ما يملكه ، ولبس جبة صوف وأقبل إلى البيت في اليوم الثالث فلقيني ، فقال لي يا شيخ : أترى الله تعالى يقبلني بعد تلك الذنوب العظام ؟ فقلت له أبشر يا حبيبي فأنت حبيب الله ، أما علمت أنه يدعو المدبرين عنه ، فكيف بالمقبلين ! فأخلص النية فإنه يقبل كل ما كان منك ، فقال يا عم طيب قاي بعد أن كاد يتصدع فجزاك الله من واعظ خيرا ثم مضى ، فلما كان في اليوم السابع أتاني إنسان وقال لي يا شيخ عظم الله أجرك في الشاب الثائب فإنه قد مات ، فقلت له ألا ترنيه فأتى بي فوجدته مسجى ووجهه كدائرة القمر ، فسألت عن حاله فقيل لي إنه قد دخل في هذا المسكان وغل يده إلى عنقه ولزم الحراب يبيكي على نفسه ، فلما كان اليوم وجدناه ميتا .

قال ذو النون : فشهدت جنازته فلم يبق بمكة إلا القليل حتى حضروا جنازته ، فرأيت تلك الليلة في المنام وهو يتبختر ويقول : شتان ما بين الخطوتين ، فقلت : حبيبي ما فعل الله بك ، فقرأ : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ) .

وقال ذو النون : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يكون لك قرار ، وتضيق عليك نفسك ، قال الله تعالى في كعب بن مالك ومسارة بن الربيع وهلال ابن أمية حين تخلفوا عن غزوة تبوك فحجهم النبي صلى الله عليه وسلم والسامون وخسين صباحا ، ثم جاءت توبتهم : (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ) الآية .

فالتائب دائم التأسف كثير التأمف ، يعرف من بين أمثاله بذبوله ويستدل على حاله بنحوه . وقال الجنيد : التوبة على ثلاثة أركان : الندم على مافات ، والعزم على ترك المعاودة ، والسمي في تلافى ما يمكن تلافيه من حقوق الله تعالى المفروضة وحقوق الناس ، فإن لم يمكن فالعزم على الوفاء والدعاء للخصوم .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود أنين المذنبين أحب إلى من صراخ العابدين . وقال رجل لرابعة^(١) : إني كثير الذنوب ، فإن تبت فهل يتوب الله عليّ ؟ قالت : لا ، بل إن تاب عليك^(٢) تبت .

وقال يحيى بن معاذ : ذنب واحد بعد التوبة أقبح من سبعين قبها . وأصل التوبة في اللغة الرجوع ، يقال تاب وأتاب بمعنى رجع ، فالتوبة الرجوع من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف الحمودة ، ويقال : من رجع عن المخالفات خوفاً من عذاب الله تعالى فهو تائب ، ومن رجع حياءً من نظر الله تعالى فهو منيب ، ومن رجع تعظيماً لجلال الله فهو أواب ، ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « نِعَمَ الْعَبْدُ صُهَيْبٌ لَوْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ لَمْ يَعْصِدْ » يعني أنه يترك المعاصي تعظيماً لجلال الله ولو لم يتوعد الله عليها بالعقوبة . ويقال أول التوبة بقظة من الله تعالى تقع في القلب ، فيتذكر العبد تفريطه وإساءته وكثرة جنائياته مع دوام نعم الله تعالى عليه ، فيعلم أن الذنوب سموم قاتلة ، يخاف منها حصول المكروه وفوات المحبوب في الدنيا والآخرة ، فإذا حصل له هذا العلم أمر حالاً وهو الندم على تضييع حق الله تعالى ، ثم يشر الندم عملاً ، وهو المبادرة إلى الخيرات وقضاء الواجبات ، ورد الغلاطات ، والعزم على إصلاح ما هو آت ، فهذه الأمور الثلاثة إذا انتظمت فهي التوبة . ومعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » أن أعظم أركانها الندم ، وأنه لا يحصل حتى يتقدمه الركن الأول وهو العلم بضرر الذنوب ، وإذا حصل الندم تبعه الركن الثالث وهو العمل في الإصلاح ، وكل من تكلم في حقيقة التوبة بكلام لم يجمع هذه الأركان الثلاثة التي هي ضرر الذنوب ، ثم حال الندم ، ثم حال العمل في الإصلاح ، وإنما تسكلم على أحد الأركان أو على ركنين منها . ويقال : التوبة الحياء العاصم والبكاء الدائم . ويقال : التوبة الندم على ما فات وإصلاح ما هو آت . ويقال : التوبة قود النفس إلى الطاعة بخطام الرغبة وردّها عن

(١) يقصد هنا رابعة العدوية رضي الله عنها .

(٢) مأخوذ من قوله تعالى : (ثم تاب عليهم ليتوبوا) .

المعصية بزمام الرهبة. ويقال: التوبة أن يعلم العبد جراته على الله تعالى ويرى حلم الله تعالى عليه، حيث لم يأذن للأرض أن تحسف به، أو النار أن تحرقه بما حمل من المعاصي، ثم يتوب من الذنوب، ويعزم أن لا يرجع إليه كما لا يرجع اللبن إلى الضرع. ويقال: التوبة ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ. ويقال: التوبة نار في الكبد تلهب وصدع في القلب لا ينشعب. ويقال: التوبة خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء.

وقال سهل بن عبد الله: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات الحمودة، ولا يتم ذلك إلا في الخلوة والصمت وأكل الحلال.

وفي الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، قِيلَ كَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يَسْكُونُ نُسْبَ عَيْذِي تَائِبًا فَأَرَاهُ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ» وما طرد إبليس لعنه الله وأنظر^(١)، قال: يارب وعزتك وجلالك لا قطعت طمعي من ابن آدم مادام فيه الروح، فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أمنع عنه التوبة مادام فيه الروح. وينبغي لمن أذنب ذنبا أن يبادر إلى التوبة ويعمل في قطع الأسباب الباعثة على الذنب، ويهجر من كان يصحبه على تلك الحالة، ويبتدأ ما أفسده ليجتهد بصالح الأعمال.

فقد ورد في الآثار: إن الذنب إذا أتبع بثمانية أشياء كان العقوبة عنه مرجوًا: أربعة في القلب وهي التوبة، والعزم على أن لا يعود، وحب الإقلاع عنه، وخوف العقاب، ورجاء المغفرة عليه. وأربعة في الجوارح وهو أن يصلي أربع ركعات في المسجد، ثم يستغفر الله تعالى سبعين مرة، ويقول: سبحان ربّي العظيم وبحمده مائة مرة، ويتصدق بصدقة ثم يصوم يوما قال الله تعالى: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ كَرِهُوا».

(١) هو قوله تعالى: (قال أنظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين) :

في تفصيل الذنوب

في قول الله عز وجل (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ) إِنْ اجْتَنَبْتُمْ الْكَبَائِرَ غُفِرَ لَكُمْ الصَّغَائِرُ ، قال صلى الله عليه وسلم « الصَّلَاةُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرَ » وفي رواية « رَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ لِأَيِّ ثَلَاثٍ : الشُّرْكَ بِاللَّهِ وَتَرْكُ السُّنَّةِ وَنَكَثُ الصَّفَقَةِ » وفي رواية « مَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ » .

وروى مسلم عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال « أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلَاثًا الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَوْ قَوْلُ الزُّورِ » .

وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوْبِقَاتِ . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَاهُنَّ ؟ قَالَ الشُّرْكَ بِاللَّهِ وَالسُّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّخْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ » .

وعن ابن مسعود قال : قال رجل يا رسول الله أى الذنوب أكبر عند الله ؟ قال : « أَنْ تَدْعُو اللَّهَ نَدَاءً وَهُوَ خَلْقَكَ . قَالَ ثُمَّ أَى ؟ قَالَ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَافَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ ، قَالَ ثُمَّ أَى ؟ قَالَ أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَصْدِيقَهَا (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ) الْآيَةَ » .

واعلم ان المعاصي على قسمين : ترك فريضة أو فعل محرم ، وأولها معصية إبليس فإنها ترك فريضة ، أمر بالسجود فلم يسجد . ومعصية آدم صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل الشجرة فأكل . ثم تنقسم إلى ما هو حق لله تعالى وإلى ما هو حق للآدمي . ثم تنقسم من حيث أصولها إلى أربعة : ربوبية وشيطانية وبهيمية وسبعية .

فالربوبية التشبيه بأوصاف الرب سبحانه وتعالى فإن العظمة والكبرياء والرفعة والعز والغنى والقهر والاستيلاء صفات الرب سبحانه وتعالى ، فمن تشبه بها من الخلق فتكبر وتجبهر وتطالب الرفعة والعلو والغنى والاستيلاء على الخلق فقد نازع الربوبية حقها .
والشيطانية التشبه بالشيطان ، ومن صفاته الحسد والبغى والحيلة والخداع والنفس ، والفساق والدعوة إلى المعاصي والبدع والضلالة .
والبهيمية الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنها ينشعب الزنا والمردة
وأكل مال اليتيم وجمع الحرام لقضاء الأوطار .

والسبعية الغضب والحقد ومنها ينشعب القتل والضرب وإيذاء الخلق ، وأول ما يستولى على الإنسان البهيمية ، فإذا كبر وتزايد فهمه دخلت عليه السبعية ، فإذا قويت فكرته ولم يوفق استعمل عقله في السكر والخداع والصفات الشيطانية ، ثم يدخل عليه منازعات الربوبية يقول الله تعالى « الْعِظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبَرِيَاءُ رِدَائِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ »
ثم تنقسم الذنوب على قسمين بالنظر إلى ضررها وإثمها ، فالكبائر تغفر بالتوبة ، والصغائر تغفر بالصلوات ونحوها كما ورد .

وقد اختلفت الناس في حد الكبائر اختلافا كثيرا ؛ فذهب بعض العلماء إلى أن كل محرم كبير ، ولكن بعضها أكبر من بعض ، وأن الصغر والكبر أمر نسبي وهذا ضيف ، فإن ظاهر القرآن لا يدل على أن المعاصي متسمة قال الله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) وقال تعالى (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّعَمَ) وأكثر المفسرين على أن اللام صغائر الذنوب ، وقيل اللام الإثم بالذنوب كهفوة ثم يتوب ويرجع . وأصله الإثم يقال ألم فلان بفلان إذا زاره زيارة مرتحل ، فالصحيح التقسيم . ثم اختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر ؛ فقال ابن مسعود أربع وقال ابن عمر سبع ؛ وقال عبد الله بن عمرو بن العاص تسع ، وقيل إحدى عشرة ؛ وقال أبو طالب للكي جمعتها من مجموع أقوال الصحابة ، فوجدتها أربعة في القلب ، وهي : الشرك

بالله تعالى ، والإصرار على معصية الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعالى ؛ والأمن من مكر الله تعالى . وأربعة في اللسان : وهي شهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات ، واليمين الغموس ، وهي التي يحلف بها الخائف متعمداً بالكذب . وقيل هي التي يفتطع بها مال مسلم ولو سواك من أراك ، وسميت غموساً لأنها تنغمس صاحبها في النار ، والسحر وهو كلام أجرى الله تعالى العادة بأنه إذا استعمل ظهر له أثر الفساد . وثلاثة في البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنان في الفرج : وهما الزنا ، واللواط . واثنان في اليدين : وهما القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين وهي : الفرار من الزحف ، الواحد من اثنين . وواحدة في جميع البدن وهي عقوق الوالدين ، وعقوقهما أن يقسا عليهما في حق فلا يبرأ قسهما ، أو يسألاه حاجة فلا يقضيهما ، أو يسباه فيضر بهما ، أو يجوعا فلا يطعمهما .

واختلف العلماء في حد الكبيرة ، فقيل : كل ما نهى الله تعالى عنه في القرآن فهو كبيرة وما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو صغيرة ، وقيل ما نوهده الله عليه بالنار فهو كبيرة ، وما لم يقرن مع النهي عنه وعيد أو غضب فهو صغيرة . وقيل كل ما شرع فيه حد . وقيل حد وكفارة فهو كبيرة . وقيل كل ما نفقت الشرائع على تحريمه فهو كبيرة . وقيل إن حصرها بهم لم يرد بعددها نص . وفائدة ذلك تعظيم سائر المعاصي خوفاً من الوقوع في كبيرة . وقيل أكبر الكبائر معلوم ، وأصغرها غير معلوم ، وطريق كشف الغطاء عن هذه المسألة أن تخطر في سر الشريعة فتعلم أن الله تعالى أنزل الكتب وأرسل الرسل إلى خلقه ليؤمنوا به ويعبدوه قال الله عز وجل : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) أي لأمرهم بالعبادة . وقيل معناه ليعرفوني فهذا هو المقصود ، فأكثر الكبائر إبطاله بالكفر بالله والشرك ، أو تكذيب الرسول في شيء مما جاء به ، فإن هذا أشد باب المعرفة والعبادة ، ثم يتلوه تقيض هذا المقصود ، مثل الأمن من مكر الله تعالى فإنه جهل بقهر الله تعالى وغناه عن خلقه ، والبدع المضلة فإنه جهل بصفات الله تعالى ، وتكذيب بما ورد في القرآن من جلال الله تعالى وتزييه عن الفائق ، ويتلوه الكبر والعجب فإنه جهل بمنة الله تعالى . ومن

ذلك ترك الصلاة والزكاة والصيام المفروضة والحج مع الوجوب ، وترك كل فريضة فإنه بإبطال ركن من المقصود ، فهذا أمر يعلم به أكبر الكبار ، ثم تفاوتها في الإنم . ثم إن الإيمان والعبادة لا يتم المقصود منهما إلا بسلامة الأنفس والعقول والأموال التي هي القوام . وحرّم الله تعالى قتل المؤمن والمعاهد بنير حق فإن القتل بإبطال المقصود بقطع الوجود ، ثم يليه الضرب والجرح وقطع الأطراف فإنه يفضي إلى القتل ، وشرع قتل الكافر المحارب لأن في قتله دفع ضرر عن المسلمين ، وشرع قتل الزاني الحصن زجرا عن المفسدة ، وشرع قتل القاتل عمدا بالقصاص زجرا عن القتل ، فكان في القتل قصاصا لتقليل القتل ، وهو معنى قوله عز وجل : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

وحرّم الله تعالى اللواط لثلاث بقع الاكتفاء به فيقطع النسل ، فيكون به رفع الوجود وهو قريب من قطع الوجود . وحرّم الله تعالى الزنا لثلاث تختلط الأنساب ، فينقطع التعارف والتناصر والوصلة والميراث ، وتكثر الفيرة بين الرجال فيقع القتل والهرج . وأما الأموال فحرّم الله تعالى تناولها بنير حق مصاحبة للناس ، لكن بعض الضرر أعظم فيها من بعض ، وأن مآلها منها أمكن تداركه واقتضاؤه بالسلطان أو باليد ، وربما أمكن التحرز منه بأن يحفظ الإنسان ماله . فأما ما كان باختفاء أو تساط فهو أعظم ، كالسرقة فإنه يعسر التحرز عنها ولا تعرف فيمكن استيفائها . وأكل مال اليتيم إذا أكله من بلى عليه كذلك ، وإتلاف المال بشهادة الزور ، وأكل المال باليمين السكاذبة عند الحاكم ، وأكل الربا والقمار قريب من هذا فإنه أكل مال مسلم بحجة باطلة لا يمكن معها استيفاء ، ثم يليه الغصب والخيانة في الوديعة . وأما الأعراض فحرّم الله تعالى الخوض فيها لثلاث يؤدي إلى التقاطع والتدابير وربما أدى إلى القتل . وحرّم الله تعالى شرب كل مسكر ، فإن فيه إفساد العقل وهو شرط التكليف فصار كقطع الوجود في وقت السكر ، فهذه مراتب الكبار ، ووزرها على قدر ضررها في تفويت الإيمان والعبادة .

وأما الصفات فإنها إنما تكبر بالمواظبة عليها والإصرار ، وذلك كالنظر إلى المرأة

الأجنبية واللمس والقبلة والخطوات في طلب المعاصي ، وحضور مجلس الشراب واللهو ،
ولباس الحرير والذهب للرجال والشراب في أواني الذهب والفضة واتخاذها وأكل طعام
نجس ومخالطة العصاة وكشف العمورة . فهذه كلها ذنوب ومعاص ، والإصرار عليها قريب
من الكبائر ، كما أن إدمان بعض اللهو المباح الذي لا فائدة فيه يلتحق بالصغائر ، فمن أراد
التقوى فليتنجب فضلات المباح لئلا يعتاد النفس الركون إلى الشهوات فتنجس إلى الشبهات
ثم تنجر إلى المحرمات ، وأول عقوبة الذنب ظلة تقع في القلب وغفلة تستولي عليه حتى
يسقط عنه حرمة أمر الله تعالى ونهيهِ ، فينجس إلى ذنب آخر أعظم منه ، ومثاله مثال
الذي يخوض في الطين وعليه ثياب نظاف فهو يجمع ثيابه ويحفظها ، فإذا وقع في الطين مرة
فأصاب أطراف ثياب أهلها بعد ذلك وخاض بها ولم يحفظها ، ولهذا قيل الطاعة أول
ثواب الطاعة ، والذنب أول عقوبة الذنب . ويقال ستة أشياء إذا قاربت الصغائر ألحقها
بالكبائر ، وإذا كانت مع الكبائر عظم وزرها وتزايد أمرها :

الأول الإصرار وهو العزم على العودة إلى مثل الذنب ، ولذلك قيل لا صغيرة مع الإصرار
ولا كبيرة مع الاستغفار ، وليس المراد به استغفار الكذابين باللسان وإنما المراد التوبة
والندم والإقلاع والالتجاء إلى الله عز وجل بالقلب . ويقال آفة الإصرار على الصغائر .
والوقوع في الكبائر وقل أن يتبع العبد في كبيرة حتى يتقدمها صغيرة كالزنا مثلاً لا يتصور من
غير تقدم نظر ولس ونحوه .

الثاني أن يستصغر الذنب فإنه يكبر إنمته على قدر استصغاره له فإن تصغير الذنب تصغير
أمر الرب وفي تعظيم الذنب تعظيم الرب سبحانه وتعالى .

وفي الحديث « الْمُؤْمِنُ يَرَى ذَنْبَهُ كَالْجَبَلِ فَوْقَهُ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَالْمُنَافِقُ
يَرَى ذَنْبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى وَجْهِهِ فَأَطَارَهُ » . وقال بعضهم : أكبر من الذنب قول
الإنسان ليت كل ذنب عملته يكون مثل هذا .

وأوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء : لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ،

مولا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى كبرياء من واجهت بها .
 قال أبو سعيد الخدري : إنكم لتعملون أشياء هي أدق عندهم من الشجر كنا نعدّها
 في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات ، وهذا لأنهم كانوا أكثر تعظيماً للجلال
 الله تعالى .

الثالث السرور بالذنب ، فإن القلب يسود بقدر الفرح بالذنب . ويروى أن بعض
 بنى إسرائيل تاب من ذنب . وعبد الله تعالى سنين ثم سأل بعض الأنبياء أن يدعو له
 بالقبول ، فأوحى الله عز وجل إليه : لو تشفع بأهل السموات والأرض ما قبلته وحلاوة الذنب
 في قلبه ، ومثال العاصي كمثل من غلبه عدوه فأوقعه في نار وما يخاف الهلاك فيه ، فينبغي أن
 يغلب عليه الأسف والحزن فيفرحه من غاية الجهل . ويقال : من فرح بالذنب فهو كالريض
 الذي يفرح بأن ينكسر إناءه الذي فيه دوائه كراهة أن يستعمله لا يرجى شفاؤه .

الرابع أن يتهاون بمنة الله تعالى عليه في ستره عليه وحمله عنه وإمباله حيث لم يعالجه
 بالمقوبة ويخاف أن يكون ذلك الستر مقتاً من الله تعالى وإمبالاً ليزداد ذنباً فيأخذه
 على غرة .

الخامس إظهار الذنب بأن يفعله مجاهراً ويتحدث به ويفتخر به ، وفي ذلك زيادة
 جرأة وعدم حرمة وإبطال نعمة ، فإن من نعم الله تعالى إظهار الجليل وستر القبيح ، وفيه
 تحريك داعية من علم بذنوبه إلى الوقوع في مثله .

وفي الخبر « كُلُّ النَّاسِ مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرُونَ » وقال بعضهم : لا تذب ، فإن أذنبت
 فلا ترغب غيرك فتكسب ذنبين قال الله تعالى : (الْمُتَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ
 يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ) وقال بعض السلف ما انتهك المؤمن حرمة لأخيه
 أعظم من أن يساعده على معصية الله تعالى .

السادس أن يكون الذنب علماً يقتدى به كما ورد في الحديث « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَبَّحَتْ
 حَمَلُهَا وَزُرْهَا وَوَزُرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً » قال الله تعالى :

(وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ) وآثار العمل ما يبقى بعد العمل .

وقال ابن عباس رحمه الله : وويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق . ويقال العالم مثل السفينة إذا غرقت غرق أهلها .

وروى أن عالما من بني إسرائيل كان على بدعة ثم رجع عنها وعمل في الإصلاح دهرًا ، فأوحى الله تعالى إلى نبي من أنبيائهم ، قل لفلان إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار ؟ وكما يعظم وزر العالم في السيئات كذلك يعظم أجره في الطاعات .

وقد روينا في حديث مسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أَلْقَمَ آءُ أَمْنَاهُ الرُّسُلَ مَا لَمْ يَطْلُبُوا اللَّهَ نِيًّا وَيَتَّبِعُوا السُّلْطَانَ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَأَحْذَرُواهُمْ » . يقال من تاب من ذنب وجاهد نفسه على تركه سبع مرات صرّفه الله تعالى عنه ، ومن تاب من ذنب وتركه سبع سنين أزال الله عنه شبهوته .

وقال الحسن البصري : لو لم يذنب المؤمن لطار في الهواء ، ولكن الله تعالى قعه بالذنوب . وقال أيضا : بين العبد وبين الله حدث من المعاصي إذا باغى طبع الله على قلبه فلم يوفق لخير .

وفي قصة موسى عليه الصلاة والسلام أنه قال للخضر : بم أظلمت الله على ما ظلمت من النيب ؟ قال بترك المعاصي لأجل الله تعالى .

وروى أن سليمان عليه الصلاة والسلام كان يوما يسير على البساط والريح تحمله فنظر ثوبه فأعجبه فوضعه الریح وقالت : إنما أظلمت الله إذ أظلمت الله تعالى . ويقال إن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام : أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك ؟ فقال لا ، قال لقولك لإخوته : (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) لم خفت عليه الذنب ولم ترجى ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟

(وفي رواية) لأنك نحررت جزورا وإلى جانبك أيتام فلم تطعمهم ، فصار يعقوب عليه

الصلاة والسلام بعدُ يأمر مناديا ينادى وقت الغداء والعشاء: من أراد أن يتغدى أو يتعشى
فليذهب إلى آل يعقوب ، ولذلك قيل : من أذنب ذنباً قليلاً بحسنة من نوع ما أفسد
بمعصية . وفي الحديث : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُضَيِّقُ عَايَةَ فِي أَثْبَابِهِ بِذُنُوبِهِ » . و يروى أن من
ظرف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً . ويقال مانسى أحد القرآن إلا بذنب أحدثه .
وقال بعض السلف : ليست اللعنة بسواد في الوجه ، ولا بنقص في المال ، وإنما اللعنة أن
لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو أعظم منه . ويقال : من عقوبة العاصي أن تمقته
قلوب الصالحين . وقال بعضهم : إني لأعرف عقوبة ذنبي حتى في قعر بيتي .

(وحكى) عن أبي عمرو بن علوان وكان من أصحاب الجنيد رحمه الله أنه قال : كنت
بالرقة قائماً أصلى فمرضت لى شهوة الجماع ، ففكرت فيها حتى أمنيت ، فاسود جسدى كله
سواداً فاحشاً ، فاخفيت ثلاثة أيام في البيت وكنت أدخل الحمام وأغسله بالصابون فلا يزداد
إلا سواداً ، ثم زال بعد ثلاثة أيام فبعث إلى الجنيد فأتيت إليه وهو ببغداد فقال لى :
أما استحييت من الله تعالى ؟ عرضت لك شهوة الجماع ففكرت فيها حتى أخرجتك من
بين يدي الله تعالى ، ولولا أنى دعوت الله تعالى لك وتبت عنك للقيت الله عز وجل بذلك
اللون . وقال أبو سليمان الداراني : لا يفوت أحدا صلاة جماعة إلا بذنب . وفي الخبر : « يقول
الله عز وجل : إِنَّ أَدْنَى مَا أَصْنَعُ بِالْعَبْدِ إِذَا آثَرَ شِمَّتَهُ عَلَى طَاعَتِي أَنْ أُحَرِّمَهُ لِدِينِهِ
مُنَاجَاتِي » .

وقال الفضيل : ما أنسكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك أورثتك ذلك .
وفى بعض كتب الله عز وجل المنزلة يقول الله عز وجل : أنا ملك الملوك قلوب الملوك
بيدي ، فمن أطاعني جماعهم عليه رحمة ، ومن عصاني جماعهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا
قلوبكم بسبب الملوك ، واسكن توبوا إلى أعطفهم عليكم . وقال الحسن : إن الله عز وجل
أمر بالطاعة وأعان عليها ، ولم يحمل في تركها عذرا ، ونهى عن المعصية وأغنى عنها ، ولم
يحمل في ركوبها حجة . وفى بعض كتب الله عز وجل : إذا عصاني من يرفنى سلطت

عليه من لا يعرفني . وقال أبو سليمان الداراني : ليس أعمال الخلق التي ترضيه ولا تقضيه ، ولكن رضى على قوم فاستعملهم في أعمال الرضا وغضب على قوم فاستعملهم بأعمال الغضب . وقال علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه : من أراد غنى بلا مال وهيبة بلا سلطان وعزا بلا عشيرة ، فليتيق الله ، فإن الله يأبى أن يذل إلا من عصاه ، وقال أبو سليمان الداراني . لو أتتني المغفرة من الله تعالى لأهني الحياء من الله تعالى فيما فعلت . وقال إبراهيم ابن أدهم : لأن أدخل النار وقد أطعت الله عز وجل أحب إلي من أن أدخل الجنة وقد عصيت الله عز وجل . وقال صالح بن عبد الجليل : ذهب المطيعون بالذيذ العيش في الدنيا والآخرة ، يقول الله عز وجل يوم القيامة : رضيتم بي بدلا من خلقى وآثرتموني على شهواتكم ، فالיום أبشروا بكرامتى ، فوعزتى ما خلقت الجنان إلا من أجلكم .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِبَطْنٍ وَإِذَا فَجَاءَ ذَا يَعُودِ وَجَاءَ ذَا يَعُودِ حَتَّى انْضَجُوا خُبَزَهُمْ » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : من سره أن يسبق العابد المجتهد فليسكن نفسه عن الذنوب ، فإنكم لن تلقوا الله عز وجل بشيء خير لكم من ترك الذنوب .

وقال أبو عاصم الأنطاكي : ترك سيئة واحدة عند الله عز وجل أفضل من ألف حجة نافلة ، وقال حماد بن زيد : إذا أذنب الرجل أصبح ومذلتة في وجهه . وقال يحيى بن معاذ : ابن آدم احذر الشيطان فإنه عتيق وأنت جديد ، وهو فارغ وأنت مشغول ، وهمته واحدة وهي هلاكك ، وأنت مع هم كثيرة ، والشيطان يراك وأنت لا تراه ، وأنت تنساه وهو لا ينساك ، ومن نفسك له عون ، وليس لك من نفسه عون ، فمن غلبه هواه افتضح .

وكان عامر بن عبد الله بن قيس يقول : إلهي خلقت معى عدوى يجرى منى مجرى الدم ، وجعلته يرانى ولا أراه ، وقلت لى استمسك فكيف أستمسك إن لم تمسكنى ، وقال

الشافعي رضي الله تعالى عنه أصابني أمر آلمني ولم يطلع عليه غير الله تعالى، ورأيت في المنام
قائلا بقول: يا محمد بن إدريس، قل: اللهم إني لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا ولا موتا
ولا حياة ولا نشورا، ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني، ولا أتق إلا ما وقيتني، اللهم
وفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية، قال فقلت ذلك ففرج الله سبحانه
وتعالى عني في يوم واحد.



مرکز تحقیقات کتب ویراثه اسلامی

افضل الشان عشر

في التقوى

الحمد لله الذي تفرد بالعرز والجلال ، وتوحد بالسكبرياء والكمال ، وجلّ عن الأشباه والأشكال ، ودل على معرفته فأزال الإشكال ، وأذل من اعتز بغيره غاية الإذلال ، الذي خلق الإنسان من صلصان كالفضار وأنقن تركيب المروق والعظام والأوصال ، وخلق الجان من مارج من نار فتكبر وصال ، فطرده وأبعده وحرمة الوصال ، وتفضل على المطيعين بلذيد الإقبال ، نعمهم في الدنيا بمعرفته وخدمته وأكرمهم في العقبى برؤية وجهه ، فلهم النعيم في الحال والمآل ، وشغل المرضين عنه بحظوظهم العاجلة عن جزيل النوال ، وأملى لهم بإدامة النعم فظنوا الإمهال إهمال ، سهبت قسمته فما يفى الاحتيال ، لا يتوجه عليه حق وقد خاب من وزن أحكامه بميزان الاعتزال (لا يُسألُ عما يفعلُ وهم يُسألون) وكيف يتوجه على المالك القادر سؤال ، بيده ملكوت السموات والأرض ومفاتيح الأقال ، لاراد لأمره ولا معقب لحكمه وهو الخالق الفعال ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن الكبير الفعال ؛ استوى على العرش من غير تكليف ولا تشبيه ولا صعود ولا انتقال ، لا يحويه الفكر ولا يحده الحصر ولا يدركه الوهم والخيال ارتع بفكرتك في رياض صنعته فليس الأفكار في جلال عزته مجال ، ضل أهل التشبيه عن جادة التنزيه فهلكوا في الضلال ، وزل أهل التعطيل في أودية الأباطيل ، فاشتغلوا في الجدال ، وجمع العارفون بين النقل والعقل فسلكوا طريق الاعتدال ، نذل بين يدي مولاك أيها الفقير واقرع الباب بدوام الابتهاال ، فهو الحكيم الرؤوف الرحيم الذي لا تخيب لديه الآمال ، يعلم ما أضمرة العبد من السر وأخفى

حنه مالم يخطر ببال ، ويسمع همس الأصوات وحسن دعس الخطوات في وعس الرمال ، ويرى حركة الدر في جانب البر وما درج في البحر عند تلاطم الأمواج وتراكم الأحوال ، أفلا يستحي العبد الحقير من مبارزة الملك الكبير بقبح الأفعال ، وهو يعلم أنه تحت قهره وناظره في جميع الأحوال ، أو لا يعلم الذي يعظ الناس أنه أحق بالمبادرة إلى صالح الأعمال ، فيا عجباً كيف يقدم على الأبطال بطل أم هل يحمل في الأمثال أمش كحال ، فتبارك من يوفق من شاء لخدمته فشتان ما بين رجال ورجال .

أحده على ما أولى من الأفضال ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نفاذ للملك ولا زوال ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أيدته بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وزينه بأشرف الخصال ، ورفعته إلى المقام الأسنى فكان قاب قوسين أو أدنى ، وخلع الجلال ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة بالقدوس والآصال .

في قول الله عز وجل (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) اتقوا : تحرزوا وتركوا ما نهى الله عنه ، وأحسنوا : أطاعوا وفعلوا ما أمر الله تعالى به .

وفي الصحيح في سؤال جبريل عليه الصلاة والسلام للنبي صلى الله عليه وسلم قال : « يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِحْسَانُ ؟ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ؟ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » والله سبحانه وتعالى مع جميع خلقه بملئه وقدرته ؛ ومعناه أنه عالم بالكل قادر على الكل ، قال تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) وهو سبحانه وتعالى مع المؤمنين بحفظه ونصرته قال تعالى (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ) وقال تعالى (وَاللَّهُ مَعَكُمْ) جمع خواص العارفين بإلهاءهم لذكركه وترويح أسرارهم في نعيم حضرته . قيل لبعض الصالحين عند موته أوصنا قال : عليكم بآخر آية من سورة النحل (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أوصني فقال : « عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا جَمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ وَذِكْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ »

وَأَخْزَنَ لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ» وفي الحديث «أشدُّ الأُتَحَالِ
ثَلَاثٌ: إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ وَمُوَاَسَاةُ الْإِخْوَانِ مِنْ مَالِكَ وَذِكْرُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ
أَحْوَالِكَ» وقال سهل بن عبد الله، اجتمع الخير كله في أربع خصال، وبها صار الأبدال
أبدالاً: الجوع والنهر والصمت والخلوة. ويقال من سهر أربعين ليلة مخلصاً كوشف بشيء
من المللكوت.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام: استمِدْ لِقَائِي، وعليك بمدارع الجوع
فتقضمها، وذا ما الهواجر فتجرعها غصصاً. يا موسى الجوع مفاتيح طاعتي وسبب لوصلة إليّ.
يا موسى جالس أهل الظلم أدم عليك نعمتي، وجالس أهل المجاعة فهم الذين كشفت عنهم
الظلام وأدقهم طعم محبتي: يا موسى الجوع لذة النفوس الخيرة ومصابيح القلوب النيرة.
يا موسى عليك بالصيام فمنعك صاحب، وقم في غسق الدجا إذا رقد كل هاجم. يا موسى
الصوم نور قدفته في قلوب الطيعين، ولباس ألبسته أفئدة الورعين، وهو مفتاح خدمتي،
وأول عبادتي.

مركز تحقيق مكتبة ميرزا محمد حسيني

وقال حاتم الأصم: ثلاثة دواء ثلاثة: قيام الليل دواء لقسوة القلب، والصدقة دواء
لحرص، وأعمال النوافل دواء للمعاصي. وفي الكلمات العشر التي أنزلت على موسى عليه
الصلاة والسلام: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله الملك الجبار العزيز القهار،
لعبده ورسوله موسى بن عمران، سبحانه وقديسي، لا إله إلا أنا فاعبدني ولا تشرك بي شيئاً،
واشكر لي ولوالديك إلى المصير، أحْيِيكَ حياة طيبة، ولا تقتل النفس التي حرم الله عليك،
فتضيق عليك السماء بأقطارها، وتضيق الأرض برُحُبها. ولا تخلف باسمي كاذباً، فإنني
لا أطهر ولا أزكي من لم يعظم اسمي. ولا تشهد بما لا يبي سمعك ولا تحفظ عينك
ويقف عليه قلبك فإنني أوقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة فأبائهم عنها،
ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي ورزقي، فإن الحاسد عدو نعمتي، ساخط لقسمتي،
ولا تزن ولا تسرق فأحجب عنك وجهي، وأغلق دون دعوتك أبواب السموات،

ولا تذبح لغيري فإنه لا يصعد إلى من قربان الأرض إلا ما ذكر عليه اسمي ، ولا تفدرن بحليلة جارك فإنه أكبر مقتا عندي ، وأحب للناس ما تحب لنفسك ، واسكره لهم ما تكره لنفسك . وهذا في القرآن في قوله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفْرُكُمْ عَلَيْكُمْ) الآيات .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لما سار موسى عليه الصلاة والسلام إلى الميقات قال له ربه ما تبغني ؟ قال أبغني الهدى ، قال قد وجدته يا موسى ، قال يارب أي عبادك أحب إليك ؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني ، قال : فأى عبادك أقضي ؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى ، قال : أي عبادك أعلم ؟ قال الذي يتبغى علم الناس إلى علمه ليسمع الكلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : رأى موسى عليه الصلاة والسلام رجلا جالسا في ظل العرش . فقال يارب ما هذا ؟ قال : هذا عبد لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وبر بوالديه ، لا يمشي بالنميمة . قال يارب أي العمل أحب إليك أن أعمل به ؟ قال تذكرني ولا تنساني قال أي عبادك خير عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزني . فرجه ، مؤمن في خلق حسن . قال : وأي عبادك شر عملا ؟ قال فاجر في خلق سيئ ، جيفة بالليل نطال بالنهار .

وشكا بعض المريدين إلى شيخه كثرة النوم فقال : إن الله تعالى نفحات بالليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة ، وتخطيء القلوب النائمة ، فتمرضوا لتلك النفحات فقال له : يا أستاذ تركتني لأنام ليلا ولا نهارا .

وقال ابن مسعود : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليته إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس بفرطون ، وبخزنه إذا الناس يفرحون ، وببكاؤه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يخطلون .

وينبغي لحامل القرآن أن يكون سكيئا ليثا ، ولا ينبغي أن يكون جافيا ولا مماريغا ولا صياحا ولا صخابا ولا حريدا .

وفي وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اغتسم خمساً قبل خمس : شبابتك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياك قبل موتك » وقال ابن عباس « كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا غلام أو يا بني ، ألا أعلمك كلمات يفهمك الله بهن ؟ قلت بلى يا رسول الله ، قال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا دعوت فادع الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فلو اجتمع الخلق جميعاً وأرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا على ذلك . ولو أرادوا أن يضرؤوك بشيء لم يقضه عليك لم يقدروا عليه . واعمل لله بالشكر في اليقين . واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

وفي بعض كتب الله عز وجل « يقول الله : يا ابن آدم إني لم أخلقك لأربح عليك ، وإنما خلقتك لتربح علي ، فاتخذني بدلاً من كل شيء فانا خير لك من كل شيء » .
وقال عيسى عليه الصلاة والسلام لأصحابه : إن كنتم أصحابي وإخواني فوطنوا نفوسكم على العداوة والبغضاء من الناس ، إنما أهلككم لضعفكم لا تعملوا ولا أعلمكم لتعجبوا . إنكم لا تبلغون حاتمؤلاً إلا بصبركم على ما تكرهون ، ولا تنالون ما تريدون إلا بترككم ما تشتهون . إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة ، وكفى بها لصاحبها فتنة ، طوبى لمن كان بصره في قلبه ولم يكن قلبه في بصره .

وقال ابن شبرمة : عجبت لمن يحتج من الطعام والشراب بخافة الداء ، كيف لا يحتج من الذنوب بخافة النار .

ودخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك حين ولي الخلافة فقال له : يا أبا حازم مالنا نسكره الموت ؟ قال لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم ، فإنكم تسكرهون النقلة من العمران إلى الخراب ، قال فأخبرني كيف القدوم على الله عز وجل ؟ قال يا أمير المؤمنين إن الحسن يقدم على الله كالفائب يأتي أهله فرحاً مسروراً ، وأما السيئ فيقدم على الله

كالمعبد الآبى يأتى إلى مولاه خائفا محزوناً ، قال فأى الأعمال أفضل ؟ قال أداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، قال فأى الدعاء أفضل ، قال دعاء الملهوف لمن أحسن إليه ، قال فأى الصدقات أذكى ؟ قال جهد المقل بلا من ولا أذى ، قال فأى الناس أعدل ؟ قال : من يقول كلمة حق عند من يخافه ، قال فأى الناس أعقل ؟ قال من عمل بطاعة الله تعالى وودل الناس عليها ، قال فأى الناس أجهل ؟ قال من باع آخرته بدنياه غيره ؟ قال عظمى وأوجز ، قال نزه ربك وعظمه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك ، فبكى أمير المؤمنين ، فقال رجل من جلسائه : لقد أسأت إلى أمير المؤمنين ، فقال له أبو حازم اسكت : فإن الله أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، ثم خرج فبعث إليه بمال فردّه إليه ، وقال ما أرضاها لكم فكيف آخذها منكم .

وكان عامر بن عبد الله بن قيس يقول : الدنيا أربعة : المال والنساء والطعام والنوم . فأما المال والنساء فلا حاجة لى بهما ، وأما الطعام والنوم فوالله لأصرفنهما ما استطعت ولأجعلنّ الموم هماً واحداً .

وكان أبو الدرداء يقول : لولا ثلاثة ما أحيت البقاء فى الدنيا ساعة واحدة : الظلم بالهواجر ، والسجود فى ظلام الليل ، ومجالسة أقوام ينفقون أطايب الكلام كما تنفقون أطايب التمر . وقيل لبعض المجتهدين : لم تعذب هذا الجسد ؟ فقال إنما أريد كرامته . يادأماً على العصيان ، متى يقال تاب فلان . لا تمنعك كثرة ذنوبك عن التوبة فإن الكريم لا يمتاظمه ذنب . طالما بادرتم إلى المعاصى مستمعين ، فسايقوا إلى الإنابة مخاضين (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) أنور ذنب يتوقد فى سراج يقين الفكر ، وأحسن ما نظم فى ملك الاعتذار خرز الذل .

قال بعضهم لعلامة عند موته : اطرحنى على المذبة لعلى أموت عليها ، فيرى مولاي ذلى فيرحنى . يا من كان له قلب إلى الطاعة فانقلب إلى الإضاعة ، طال هجرنا لنا ، فخلّ بواديننا ، ونادنا مع من بنادينا ، ولا تتخذ غير حبنا ديناً . قيام الأسعار يستوحش لك ،

وصيام النهار يسأل عنك ، وليألى الوصال تعاتبك . أما يؤملك المهجر ؟ أما تشتاق إلى الوصل ؟ فراق الأحباب تلف عاجل ، أعرف الناس بالطريق من قد سلك ، إذا ذكرت منازل مكة يحنّ الحاج . لما ذاق آدم طيب الجنة ولذة المناجاة ثم فقدتها جرت دموعه كالأنهار .

عَوَّدُونِي الْوِصَالَ وَالْوَصْلُ عَذَبٌ وَزَمَوْنِي بِالْمَهْجَرِ وَالْمَهْجَرُ صَنْبٌ
لَا وَحَقَّ الْخُضُوعِ عِنْدَ التَّدَانِي لَيْسَ بِقَوَى عَلَى التَّبَاعُدِ قَلْبٌ
قال آدم عليه الصلاة والسلام : يارب إن أنا تبت وأصلحت أتردني إلى الجنة ، فتقبل
له نعم فسكن قلبه .

وَإِنَّا لَيَرْضَيْنَا رُجُوعُ وَصَائِكُمْ فَرِّدُوا إِنَّمَا ذَاكَ الْوِصَالَ كَمَا كَانَا
وَكَأَنَّ نُعْطَى فِي الدُّنْيَا غَرَامَنَا وَنَسْكُكُمْ مَا نَلَقَى فَبَانَ الَّذِي بَانَا
ودخلوا على كرز بن وبرة فوجدوه يبكي فسألوا عن بكائه ؟ فقال : ماصليت البارحة
وما قرأت وردى ، وما هذا إلا لئلا يذنب أحدتته . يابيح من بلى بالطرد والبعاد ، يا خيبة من
حرم القرب والوداد . لاجل الله حفظنا الحرمان ، ولا منعنا عن حماه بسالف العصيان إنه
غفور رحيم رءوف حلیم منان .

عباد الله هذا شهر رجب شهر الله الأصيب تصيب فيه الرحمة على التائبين وتفيض أنوار
القبول على العالمين ، وهو الفرد من الأشهر الحرم التي عظم الله قدرها بقوله تعالى : (مِنْهَا
أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) ومعنى تأكيد الحرمة فيها أن الحسنات مضاعف أجرها والسيئات فيها عظيم
وزرها ، وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب ، فلك ثلاثة متواليه ، ورجب فرد وحده
وكانوا يسمونه الأصم لأنه لم يكن يسمع فيه حس قتال ويسمونه منصل السنة لذلك ، وكانت
الجاهلية يعظمون حرمة ويكفون عن القتال فيه ويستجاب لهم لدعاء على من ظلمهم فلما
بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى بطن نخل قبل وقعة بدر بشهرين وأخبرهم أنهم
يجدون قافلة لغريش وأمرهم بأخذها وكان ذلك في آخر جمادى الآخرة ، فاستهل عليهم

رجب ولم يعلموا قاتلوا المشركين في أول يوم من رجب وقتل بعضهم وغنموا ما شاء الله ورجعوا إلى المدينة فبعث المشركون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعيرون المسلمين بذلك ويقولون إنكم قد استحللتم القتال في الشهر الحرام ، فأنزل الله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ) أى يسألوكم عن القتال في رجب (قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) يعنى القتال فيه محرم (وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) معناه قل للمشركين صدكم الناس عن سبيل الله (وَكُفِّرْ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ) أى وكفركم بالله والمسجد الحرام ، وإخراجكم أهل الحرم منه بكثرة الأذى أكبر إثمًا عند الله من القتال في رجب ، ثم نسخ تحريم القتال فيها بقوله تعالى (اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) وبقيت حرمة في تضعيف الأجر على الطاعة وكثرة الوزر على المعصية ، ورجب مشتق من الترجيب وهو التعظيم .

وقد روى « أن صوم كل يوم من الأشهر الحرم يعدل صيام ثلاثين يوما من غيرها وصيام يوم من رمضان يعدل صيام ثلاثين يوما من الأشهر الحرم » . وقال بعض العلماء : إذا كانت الجاهلية ينصلون الأسمنة ويكفون عن القتال فكيف لا يحفظ المسلمون فيه الأسمنة ويكفوا عن الأعراض ، فإن اللسان في بعض المواضع أضرم من سيف مجرد ولسان محدد قال سفيان الثوري رحمه الله لأن ترمى إنسانا بسهم أهون من أن ترميه باسنانك فإن السهم قد يخطئه واللسان لا يخطئه . ويقال رجب لترك الجفاء ، وشعبان لعمل الوفاء ، ورمضان للصدق والصفاء . رجب شهر الحرث ، وشعبان شهر سقى الزرع ، ورمضان شهر الحصاد ، فاتجروا رحمكم الله في رجب فإنه موسم التجارة وعمروا أوقانكم فيه فهو أوان العمارة ، فمن كان من التجار فهذه المواسم قد دخلت ، ومن كان مريضا بالأوزار فهذه الأدوية قد حصلت . وروى أن من صام من رجب سبعة أيام غلقت عنه أبواب جهنم ، ومن صام عشرة لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه ، وإن في الجنة قصرا الدنيا فيه كفحص قطاة لا يدخلها إلا صوام . رجب .

وقال وهب بن منبه: جميع أنهار الدنيا تزور زمزم في شهر رجب تعظيماً لهذا الشهر.
قال: وقرأت في بعض كتب الله تعالى أن من استغفر الله تعالى في رجب بالغدو والعشى
يرفع يديه ويقول: اللهم اغفر لي وارحمني وتب علي سبعين مرة لم تمس النار جلده أبداً.
وأفضل ليالي السنة تسع وعشرون ليلة كان السلف الصالحون يحيونها بالعبادة ويرجون
فيها الفضل والزيادة: ليالي العشر الأواخر من رمضان، وليلة سبع عشرة منه في صبيحتها
كانت وقعة بدر، وليالي العشر الأول من ذي الحجة، وليلة عيد الفطر، وليلة عيد النحر،
وأول ليلة من الحرم، وليلة عاشوراء منه، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة
سبع وعشرين منه، فيها أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم، وليلة النصف من شعبان،
وكذلك كانوا يفضلون بعض الأيام ويقبلون فيها على العبادة. وهي عشر ذي الحجة
ويوم عرفة، ويوم عاشوراء ويوم السابع والعشرون من رجب ويوم النصف من شعبان..
وكذلك يوم السابع عشر من رمضان ويوم الجمعة ويوم عيد الفطر ويوم عيد النحر،
وأيام التشريق. ومما كان السلف الصالحون يحافظون عليه صلاة التسبيح التي علمها
النبي صلى الله عليه وسلم للعباس وأخبره أن من صلاها غفر له جميع ذنوبه، وأوصاه أن
يصلها في كل يوم فإن لم يفعل ففي كل جمعة، فإن لم يفعل ففي كل شهر، ذكرها أبو داود:
وغیره، وهو أن يصلي أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة فوق
عشرين آية ثم يسبح بعد القراءة فيقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم خمس عشرة مرة، ثم يركع فيقولها عشراً ثم يرفع
فيقولها عشراً ثم يسجد فيقولها عشراً، ثم يجلس بين السجدة فيقولها عشراً، ثم يسجد
فيقولها عشراً، ثم يجلس للاستراحة فيقولها عشراً، ثم يفعل ذلك في بقية الصلاة. وقال
أبو داود: ليس في صلاة التسبيح أصح من هذا الحديث.

وفي رواية ابن المبارك يسبح قبل القراءة خمسة عشر، وبعدها عشراً، ولا يسبح
في جلوس التشهد ولا الاستراحة، ويذكر أذكار الصلاة المعهودة ولا يمتدّها.

حیطان عمرک قد تہدمت ، فیکیت علی خراب الأجل . لما أحکم الصالحون العلم حکم علیہم
بالعمل ، فقاطعوا الذی یقطع أعمار الأعمار فانقبہوا باللیل والنهار . اللهم إنا إذا أقبلت
سلمت وإذا أعرضت أسلمت ، وإذا وفقت أھمت . وإذا أخذت أبھمت ، اللهم أذهب
ظلمة قلوبنا بنور معرفتك وھداك ، واجعلنا من أقبلت علیہ فأعرض عن سواك ، واغفر لنا
سولوالدینا وجميع المسلمين آمین .



مرکز تحقیقات اسلامی و پژوهشی

الفصل الثالث عشر

في التسمير وذكر شعبان

الحمد لله الغفور الذي ستر بستره وأجل ، الشكور الذي عم ببره وأجزل ، الرحيم الذي أتم إحسانه على المؤمنين وأكمل ، الذي يكفي بحسن تأييده من على كرمه عوّل ، الواحد الأحد القدوس الصمد الأول ، المنفرد بالعز والكمال فلا ينقص عزه ولا يتحول ، الحى العليم القدير السميع البصير المدير الخبير المتكلم بكلام قديم أزلى لا يتغير ولا يتبدل ، صفاته قديمة من شبهها بصفات خلقه فقد أبطل وتقول ، شهدت بصفاته قواطع الأدلة فمن عطل فقد أحل فيما تأول ، جلّ عن الأين والكيف وعزّ عن الظلم والحيف ، فلا يُسأل عما يفعل ، الحكم حكمه والأمر أمره والمالك مالكه فعليه المعوّل ، من وفقه لخدمته وأهله فقد جاد عليه وتطوّل ، ومن أبعد عنه بابه وعذبه بأليم حجابيه فقد عدل في حكمه ولا يلام للمالك ولا يعذل ، من جعل من حزب الرحمن فليس للشيطان عليه سلطان ومن والاه فكيف يعزل ، إن نسي ذكره وأرشده وإن عثر أخذ بيده وأسمده ، وإن ذل أقامه وأيده ، فلا تياس من رحمة ولا تعجل ، لازم بابه فإلى أين تذهب ولا تبرح عنه لسواه فادونه مطلب ، تضرع بين يدي مولاك بقلب مقيد ودمع مرسل ، فسبحان من أقبل بجوده وبره على من رجع إليه وأقبل ، ورأى زلة المسىء وجنح الظلام مسبل ، فعامله برأفته وتجاوز عنه برحمته وأمهّل ، وجعل للقبول والفضل أوقانا ليتدارك للقصر ماضية وأمهّل .

أحمده على ما أنعم وأكرم وتفضل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد خضع لهيبته وتذلل ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أوحى إليه الكتاب

ونزل ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ما غسق ليل أليل ، ووردت القلاص منهلا بعد منهل ، كما نهج به للمتقين طريق الهدى وسهل .

في قول الله تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَنۡ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) .

جعل الله الليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، فمن أخطأ في ليله أو قصر تدارك في نهاره وشمر ، ومن تشاغل في نهاره عن خدمة مولاه ، ففي الليل خلوة لمن ألهمه مولاه وتولاه .

وورد في الآثار أن من فاتته ورده بالليل فصلاه ما بين الضحى والظهر ، فكأنه قد صلاه في وقته . وفي الخبر « يقول الله عز وجل : يا ابن آدم اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أذكفك ما بينهما » فمن أراد أن يشكر ويذكر في اختلاف الليل والنهار عبرة لمن استبصر ، ومن أراد شكورا ففي كل واحد منهما خلف لمن قصر . وكان عبد الله بن عمر إذا فاتته الصلاة في جماعة أحياء تلك الليلة ليجبر ما فاتته ، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى رأى كوكبين فأعتق رقبتين . وفاتت عمر بن الخطاب رحمه الله تعالى صلاة العصر في جماعة فتصدق بأرض له قيمتها مائة ألف درهم .

ويروى أن الله تعالى يقول للملائكة وهو أعلم : ما بال عبادي مجتهدين ؟ فيقولون : إلهنا خوفهم شيئا نخافوه وشوقهم إلى شيء فاشتاقوا إليه ، فيقول الله تعالى فكيف لو رأي عبادي لكانوا أشد اجتهدا .

وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، وهي كانت عندهم أهون من هذا التراب ، كان أحدهم يعيش عمره كله ماله ثوب زائد فيطوى ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا أدركتهم عاملين بكتل الله تعالى وبسنة نبيهم إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم يفتشون وجوههم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك رقابهم ، إذا عملوا حسنة

فرحوا بها وداموا على شكرها وسألوا الله تعالى أن يقبلها ، وإذا عملوا سيئة حزنوا على فعلها وتابوا إلى الله منها وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم ، والله مازالوا كذلك والله ماسلوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة .

ودخل جماعة على عمر بن عبد العزيز في مرض موته يعودونه فإذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال له عمر : يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أصراض وأسقام فقال له عمر سألتك بالله إلا ما صدقتني ، فقال : يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة فصغرت زهرتها وحلاوتها في عيني فسكّاني أنظر إلى عرش ربي بارزا والناس يسافرون إلى الجنة أو النار فأظلمات لذلك نهاري ، وأسهرت له ليلي ، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله تعالى أو عقابه : وكان علقمة بن قيس كثير الاجتهاد فقيل له كم تعذب نفسك ؟ فقال إنما أريد كرامتها .

وفي الحديث « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَاسْتَوَى النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ نَادَى مُنَادٌ لِيَعْلَمَ أَهْلُ الْمَوْقِفِ مَنْ أَوْلَى بِالْكَرَمِ لِيَقُومَ الْمُتَّقُونَ ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) » وفي بعض كتب الله المنزلة : يا ابن آدم لو رأيت بقلبك ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت من حبلك ، وإنما يلقياك غدا ندمك إذا زل بك قدمك ، فلا أنت إلى الدنيا عائد ولا في عملك زائد .

وقيل لبعض الصالحين : في أي وقت تصلي وردك ؟ فقال ما ظفنت أن عبدا يسمع بالجنة أو النار تمضي عليه ساعة لا يصلي فيها .

وقال بعض الصالحين : تقيت رجلا في البرية فقلت من أين أتيت ؟ فقال من عند أقوام لانام بهم تجارة ولا يبيع عن ذكر الله ، قات إلى أين تريد ؟ قال إلى قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع ملأوا صراكب القلوب متاعا لا تصلح إلا للهالك ، فلما هبت عليهم رياح الدجا سارت تلك المراكب ، أترى في أي شعب أخذوا ، أترى في أي طريق

سلكوا ، قنعوا من الدنيا بالبر والبرد ، قطعوا بادية الهوى بأقدام الجدد ، ما كان إلا قليل حتى قدموا من السفر ، فاعتنقهم الراحة ودخلوا بلاد الوصل ، هان عليهم طول الطريق لعلمهم أين المقصد ، فيا بشرام يوم يلقاهم (هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) .

سئل ذو النون المصري عن حملة القرآن فقال هم الذين مطرت عليهم سحائب الأشجان ، ونصبوا الركب والأبدان وتسربلوا بالخوف والأحزان ، وشربوا بكأس اليقين وراضوا نفوسهم رياضة المتقين ، كحلوا أبصارهم بالسهر وغضوها عن النظر ، وألزموها العبر وأشعروها الفكر فقاموا ليلهم أرقا وتبادرت دموعهم فراقا حتى ضئبت منهم الأبدان وتغيرت منهم الألوان ، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة وشفاه ذابلة ودموع وابللة وزفرات قاتلة فخال بينهم وبين نعيم المتنعمين ، وشغلهم عن مطامع الراغبين ، ففاضت عبراتهم من وعيده ، وشابت ذواتهم من تحذيره فكان زفير النار تحت أقدامهم وكان الوعيد نصب قلوبهم ، جعلوا التراب للجباه وسادة وللركب مهادا ، وجعلوا القرآن صراطهم المستقيم فكان بهم إلى الخيرات داعيا ، وإلى النجاة دليلا هاديا (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) اسمع صفة القوم بأسير الغفلة والنوم :

كان أيوب السخيتاني يحبي الليل كله ، فإذا كان وقت السحر رفع صوته كأنه قد قام ذلك الوقت من النوم .

ومكث إبراهيم الخيمي عشرين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء ، وكانت رابعة تحبي الليل كله . ذهب السادة وبقى قرناء الوسادة ، واشوقاه إلى تلك الأرواح سلام الله على تلك الأشباح .

وكان سري السقطي يقوم أول الليل إلى وقت السحر ، ثم يجلس فيبكي حتى يطلع الفجر . كانوا مع الطاعات يبنكون ، وأنتم مع التفريط تضحكون ، هان عليهم والله السفر لما علموا أن للملك يراهم ويسمع أصواتهم . قال الله تعالى : (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) أول غفلة في مهر الجنة الظمأ والتلذذ بالبلاء . وكان حسان بن أبي سفيان كأنه سوط . وكان

إبراهيم بن آدم كأنه سفود ، وكانت راحة كائنها شت بال ، وكان سرى قد ببس جلده على عظمه .

جَزَى اللهُ الْمَسِيرَ إِلَيْهِ خَيْرًا وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَايَا كَالْمُرَادِ .

وكان داود الطائي ينادى فى الليل : إلهى همك عطل على الهموم ، وحال بينى وبين الرقاد ، وشوقى إلى لقائك حال بينى وبين اللذات ، وأنا فى سجنك يا كريم .

وقيل لمبى عليه الصلاة والسلام : من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ فقال : هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، وإلى آجلها حين نظر الناس إلى عاجلها ، وأماتوا منها ما يخافون أن يميتهم ، وتركوا منها ما علموا أنه سيمتركهم ، فصار استكثارهم منها استقلالاً ، وطلبهم لما أدركوا منها قوتاً ، وفرحهم بما أصابوا منها حزناً تخلقت الدنيا عندهم فلا يجدونها ، وتخربت فلا يعمرونها ، وماتت فى قلوبهم فلا يحيونها ، يخربونها ويبنون بها آخرتهم ، ويبيعون دنياهم ويشترى بها مابقى لهم ، رفضوها وكانوا برفضها فرحين ، ونظروا إلى أهلها غرقى وقد خلت من قبلهم المثالات ، أحبوا ذكر المات ، وأماتوا ذكر الحياة الدنيا ، يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره ، لم خبر عجيب وعندهم أعجب الخبر بهم ، قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، لا يرون دون ما يرجون ، ولا خوفاً دون ما يحذرون ، أولئك أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وقال بعض الصالحين : سمعت فى جنح الليل صوتاً حزيناً على ساحل البحر فقلت إلهى ، فإذا هو رجل واقف يقول : يا قرّة عيني ويا سرور قلبي ، ما الذى أسقطنى من عينك ، فطوى لقلوب ملائمتها من خشيتك ، واستولت عليها محبتك ، نخشيتك مانعة لها من ولوج كل مقصد ، خوفاً من حلول سخطك ، ومحبتك قاطعة لها عن سبيل كل شهوة غير ذكرك ، صدق القوم فى الطلب فجاءت المعونة ، وقهروا نفوسهم فباتت مسجونة ، وزرعوا حب التقى

وقاموا بسقونه، فوجدوا لذة مولاهم فاطموا دونه، إنهم لا يشتهون، كما تشتهون، ولكن
بقيت نومة (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ).

عَلَّلَ سِقَامًا بِجِسْمٍ أَنْتَ مُثَلِّفُهُ أَبْرَدَ غَرَامًا بِقَلْبٍ أَنْتَ مُضَرِّمُهُ
وَلَا تَسْكِلْنِي إِلَى بُعْدِ الدِّيَارِ إِلَى صَبْرِ الضَّعِيفِ فَصَبْرِي أَنْتَ تَعْلَمُهُ
تَلَقَّى قَلْبِي فَقَدْ أَرْسَلْتَهُ قَدْ مَا إِلَى لِقَائِكَ وَالْأَشْوَاقُ تَقْدُمُهُ

وقال أبو جعفر الصغار: نهت في البادية أياما فعطشت وضعفت . فرأيت رجلا واقفا
شاخصا فاتحا فاه . فقلت ماهذه الوقفة ؟ فقال مالك والدخول بين الموالى والعبيد ، ثم أشار
بيده نحو الطريق فشيت نحو إشارة قليلا ، وإذا أنا برغيفين ولحم حار وكوز ماء بارد،
فأكلت وشربت ثم رجعت إليه . فقلت له ما التصرف ؟ فتبسّم ثم قال : لائح لاح فاصطم
واستباح ، إذا ألقفهم الخوف ناحوا ، وإذا أزعجهم الوجد صاحوا ، وإذا أدهشهم الحب
ساحوا ، وإذا غلبهم الوجد باحوا .

وَحَرَمَةِ الْوُدِّ مَالِي عَنْكُمْ عَوَضٌ وَلَيْسَ لِي فِي سِوَى أَقْبَاكُمْ غَرَضُ
وَمِنْ جُنُونِي بِكُمْ قَالُوا بِدِ مَرَضُ فَقُلْتُ لَا زَالَ عَنِّي ذَلِكَ الْمَرَضُ

ورؤى بعض الرجال واقفا في الهواء ، فقيل له : بم نلت هذه المنزلة ؟ قال لأنى وضعت
هواى تحت قدمى فسخر الله لى الهواء .

وقال إبراهيم بن آدم : كنت سائرا نحو بيت المقدس فلقيت سبعة رجال فسدت
عليهم ، وقلت أفيدونى شيئا يفقهنى الله تعالى به ، فقالوا انظر كل قاطع يقطعك عن الله
فاقطعه عنك ، قلت زيدونى رحمكم الله ، قالوا لا ترج غير الله تعالى ، ولا تحف أحدا سوى
الله ، قلت زيدونى رحمكم الله ، قالوا انظر كل ما يحبه الله تعالى فأحبهه ، وكل ما يبغضه الله
تعالى فأبغضه ، قلت زيدونى رحمكم الله تعالى ، قالوا عليك بالدعاء والتضرع والبكاء فى
الخلوات والتواضع والخشوع والرحمة للمؤمنين والنصح لهم ، فقلت زيدونى رحمكم الله
سالى ، فقالوا قل اللهم حل بيننا وبينه فقد شغلنا عنك فنظرت فلم أرحم نعمنا الله بهم ، بامن

قطع الليل بالنوم والنهار بالفضول ، متى تلحق السابقين ، هم القوم في مرضاة المولى ، وهمتك في موافقة الهوى (إِنْ سَمِعْتُمْ كَشَقَى) كانت الصلوات للقوم خلوات ، وهى عند الغافلين مصادرات . وقف أبو يزيد البسطامى ليلة إلى الصباح لا يستطيع أن يذكر الله بلسانه لما غلب عليه من الهيبة والإجلال :

وَمَا تَذَكَّرْتُمْ إِلَّا نَسِيتُمْ نِسْيَانَ إِجْلَالِ لَا نِسْيَانَ إِهْمَالِ
إِذَا تَذَكَّرْتُمْ مَنْ أَنْتُمْ وَكَيْفَ أَنَا أَجَلْتُمْ ذِكْرَكُمْ يَا بَنِي عَلَى بَالِي

استيقظ القوم ونمنا ، وجدوا وتخلفنا ، ونالوا المنى وحرمتنا . يامن يقول إذا شئت تبت اليوم ، عهدكم فآين الموعد ، هيهات ما اليوم عهدكم غدا ، اجعل سهرتك فى الدجا شفيعة فى ذلك ، اكتب بأقلام ذكر المات ، على صفحات لوح الوجفات ، بمداد العبرات ، بأنامل ترك الحرمات ، وارفع قصتك إلى عالم الخفيات ، وقف على أقدام حسن الظن به فى جميع الحالات . يافارغ البيت من القوت ، هذه أيام الالتقاط . يامهجور ركعتان بعد النوم خير لك من ألف تجارة . متى تجد ربيع يوسف يامسجون ، يامعشر التائبين أوفوا بالعقود ، وانظروا لمن عاهدتم (وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) يامقهورا بغلبة النفس صل عليها بسوط العزيمة ، ومنعها من شهواتها المباحة عسى أن يقع الاصطلاح على ترك الحرام ، إن مالت إلى الشهوات فألجها بلجام التقوى ، وإن أعرضت عن الطاعات فسقمها بسوط الجاهدة ، والله مالم تجد صرارة الدواء لا تجد ذرة من العافية ، النفس مثل كلب الشوى إذا شبع نام ، وإذا جاع بصيص^(١) ياهذا بدل اهتمامك لك باهتمامك بك ، تظلم إلى ربك منك واستنصر خالقك عليك . يأمر بالجد بالجد وأنت على الضد :

تَعَصَى الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهْ هَذَا لَمَرِّى فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَا طَعْنَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ إِنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

(١) بصيص الكلب لصاحبه : بمعنى تملق .

عباد الله إنكم في شهر بركاته مشهورة ، وخيراته موفورة ، والتوبة فيه من أعظم
الغنائم الصالحة ، والطاعة فيه من أكبر المتاجر الربحية ، وهو شهر شعبان الذي جعله الله
تعالى مضمارا لرمضان ، وضمن الله تعالى فيه للتائبين الأمان ، من عود نفسه فيه الاجتهاد
فاز في رمضان بحسن الاعتقاد .

ورد في الصحيح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصوم شعبان ولا يفطر
منه إلا قليلا » في ليلة نصفه يقسم الله تعالى الآجال للعباد ، ويحكم فيها بالقرب والبعاد .
وقال « يكتب في ليلة النصف من شعبان اسم من يولد ومن يموت ومن يقف بمعرفة في تلك
السنة ، وإن الرجل ليتزوج ويبنى البنين وقد خرج اسمه في ديوان الموتى » وقال « ما من
مسلم يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه إلا أن يكون من الظلمة أو الجاهرين بالمعاصي » . وقال
أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : إذا كانت ليلة النصف من شعبان فتمتحت أبواب السموات
النسب ، ووقف على كل باب ملائكة يستغفرون المسلمين ، فيغفر لكل مسلم إلا من كان
معصيا على كبيرة .

وكان السائف الصالحون يصلون فيها مائة ركعة يقرءون في كل ركعة مع الفاتحة سورة
الإخلاص عشر مرات .

قال الحسن : حدثني ثلاثون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من صلى
هذه الصلاة نظر الله تعالى إليه سبعين نظرة ، وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة .
وقالت عائشة رضي الله عنها : « كانت ليلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل الفراش
حتى نمت ثم استيقظت فلم أجده . فقامت فوجدته يصلي تخففت القيام ، ثم ركع وسجد
فطوّل سجوده إلى نصف الليل ثم قام إلى الثانية كذلك ، ثم ركع وسجد في الثالثة حتى
كاد الفجر أن يطلع ، فظننت أنه قد قبض ، فوضعت يدي على قدميه فتحرك ، فحمدت الله
تعالى فسمعته يقول : « سَجَدَ لَكَ سَوَادِي ، وَأَمَّنَ بِكَ قَوَادِي . هَذِهِ يَدِي الَّتِي جَنَيْتُ
بِهَا عَلَى نَفْسِي فَأَغْفِرْ لِي الذَّنْبَ الْعَظِيمَ ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ إِلَّا الرَّبُّ الْعَظِيمُ .

أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ مَخْطِئِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَبِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ .

فلما فرغ من صلاته قال: «أتدرين أي ليلة هذه؟ هذه ليلة النصف من شعبان، إن الله تعالى يغفر في هذه الليلة للمؤمنين إلا ليدمن خمر أو مهيير على الزنا أو الربا، أو عاق لوالديه أو مصور أو فتان». هذا سيد الأولين والآخرين، وحبيب رب العالمين، يتدخل بين يدي مولاه هذا التدخل، ويتوسل إليه بكرمه هذا التوسل، مع علمه بعظيم منزلته، ورفع درجته، فكيف بمن عاقبته بجهولة، ولا يدري أن أعماله مردودة أو مقبولة. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له» ويقال: من لم يتب وهو خائف فليس بعارف.

مَنْ لَمْ يَتَّبِ وَالْتَبِئْ يَقْرَعْ قَلْبَهُ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تَفَتَّتُ الْأَكْبَادُ

قال بعضهم: رأيت فتحا الموصلي يوما يبكي فإذا دموعه قد مازجها الدم، فقلت بالله عليك. يافتح على ماذا بكيت الدم؟ فقال: لولا أنك خلقتني ما أخبرتك، بكيت الدموع على تخلفي عن واجب حق الله تعالى، وبكيت الدم خوفا على الدموع أن لا تكون صحت لي، قال فلما مات رأيت في المنام فقلت له ما فعل الله بك؟ قال غفر لي، قلت ماصنع بدموعك؟ قال قربني زلفي عز وجل، وقال لي يافتح بكيت الدموع على ماذا؟ قلت بارب عن تخلفي عن واجب حقك، قال فالدم على ماذا؟ قلت على الدموع أن لا تكون صحت لي، فقال: يافتح ما أردت بهذا كله؟ وعزتي وجلالي لقد صعد إلى حافضك أربعين سنة بصحيفة منك ما فيها خطيئة قط. إلهي سائلك ببابك فتعطف عليه مع أحبائك. إلهي فقيرك ببابك فأجره من هذا بك، إلهي عبدك الضعيف ببابك فلا تدقه أليم حجابك إلهي قد أمرتنا بالتجاوز عن السيئ فتجاوز عن إساءتنا بجميل كرمك، ولا تقطع عنا عوائد نعمك.

إِلَيْكَ جِئْنَا وَأَنْتَ بِنَا وَلَيْسَ شَيْءٌ سِوَاكَ يُغْنِينَا
بَابُكَ رَحْبٌ فَنَاوَهُ كَرَمٌ تَوَاوَى إِلَى بَابِكَ الْمَسَاكِينَا

ماضرتنا من ردنا إن أنت قبلتنا، ولا نبالي بمن سخطنا إن أنت رضيتنا، إليك توجهنا
وببابك نزلنا، وبحماك أنحننا، ولعمروفك تعرضنا .

شَادَ الْمُلُوكُ بِنَاءَهُمْ وَتَحَصَّنُوا مِنْ كُلِّ طَالِبٍ حَاجَةٍ أَوْ رَاغِبٍ
عَجَبًا لِمُسْكِينٍ تَذَلَّلَ سَائِلًا لِسِوَى الْإِلَهِ وَطَالِبٍ مِنْ طَالِبٍ
مَالِي سِوَاكَ وَإِنْ أَضَرَّ بِيَ الْأَسَا فَبَابِ جُودِكَ قَدْ حَطَّطْتُ رُكَائِي
وَلَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالسَّرَائِرِ وَالَّذِي أَخْفَيْدُ فَاتَّحِ لِي بِنَيْلِ رَغَائِي

عن بابك لا نبرح لأننا بفيرك ما نفرح ، لا بد لنا منك ، ولا صبر لنا عنك :

حَلَى بَعْدِكَ لَا يَصْبِرُ مَنْ عَادَتْهُ الْقُرْبُ
وَلَا يَقْوَى عَلَى هَجْرِكَ مَنْ أَسْقَمَهُ الْحُبُّ
إِذَا مَا كُنْتُ لِي مَوْتِي حَلَالِي وَاللَّوْمُ وَالْعُتْبُ
وَإِنْ لَمْ تَرَكَ الْعَيْنُ فَقَدْ شَاهَدَكَ الْقَلْبُ

اللهم يا من فتح الباب للطالبيين ، وأظهر غناه للراغبين ، وأطلق للسؤال أسنة القاصدين ،
وقال في كتابه المبين : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَكُونَ بِرُّونَ عَنِ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) اجعلنا من أوليائك المتقين ، وحزبك المفاجين ، وآمننا من
الفرع الأكبر يوم الدين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الرابع عشر

في التقديم وقدم رمضان

الحمد لله الذي وفق العاملين لطاعته فوجدوا سعيهم مشكورا ، وحقق آمال الآملين برحمته فمدحهم عطاء موفورا ، وبسط بساط كرمه للتائبين فأصبح وزرهم مغفورا ، وأسبل من نعمه على الطالبين وابلا غزيرا ، ولم تزل أبواب جوده للراغبين مفتوحة ، الواحد الذي من قصد غيره ضل ، العزيز الذي من اعتز بغيره ذل ، الكبير الذي من نازعه في كبريائه قُصِمَ وأذل ، العظيم الذي تفرد بصفات الكمال وتعالى وجل ، الأفكار عن إدراك كبريائه ممنوعة ، والخيرات من عطائه ممنوحة ، الذي يعطي الفضل الجزيل على العمل القليل ، ويفعل بفضله الذنب الوبيل بالستر الجميل ، ويغفر الوزر الثقيل فيقبل ويقبل ، ويرى الخاضع الذليل في الليل الطويل ، ويسمع أنين المذنبين بالقلوب الحزينة إذا وقف المجتهدون في جنح الظلام وتلذذوا بأطيب الكلام وبسط القائب لنفسه بساط العتب والملام وبكى على تفريطه فخرم لتذيق المنام ، ألحقه بالحسين وغفر له الأفعال القبيحة ، مولى وفق الصالحين لخدمته وأثنى وبدأ الحسين برحمته وثنى^(١) وأطلع على جرائمنا فلم يقطع فضله عنا ، وجاد ببره وكرمه على ما كان مثا . فسبحانه من كريم أضحت رحالنا بيباب كرمه مطروحة الذي عم جميع بريته برحمته وعطائه وخص أهل مودته بمعرفته وولائه وروح أسرارهم على بساط مناجاته بحسن ثنائه وفتح أسرارهم في ميدان معاني أسمائه فعاشوا ورتعوا في رياض فسيحة ، دعاهم فأجابوا وولاهم فأنابوا ووعدهم فما ارتابوا وأحضرهم فما غابوا ، وشاهدوا الإله فصدورهم بالإيمان مشروحة ابتهجت سرأثرهم بذكره ولهجت ألسنتهم بشكره وشغلت جلتهم

(١) يعني رحمهم مرة ثم أخرى .

بنبيه وأمره ووجلت قلوبهم من وعيده ومكره فسكنت الجوارح وقصرت الألسن النصيحة،
فأخلوات مع الله أنسهم وميدانهم والمفاجأة روائعهم وريحانهم ، وذكر الله نزهتهم
وبستانهم وتلاوة القرآن نعيمهم وسلوانهم ولهم في الاشتغال به عن جميع الأشغال
مندوحة . من أقبل على مولاه كفاه، ومن استعطبه لدائه شفاه ومن رضي به شغل بذكره قلبه
وفاه ومن أبعده قطعه عن بابه ونفاه، لا يتجمل بطاعة العاملين ولا يتزين بذكر الذاكرين
ولا يبرمه إلحاح السائلين ، ولا ينقص ملكه إعراض الغافلين (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) .

أحمد على ما ألهم من حمده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في عزه
ومجده، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي سبى نفسه بما أولاه من وده فقال جل وعلا:
(سُبْحَانَ الَّذِي أَمْرِي بِعَبْدِهِ) صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أخلصوا الله
ومحضوا النصيحة .

في قول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ
إِغْدَى) الآيات .

اتقوا الله أي خافوه وأطيعوه واخشوه وراقبوه فإنه خير بالبوطن والظواهر علم
بما تكفه الضمائر، وانظروا لنفوسكم أجل النظر وكونوا من مكر الله تعالى على حذر، ولا
تكونوا كالذين تركوا أمر الله ونسوا ذكر الله فأناسهم النظر في مصالح نفوسهم حتى باعوا
حظهم من ربهم بشهوات زائلة ورضوا من النعيم الباقي بغرور العاجلة والسعداء تأهبوا للمعادم
وأخذوا في تحصيل زادهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السكيس من دَانَ نَفْسُهُ
وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَلِلْعَاجِزِ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي » .

قيل: شيع يحيى بن زكريا ليلة فنام عن ورده فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى هل وجدت دار
الدنيا خيرا من داري ، هل وجدت جوارا خيرا من جوارى ؟ وعزتي وجلالي لو اطلعت
على الفردوس اطلاعة لذاب جسمك ولزهرت نفسك اشتياقا ، ولو اطلعت على جهنم اطلاعة

لذاب جسمك ولبيكت الصديد بعد الدموع وللبست الحديد بعد المسوح . ولما تعبد
هبة الغلام كان لا يتهنا بطعام ولا شراب ، فقالت له أمه يا بني ارفق بنفسك فقال :
الرفق أطلب ، دعيني أتعب قليلا وأنعم طويلا .

وقال ثابت البناني : أدركت رجالا كان أحدهم يصلي حتى يأتي فراشه حبوا .
وكان صفوان بن سليم قد بلغ به الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدا لم يرد عليه مزيد ،
وكان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي ، ومات وهو ساجد رحمه الله تعالى .
وأصاب عبد الرحمن بن الأسود وجع في إحدى رجليه فكان يقوم الليل على قدم
واحدة ، ويصلي بوضوء العشاء الصبح . يامن همته همة النساء ، بهجه ثوب ومطعم أين
علامات الرجولية ، تضيع مفك حبة فتبكي ، وقد ضاع عمرك وأنت تضحك ، تستوفي
مكيال هواك ، وتنقص مكيال صلاتك (وَيْلٌ الْمُطَفِّينَ) لك خمسون سنة وأنت
في مكتب التعليم ، وما تعديت أبجد ، وغدا توبخ عند عرض الألواح (أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ
مَا يَتَذَكَّرُ فَيَدْرَأَ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ) يا مجنون ، إما مارستان العزلة وقيد الحمية
وسلاسل التقوى ومرافقة الأبرار ، وإما مرافقة إبليس في مارستان جهنم ، يا هذا قلبك
عذب ، ونفسك ملح أجاج ، فاجعل التقوى برزخا بين البحرين ، لو عرفت قدر ما أعطيت
حالتيك جوهرة قلبك في مزابل الهوى ، إنما خلقت الأكوان لأجلك ، الدنيا تزرع فيها ،
والآخرة لتتوطن ، والملائكة أسجدتهم لأبيك ، أتري تعرف قدر (أَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)
أو قيمة (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) أو مرتبة « وأنا إلى لقاءهم أشد شوقا » ، إذا صعدت الملائكة
عن مجلس الذكر يسألهم الله عز وجل وهو أعلم فيقول من أين جئتم ؟ فيقولون من عند
عبادك يسبحونك ويقدسونك ويمجدونك ، فيقول سبحانه وتعالى :
أشهدكم أني أعطيتهم ما يطلبون ، وأمنتهم مما يخافون .

يامن بسائل عن القادمين إذا ما كنت لي مولى فكيف أنا ، سكن الخوف في قلوب
القوم فأذا بها ، وكم ناحل بين تلك الخيام يحسبه بعض أطناها .

كان وهيب بن الورد قد نحل من العبادة حتى كانت خضرة البقل ترى من جلدة بطنه . ومات يوسف بن أسباط ولم ير على عظمه سوى الجلد .

وَحَيَالُ جِسْمِهِ لَمْ يُخَلِّ لَهُ الْهُوَى لَحْمًا فَيُنْجِلُهُ السَّقَامُ وَلَا دَمًا
وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يصفر ويخضر ويقول : دع نفسك تبكي من شدة الرياضة فتستريح عند صحبة الملوك .

قال أبو يزيد : سقت نفسي إلى الله عز وجل وهي تبكي ، حتى انساقت وهي تضعك قد مال بها الهوى عن المسلك ، فقصوا بها على الجادة فإنها تعرف المنزل .
وعَلَّوْهَا بِحَدِيثِ جَابِرٍ (١) وَلِتَصْنَعَ الْفَلَاةُ مَا بَدَأَ لَهَا .

(١) عللوها بحديث جابر : بمعنى بشروها .
ولعله يقصد هنا - والله أعلم - الحديث الذي يقول :
مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام . فقال : يا جابر : إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه ، وحل عنه عقده فإنه مجلس ومشيول ففعلت به الذي أمرني . فلما فرغت قلت يرحمك الله ، هم يسأل ابنك ؟ قال يسأل عن الميثاق الذي أقربه في صلب آدم عليه السلام . قلت يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقربه في صلب آدم ؟
قال حدثني ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، وأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ . فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يوف به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة .

(تفسير الطبري الجزء التاسع - سورة الأعراف ص ١١٢ طبعة مصطفى الحلبي الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م) .

ويؤخذ من هذا أن نفس سيدي أبي يزيد حينما سيقنت إلى ربه تساءلت فقال عللوها بحديث جابر وبشروها ، لأنها لبت نداء ربه يوم (ألسن بربكم) وكوشفت منه بالحقائق النورانية .

معنى آخر : حديث جابر يقول «خلق نور نبيلك من نوره يا جابر» ويقول أيضا : «أنا نور =

مجلس الذكر كليلة ترائى الهلال فالصالحون فرأوا هلال الهدى وهم يشيرون إلى همش المعاصى ليرووه القوم ، إذا جنهم الليل خلا الفكر بالقلب فى بيت الوحدة ، فخرت أوصاف الحبيب فنطق قلق الشوق ، فضربت بطون الرواحل ، لسير السهر ، فلا نوم يأخذ القوم ، دوما على الحمية ، فإذا ذابت الأبدان ، تجلت لها العافية . إياكم والتخليط فإنه سبب للمرض ، لا يصعب على الخليل تضميرها تستريح يوم السباق .

تَرُومُ وَصَالًا مِنْ سُلَيْمَى وَلَمْ تَجِدْ بِنَفْسٍ مَتَى نَالَ الْوِصَالُ بِخَيْلٍ
من ركب مركب المجاهدة حط بساحل المشاهدة (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ لِلْأَحْسَنِينَ) ومن ركب مركب الصبر حط بساحل الأجر (إِنَّمَا يُوفَّى
الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) ومن ركب مركب الفنا نال مراتب المنى (فَلَا تَعْلَمُ
نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : عاد نفسك فليس لى
فى الملكة منازع غيرها .

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى صَاحِبٍ إِنْ
أَنْتُمْ أَجَعْتُمُوهُ وَأَهْنَأْتُمُوهُ أَكْرَمَكُمْ ، وَإِنْ أَنْتُمْ أَكْرَمْتُمُوهُ أَفْضَى بِكُمْ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ ؟
قَالُوا وَاللَّهِ بَارِسُوهَ اللَّهُ إِنْ هَذَا لَشَرُّ صَاحِبٍ . فَقَالَ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّهَا لَنَفْسُكُمْ
الَّتِى بَيْنَ جُنُوبِكُمْ » .

وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : سائر أعمال البر فى جنب الأمر بالمعروف
والنهى عن المنكر كتفلة فى جنب البحر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى جنب
الجهاد فى سبيل الله كتفلة فى جنب البحر . والجهاد فى جنب مجاهدة النفس عن هواها
كتفلة فى جنب البحر .

= من الله والمؤمنون من نورى ، ونفس أبى يزيد البسطامى نفس مطمئنة راضية فكأنه يقول
عللوها بحديث جابر أى بشروها وطمئنتوها لأن لها علاقة بنورانية رسول الله ، وما دام
ذلك ، فهى فى مأمن من الخوف .

وقال إبراهيم بن آدم: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يحوز ست عقبات: يفلق باب النعمة ويفتح باب الشدة، ويفلق باب العز ويفتح باب الذل، ويفلق باب الراحة ويفتح باب الجهاد، ويفلق باب النوم ويفتح باب السهر، ويفلق باب الغنى ويفتح باب الفقر، ويفلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت. وقال أبو حفص: من صبر على المجاهدة قليلا فتح الله عليه برؤية المنة، وملا قلبه بحلاوة الطاعة، فسهل الله عليه ما كان عسيرا. وقال مالك بن دينار: جاهدوا أنفسكم كما تجاهدون أعداءكم. وكان الحسن يقول: المداومة عباد الله المداومة، فإن الله تعالى لم يجعل لعمل أجلا دون الموت. ورؤي حماد بن سلمة في النوم فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال خيرا قال لي: طالما كددت نفسك فالיום أطيل راحتك وراحة المتعبين في الدنيا بنح بنح ما أعددت.

وكانت أم محمد بن كعب تقول له: يا بني لولا أني أعرفك صغيرا طيبا لظننت أنك أحدثت ذنبا موبقا لما أراك تصنع بنفسك بالليل والنهار. فقال يأأما وما يؤمنني أن يكون قد اطلع الله علي وأنا في بعض ذنوبي ففتني، وقال اذهب فلا غفرت لك، مع أن عجائب القرآن لتردني عن أموري حتى أنه لينقضي الليل ولم أفرغ من حاجتي. ويقال: من كرمته عليه نفسه هان عليه دينه.

وقال النصر اباذي: سجنك نفسك إن خرجت منها وقعت في راحة الأبد. وقال ابن عباس: إن الله تعالى قد أخبر أن طريق الجنة لا تقطع إلا بمكابدة فقال تعالى (كُتِبَ لَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَلَدَسَمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تُصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وقال تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) قال الحسن: يكابد أمر الدنيا والآخرة. وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: الدنيا والآخرة كضرتين إن رضيت إحداها أسخطت الأخرى.

وقال عون بن عبد الله: الدنيا والآخرة ككفتي الميزان بمقدار ما ترجح إحداها تخف الأخرى.

وقال ابن السماك من أذاقته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرّعته الأخرى صرارها بصعافها عنه .

وقال أبو مالك لأبي أيوب : احذر نفسك فإن رأيت هموم المؤمنين في الدنيا لا تنقضي وأيم الله لن لم تأت الآخرة المؤمنين بالسرور لقد اجتمعت عليهم هموم الدنيا والآخرة قال فقلت كيف لآثائهم الآخرة بالسرور وهو بعمل الله في الدنيا ويدأب ؟ قال فكيف بالقبول وكيف بالسلامة ؟ كم من رجل يرى أنه قد أصلح شأنه يجمع عمله يوم القيامة كله فيضرب به وجهه .

وقال وهب بن منبه : مكعوب في التوراة شوقنا كم فلم تشاقوا ، وخوفنا كم فلم تخافوا ، ونحنا لكم فلم تبكوا ، وإن لله كل يوم مناديا ينادي : أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده ، أبناء الخمسين هلموا إلى الحساب ، أبناء الستين ماذا قدمتم وماذا أخرتم لا عذر لكم ، أبناء السبعين عدوا نفوسكم في الموتى ، ليت الخلق لم يخلقوا ، فإذا خلقوا علموا لماذا خلقوا ، ألا أنتم الساعة ، ألا خذوا حذركم .

يا هذا : تفكر لماذا خلقت ؟ فمن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، النفس لانكاد توافقت طوعا نخذ آلة الحرب ، فالكيس من دان نفسه ، إن أحست منك بمساحة طمعت ، ولا تنزع رداء الهيبة عن رأس رياستك ولا ترفع عصاك عن أهلِكَ ، فإن خويت عليك فاستعن بخالقها ، استعينوا على كل صنعة بصالح من أهلها ، فإن أذعنت فارفق بها فإن هذا الدين متين .

كَيْفَ تَرْضَى بِمُقَلَّةِ تَأَلَّفِ التَّوْ مَ وَدَمَعُ يُصَانُ فِي الْأَمَاقِ
وَزَمَانُ الصَّبَا مَرٌّ وَقَدْ أَدُ فِقَ أَيَّامُهُ زَمَانُ الْفِرَاقِ
وَاللَّيَالِي تَمْضِي مِرَاعًا وَمَا يُبْ بَلُ مِنْهَا حَوَالَةٌ فِي الْبَاقِ

كانت امرأة متعبدة لانتام من الليل إلا يسيرا فعوتبت في ذلك فقالت : كفى بطول الرقعة في القبور رقاداً :

أَيُّهَا الْمُدَّالُّ لَا تَعْدُلُوا إِنَّمَا النَّصْحُ لِمَنْ يَقْبَلُ
وَأَرَى كَثِيرًا لَا يَنْقَضِي طَالَ لَيْلِي وَالْمَوْتُ أَطْوَلُ

عوتب بعض الصالحين في كثرة بكائه، فقال والله لأبكين ثم لأبكين، فإن أدركت بالبكاء خيرا فمن فضل الله، وإن تكن الأخرى فما بكائي في جنب ما ألقى؟ وعوتب آخر في كثرة بكائه، فقال إن حزن القيامة أورثني دموعا غزارا فأنا أستريح بذرفها. وكان الحسن يبكي ليلا ونهارا، ويقول أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي. وكان محمد ابن المنكدر كثير البكاء فسئل عن ذلك، فقال آية في القرآن أبكتني وهي قوله تعالى: (وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) الفكر في السابقة أقلق الأرواح وأذاب القلوب.

يا هذا: سق نفسك بسوط المجاهدة وهي تبكي، فمن قليل يثمر البكاء سرورا. عند الصباح يحمد القوم السرى. قال أبو بكر الزاهد: دفعت الشهوات حتى صارت شهوتي المدافعة يعني صار في تركها لذة. يا أرباب الدنس لا تقنعوا بصب ماء التوبة على ظاهر البدن بلوا الشعر، وأقنوا البشرة، أبلغ المراهم في دواء الخطايا الندم، وأحسن زى الثائب حلة الانكسار، وأنفع الألفاظ اجتلاب الرحمة (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) وفي الآثار: أن ملكين من السماء كل يوم يقول أحدهما: ياليت الخلق لم يخلقوا، ويقول الآخر: ليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا. ويقول الأول: ليتهم إذا علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا. ويقول الآخر: ليتهم إذا لم يعملوا تابوا مما عملوا. ويقال: العمر بضاعة والرايح من صرفه في طاعة. قال الله تعالى في محكم الآيات ردا على من يتمنى رفيع الدرجات وهو معرض عن الطاعات غافل عن رب الأرض والسموات (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) عباد الله، قد مكنتكم من التجارة الربحية من أوسع لكم مواسمها، ريسر لكم الأعمال الصالحة من بين لكم معالمها، ورغبكم في الخيرات من وفر مغائرها، ودعاكم إلى رفيع الدرجات من منحكم كرائمها، فاحذوا الله تعالى

على ما أعطاكم من نعمة الإسلام واشكروه على ما خصكم به من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم
شكراً يستغرق أفكاركم من النظر فيما ينقص من أموالكم ، والفكرة في عاجل
أحوالكم ، فكل نعمة تفوقها نعمة الإسلام ، وكل مصيبة فإنهادون مصيبة الطرد والحرمان .
فنسأل الله تعالى أن يحصل فكرنا فيما لديه وهمتنا فيما ينفعنا يوم القيامة بين يديه ، إنه
على ما يشاء قدير . وإن شهر شعبان قد انقضى عنكم أكثره ودنا رحيله ، شاهد
للمحسنين بما قدموا من عمل صالح ، وبما أخلصوا فيه من متجر راجح ، شهيدا على المفرطين
بأوزارهم ، وما حملوا على نفوسهم من قتل إصرارهم ، وقد أظلمكم الموسم الذي هو أعظم
منه غنيمة وسعادة ، وأوفر منه في طلب الحسنى وإدخار الزيادة (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ
فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) تفتح فيه أبواب الجنان ،
وتفلق فيه أبواب الفيران ، ويصفد فيه كل مارد وشيطان ؛ فأعدوا لقدومه عدة ، واسألوا
الله تعالى التوفيق إلى أن تكمّلوا العدة . والحذر الحذر من التفريط والإهمال ، والتكاسل
عن صالح الأعمال ، فهمة الصالحين فيه القيام والصيام ، والكف عن فضول الكلام ،
والسلامة من جميع الآثام ، والاشتغال بذكر الملك العلام ، وهمة النافعين التلذذ بألوان العظام ،
وتضييع أوقاته بالغفلة والنمाम ، وسيتبين لكم يوم الفصل الأوضح ، أى الفريقين أسلم وأربح .
إلهى إن قلوبنا موقنة بصدق ما وعدت ، ونفوسنا طامعة بحسن ما وعدت ،
ألهمتنا معرفة وجودك ، وعاملتنا بكرمك وجودك ، وزينتنا بصدق توحيدك ، وأنطقنا
بتمجيدك وتقديسك وتحميدك ، وأكرمنا بتصديق محمد خير خلقك صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه وسلم ، وجعلت حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك ، اللهم حسن إيماننا بالتوفيق ،
وزين سرأثرنا بالتحقيق ، واحمنا من المخالفة والعصيان ، واكفنا عن آفات الإعراض
والتفريط والنسيان ، كما حثتنا بكرمك من دواعي الفكر الموبقة ، ونعمات البدع المحرقة ،
أنت العلى العظيم المتعال الكبير الأكرام المتكبر ذو العز والجلال والكرم والمجد والكمال ،
نحيرت العقول في وصف جلالك ، ومجزت الأفهام عن الإحاطة بكلاك ، فأنت مع جبروتك

وعزتك تجبر الكسير وترحم الفقير برحمتك، وتمز الذليل الحقير إذا لاذ بمجنابك، وتغنى السائل المسكين إذا وقف ببابك، فأنت الملك الأعظم، والمولى الأكرم، وهما نحن وقفنا ببابك وأنت أعلم، ليس في قلوبنا أحد نرغب إليه رغبتنا إليك، ولا لنا ركن نعتمد عليه اعتمادنا عليك، وقد اعترفت نفوسنا بالإساءة وانقطاع الخيل، ووثقت قلوبنا بجميل الرجاء وحسن الأمل.

إلهي تفضل علينا بالقبول والإجابة، وارزقنا صدق التوبة وحسن الإنابة، واجعلنا ممن رجع إليك فأكرمت مآبه، يا من أمد بمعنايته أوليائه وأحبابه.



مركز بحوث ودراسات إسلامية

الفصل الخامس عشر

في الاستعانة وذكر رمضان

الحمد لله المنفرد بالقدوم والبقاء والعظمة والكبرياء ، والعز الذي لا يرام ، الصمد الذي لا يمثله العقل ولا يحده الفكر ولا تدركه الأفهام ، القدوس الذي تنزه عن أوصاف الحدوث فلا يوصف بموارض الأجسام ، الغني عن جميع المخلوقات فالعالي والسفلي والإنس والجن والعرش والكرسي منتقم إليه وهو غني على الدوام ، سبق الزمان فلا يقال متى كان ، وخلق المكان فلا يقال أين كان ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام الحى العليم القدير السميع البصير المدبر الخبير المتكلم بكلام قديم أزلى لا يشبهه كلام صفاته كذاته فلا وجه للجدال والخصام ، ترك المعطل ماورد به النقل من صفات الكمال فاحر على وجهه وهام ، وجهه المشبه ما شهد به العقل من صفات الجلال فهو يخطئ في الظلام وجمع الحق بين العقل والنقل فأمن بالله واستقام ، وشغله عن الفكر في ذاته الإجلال والإعظام ، فوجد لذة مناجاة مولاه فهجرت لذى المنام وصحب رفقة (تَتَجَاوَى جُؤْبَهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ) رغبة في القيام فلو رأيتهم وقد سارت قوافلهم في حندس الظلام واحد يسأله المغفوع عن زلته وآخر يسأله التوفيق لطاعته وآخر يستعيز به من عقوبته وآخر يرجو منه جميل مثوبته وآخر يشكو إليه ما يجد من لوعته وآخر شغله ذكره عن مسأله فسيحان من أيقظهم والناس نيام :

لَهُ مَا أَطْيَبَ ذَاكَ الشَّهَادَ وَمَا أَلَدَّ الْقُرْبَ بَعْدَ الْبِعَادَ

وَمَا أَشَدَّ الْحَجَرَ مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ كُنْتُ مِنْ جُحْلَةِ أَهْلِ الْوَدَادَ

يَا نَاسِيَا لِلْعَهْدِ عَامَلْتَنَا ثُمَّ تَعَلَّتْ بِطَيْبِ الرِّفَادِ
ثُمَّ تَشَاغَلْتَ وَأَيْنَ الَّذِي حَصَلْتَ كَلَّابًا حُرِمْتَ الْمَرَادِ
فَازَ الَّذِي عَامَلَنَا بِالرِّضَا وَحَصَلَ الزَّادَ لِيَوْمِ الْمَعَادِ
ثُمَّ مِنْ النَّوْمِ وَدَعَا مَاضِي وَكُنْ فَقِيرًا ، مَا مَضَى لَا يُعَادِ

فتبارك الذي غفر وعفا ، وستر وكفى ، وعلم ما ظهر وما خفي ، وأسبغ على الكافة جميل الإناعام .

أحمده على جميع نعمه الوافرة الجسام ، وأسأله حفظ نعمة الإسلام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله عز من اعتز به فلا يضام ، وذل من تكبر عن أمره ولقى الآثام ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي بين به طريق القوام وأنزل عليه تعظيما لحقه وتشريفا . وتبيننا لمنته علينا وتعريفا (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة إلى يوم الدين .

في قول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

استعينوا بقطع مفازة الآخرة والسلامة من شدائد الدنيا بالصبر على ما تكرهون وحبس نفوسكم عما تشتهون ، وأكثروا من الصلاة فإنها مفتاح باب المناجاة مع المولى الرحيم وفيها راحة القلوب بمخاطبة الملك الكريم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جُمِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » وقال : استعينوا بالصبر على قطع شدائد الدنيا ، واستعينوا بالصلاة على قطع شدائد الآخرة .

وقال ابن عباس : استعينوا بالصبر على أداء القرائن ، وبالصلاة على تمحيص الذنوب . وقال مجاهد : الصبر هنا الصوم . فضاء استعينوا بالصوم والصلاة على نيل ما ترجون ودفع ما تخافون .

كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول : والله إنكم إن تنالوا ما تطلبون إلا بترك ما تشتهون . ويقال : شهوة العاقل وراء فكرته فإذا عرضت له شهوة سبقها الفكرة في المواعب . وفكرة الأحق وراء شهوته فهو يبادر إلى الشهوات غير مفكر فيما يجده من الآفات ، فإذا وقف يوم عرض الديون تبين الربح من الخسران وأرباب الغفلة لافكرة لحم في الآخرة ، همهم ما يأكلون وكذا ما يلبسون (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَالُونَ) يسرون بأعمالهم إلى جهة جهنم وما ينتبهون حتى تحط الركائب على شفير الوادي . أين المتأهب للأهوال ، أين الاعتداد لعرض الأعمال ؟ يا هذا تنظر في المرأة إذا أردت لقاء الخلق فم لا تنظر في مرآة قلبك للقاء الحق . يا مغترا بلهب الأمل مثل اغترار الفراش أين نظر البصائر ، ويحك قم استريح (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكَ مُّقْتَدِرٍ) اسلك جادة الجِدِّ ، ولا تتبع الهوى فتضل . يا قليل الخبرة بالطريق اطلب برقة استفت يا بعيد الدار ، اندب يا طريد ، تأسف يا مجور تعلق يا مأسور أين انكسار المعتذر أين بكاء المفتقر .

يَا رَاقِدًا فِي غَفْلَةٍ يَا قَاعِدًا عَمَّا أُمِرَ
أَيُّنَ الدِّينِ اسْتَنْبَحُوا سَارُوا إِلَى الْمَوْتِ فَسِرَ
قُمْ فِي الدُّجَى مُسْتَغْفِرًا وَابْكِ بِدَمْعٍ مُّهِمِرٍ
وَأَنْهَضْ إِلَى دَرْكِ الْعَلَا جِدًّا بِقَلْبٍ مُّضْطَرِرٍ

أين بكاء الحزين ؟ أين تعلق المسكين ، أين نشير المجتهدين ، أين الحنين إلى أحوال السابقين ، يا من يحدث نفسه بالنوبة ويوقف للتأخير آفات :

هَذَا زَمَانُ الصُّلَحِ مَا أَقْعَدَكَ عَنْ بَابِ مَنْ بِالتَّخِيرِ قَدْ عَوَّدَكَ
تَرْجُو الرِّضَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهِ وَعَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ مَا أَبْعَدَكَ
قُمْ فِي الدُّجَى مُسْتَغْفِرًا بِأَكْيَا وَاطْلُبْ رِضًا مَوْلَاكَ كَيْ يَرْشِدَكَ

كُنْ رَاجِيًا مُسْتَبْشِرًا خَائِفًا مِنْ سَطْوَةِ الْمَوْلَى تَنْلِ مَقْصِدَكَ
فَإِنْ نَحَى مَعَكَ مَا سَطَرْتَ أَيْدِي خَطَايَاكَ فَمَا أَسَمَدَكَ

العجب من تداولته الدهور كيف لا يعتبر بمن مضى، ومن ذهبت أيامه وكثرت آثامه
كيف لا يتذكر من كان قبله وانقضى .

دخل قتيبة بن مسلم على الحجاج فقال له يا قتيبة إنك في سنى فأشدد يقول :

إِذَا كَانَتْ الْخُمُوسُ سِنَّكَ لَمْ يَكُنْ لِدَائِكَ إِلَّا أَنْ تَمُوتَ طَبِيبُ
وَإِنْ أَمْرًا قَدْ سَارَ سَبْعِينَ حِجَّةً إِلَى مَنَهْلٍ مِنْ وَرْدِهِ لَقَرِيبُ
إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَى رَقِيبُ
وَلَا تَحْزَنْ اللَّهَ يَفْعَلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ
إِذَا مَاضَى الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ مِنْهُمْ وَخُلِفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ

وكان عيسى عليه الصلاة والسلام إذا مر بالشباب يقول : يا معشر الشباب كم من زرع
هلك قبل أن يدرك الحصاد وإذا مر بالشيخوخة يقول : يا معشر الشيخوخة ما ينتظر بالزرع إذا
أدرك الحصاد .

وقال أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه : ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب
قائب .

وقال كعب الأحبار : إن الله تعالى يقول يا شاب كسرت شبابك وعفرت وجهك
في التراب من أجل ، وعزنى وجلالى لأوقيتك ثواب تسعة وتسعين صدقًا .

وقال يزيد بن ميسرة : إن الله تعالى يقول : أيها الشاب التارك شهوته المبدل شبابه
من أجل أنت عندى كبعض ملائكتى .

وقال عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتم الشاب يلزم المسجد فارجوا خيره .
ونظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى غلام يتردد في الأسواق إلى المساجد وعليه
جبة صوف فقال له : يا غلام لقد أسرعت ، فقال : يا أمير المؤمنين ليس كل عمر يدرك
النضج .

وقال ثابت البناني : كان شاب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس ويتزين فلما مات صلى الله عليه وسلم اجتهد الشاب وشمر في العبادة ، ف قيل له لو فعلت هذا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لقرت عيناه بك ، فقال كان لي أمانان ففنى أحدهما ولم يبق إلا الآخر ، قال الله تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) وقد مات صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلا الاستغفار والاجتهاد .

وفي الحديث : « إِذَا بَلَغَ الْعَبْدُ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلَمْ يَطْلُبْ خَيْرَهُ عَلَى شَرِّهِ فَلْيَنْتَحِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ لِيَتَجَهَّزْ إِلَى النَّارِ » . وفي الحديث : « مَا أَكْرَمَ شَابٌ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَبِضَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ سَفَرِهِ مَنْ يُكْرِمُهُ » ، ونظر بعض الصالحين إلى شيخ كبير وهو يسأل الناس فقال : هذا شيخ ضيع حق الله في صغره فضيعه الله تعالى في كبره ، ويقال العبادة حسنة وهي في الشاب أحسن ، والمعاصي قبيحة وهي في الشيخ أقبح .

عَصَيْتُ هَوَى نَفْسِي صَغِيرًا فَعِنْدَ مَا أَتَنَّى اللَّيَالِي بِالشَّيْبِ وَيَا كِبَرَ أَطَمْتُ الْهَوَى عَكْسَ الْقَضِيَّةِ لَيْتَنِي خَلَقْتُ كَبِيرًا ثُمَّ عُذْتُ إِلَى الصَّغَرِ
ويقال الليالي والأيام بعمالان في قطع عمرك فاعمل فيهما ، فإن لم يكن لك كبير عمل فاجعل اجتهادك في ترك المعاصي والحزن على التقصير .

احزن على أنك لا تحزن ولا تسي إن كنت لا تحسن
واضعف عن الشر كما تدعى ضعفا عن الخير وقد يمكن
وكان زين العابدين يقول لنفسه : حتى متى على الدنيا إقبالك وشهواتك اشتغالك ،
وقد وعظك القدير ، ووافقك النذير ، وأنت عما يوافيك ساهى ، وبلذة النوم لاهى ،
لِرُؤْيَا شَيْبِي صُمْتُ عَنْ طَلَبِ الصَّبَا وَعَيْدُ شَبَابِي لَا يَعُودُ فَأَفْطِرُ
إن الرجال بادروا للآجال لعلمهم أن سير المنية إعجال ، عرفوا أن الراحة في المعاد ،
فهجروا طيب الرقاد ، واشتغلوا بتحصيل الزاد .

يا غافلا مقبلا على أملة تسلك سبيل العز في مهله
كم نظرة لامرئ يسر بها فحاقها عنه منهي أجله
وفي الحديث: « لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ عُمرِهِ
فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ عَمِلَ فِيمَ أَوْعَنَ مَالِهِ فِيمَ اكْتَسَبَهُ
وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ » .

وغضب بعض الملوك على وزيره فأراد أن يصرفه عن خدمته ، ويبعده عن حضرته .
فقال له الوزير : إن كان ولا بد فرد على ما أنفقته في خدمتك ، فقال ماهو ؟ قال شبابي رده
على فقد أنفقته في خدمتك ، فأعجب الملك ذلك ورضى عنه .

ووقف بعض الصالحين بعرفة وقال : إلهي وسيدى الواحد منا إذا كان له عبد وكبر
في خدمته وفي داره لا يبيعه ولا يضربه ، وقد كبرت في دارك فأعتق رقبتى بحودك .
وفي الحديث : « مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ اسْتَحْيَا اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُ بِنَارِ جَهَنَّمَ »
يامن كتابه ملآن بالذنوب ، استدرك أمرك من الآن ، متى تتحدث الجيران بأنه قد ناب
غلان . أترى تخرج من ذنوبك قبل خروجك ، أترى يدرج قبيلتك بالعفو قبل
خروجك :

قُلْ لِلزَّمَانِ مُلْحَا قَدْ عَادَ لَيْلَى صُبْحَا
وَأُعَذِّبِ الشَّرْبَ الَّذِي كَانَ أَجَا مِلْحَا

يامذنبين هذا وقت الإنابة ، يا غافلين عن الحق وقد فتح باب ، تعرضوا للقبول فهذا وقت
الإجابة ، بكى أبوك آدم على ذنب واحد ثمانية سنة (فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْبَصَارِ) كانت
صعداء أنفاسه تملأ مزاد للسافرين ، كان كلما رأى الملائكة تصعد إلى السماء قال واشوقاه
إلى الأوطان :

لَوْ لَا تَذَكَّرُ أَيَّامَ بِيْذَى سَلِمَ وَعِنْدَ رَامَةِ أَوْطَارِي وَأَوْطَانِي
لَمَاقَدَحْتُ بِنَارِ الْوَجْدِ فِي كِبْدِي وَلَا بَلَلْتُ بِمَاءِ الدَّمْعِ أَجْفَانِي

يا أصحاب الذنوب احذروا زلة يقول الحبيب منها (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) أكبر
الهلكاء سفر الراكب إلى بلاد الحبيب عهد مسيرهم يودعون الزمن .
وَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي فِي الْهَوَى غَيْرَ أَنِّي إِذَا الرُّكْبُ مَرُّوا بِي عَلَى الدَّارِ أَشْهَقُ
يا من كان له قلب معافى فرض ، اذكر خطيئتك ، ما كان أحسن قلبك ، وكان
أصفي شربك ، فأكثر على اللصاب نذبك ، لم يبق لك الآن حيلة ، إلا ملازمة باب
الطيب ، فإن لم تقدر على الدواء فابك ، فالبكاء رأس مال الفقير يا من على ظهرك أفعال
من قبيح الأعمال ، بينك وبين العفو أن تضع الوزر عن الأزر بكف الندم ، الشباب قد
ولى ، والضعف قد تولى ، ومِعْوَلُ الْكَبِيرِ يَعْرِقُ حَيْطَانُ الْأَجَلِ .

إِذَا كُنْتَ قُوَّةَ النَّفْسِ نَمَّ هَجَرَتْهَا فَلَمْ تَلْبَسِ النَّفْسُ الَّتِي أَنْتَ قُوَّتُهَا
سَدَّ بَقَاءَ الضَّبِّ فِي الْمَاءِ أَوْ كَمَا بَعِيشُ بِبَيْدَاءِ الْمَفَاوِزِ حُونُهَا
يا هذا بادر الزمن قبل الزمن ، واغتنم الصحة قبل السقم ، فكأن قد جاء المرتقب .
جلس يونس بن عبيد يوما مع أصحابه يتحدثون ، ثم قام وقال : مضى والله من أجلى
وأجلكم ساعة . يا من يعد بالتوبة ويُسَوِّفُ ، بادر فقد فُتِحَ الباب ، وأعدت ولائم الأفراح
للأحباب .

تَمَالَ قَدْ أُمِكَنَّ لَلْكَانِ وَأَجْسُرُ عَلَى الْوَصْلِ يَا جَبَانَ
عَجَّلْ فَإِنَّ الزَّمَانَ غَرٌّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْطِنَ الزَّمَانُ
والتوبة الصادقة تقطع آثار الذنب . إذا صدق التائب أنسى الله تعالى لللائكة ذنوبه ،
وأنسى بقاع الأرض عيوبه ، ومحا من أم الكتاب زلاته ، ويحاسبه يوم القيامة عليها .
إذا رأيت سعة الدنيا عند العصاة فاعلم أنها حظهم (وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) يا غائبنا
عنا وهو حاضر مالك ناظر ، أما ترى الشوق قد قدح زناد المبادر ، أما ترى دموع الواجدين
تذرف على الحاجر ، أف لا بدوى لا يطاربه ذكر حاضر ، يا من يطمع أن يلحق بالعاملين
وهو راقد في مهاد الغافلين ، فارق أوطان غفلتك ، فلعلك تصحو من سكرة فترتك ، تالله

لو أردت المسير لما التفت إلى الأوطان، ولو ذقت حلاوة الخلوة بالمولى لما سكنت إلى وائسة الخلان
عباد الله : هذا شهر رمضان ، الذى كتب الله عليكم صيامه ، وأوجب عليكم
تعظيمه واحترامه ، وأجزل الثواب لمن أحصى ليله وقامه ، قال الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَأْسَكُمْ أَنْتَقُونَ)
معناه فرض عليكم الصيام كما فرض على الأمم قبلكم الصيام . وقيل معناه كلن رمضان
فرضا على أهل الكتاب فغيروه ، وقوله (لِمَأْسَكُمْ أَنْتَقُونَ) لعلكم تتحذرون عن العقوبة
بفعل ما أمرتم به ، قال الله تعالى : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) فمن عمل بطاعة الله
وقى نفسه من عقوبة الله تعالى ، وفيه إشارة إلى أن الصوم عون على التقوى ، فإن فيه حبس
النفس عما تهوى . ويقال خاطبنا الله تعالى فى أول الآية باسم الإيمان تعريفا بالمنة فى نعمة
الإسلام وتخفيفا لما تجده النفس من ثقل الصيام ، وقال : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) وقال
سبحانه وتعالى : (كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِكُمُ الرِّحْمَةُ) فإذا وفيت بما عليك وأنت بالغدر
معروف ، فكيف لا يوفى بما عليه سبحانه وتعالى بما صعب على نفسه وهو بالكرم
موصوف ، أنت إذا وفيت بما عليك يلحقك الثعب ، والرب سبحانه وتعالى إذا وفى بما
عليه لا يلحقه النصب (ومن أوفى بمعهده من الله) ولا يخسر أحد على الله .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ
صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » . وروى عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه قال : « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا
تَأَخَّرَ » . وفى صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال الله عز وجل :
كُلَّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، فَإِذَا
كَانَ يَوْمٌ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَصْنَعِبْ فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ
إِنِّي أُمْرُؤٌ صَائِمٌ إِنِّي أُمْرُؤٌ صَائِمٌ ، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ تُخْلُوفُ فَمَنْ الصَّائِمُ أَطِيبُ
عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا : إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ ، وَإِذَا
لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ » .

قوله : إلا الصيام فإنه لى ، قيل خص الصيام بالإضافة للتشريف ، والأعمال كلها لله تعالى ، كقوله تعالى (نَاقَةَ اللَّهِ) والإبل كلها لله (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ) والبقاع كلها لله ، وقيل خصه لأنه سرّ بين العبد وربّه ، وقيل خصه بالإضافة لأنه لم يتقرب به لغير الله تعالى من صنم ولا غيره ، وقيل فيه إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى صمد لا يقطع ، وقيل خصه لأنه لم يطلع أحد على مقدار ثوابه .

وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فَتُحْتَتُّ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمُنَادٍ يُنَادِي فِي كُلِّ لَيْلَةٍ : يَا طَائِلَ الْخَيْرِ هَلَمْ ، وَيَا طَائِلَ الشَّرِّ أَمْسِكْ » . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ لَمْ يَدْعُ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَالْجَهْلِ فِي الصَّوْمِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي تَرْكِ طَعَامِهِ وَشَرِّائِهِ » .

وروى كعب الأحبار أن الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام : إني آليت على نفسي أن لا أورد دعوة صائمي شهر رمضان ، يا موسى ألهم في رمضان السموات والأرض والجبال والطير والدواب أن يستغفروا لصائمي شهر رمضان ، يا شهر رمضان أين أرباب القيام ؟ أين المجتهدون في جنح الظلام ؟ أين الذين يهجرون المنام ، ويتمنون لو كان رمضان على الدوام ؟ ذهبوا إلا قليل منهم فعليهم السلام (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) قال السائب بن يزيد : لما جمع عمر بن الخطاب الناس لقيام رمضان قدم أبي بن كعب ونعima الداري يصليان بالناس ، فكأن القاري يقرأ بالمائتين ، وكذا نعتمد على المعصية من طول القيام ولا ننصرف إلا في فروغ الفجر .

وقال عبد الرحمن بن هرمز : كان القاري يقرأ بالبقرة في ثمان ركعات . وروى عبد الله ابن أبي بكر عن أبيه قال : كنا ننصرف من قيام رمضان فنستعجل الخدم بالطعام مخافة أن يطلع النجر .

وكان الشافعي رضي الله تعالى عنه يحتم في رمضان ستين ختمة . تعبوا والله قليلا

واستراحوا كثيرا، وتبوءوا من رياض الرضا مقبلا، والبائس المسكين من لم يجد إلى لحاقهم سبيلا، والمغبون من رضى بحظه العاجل بدبلا.

إلهي أنت الملك الكريم، وكل معبود سواك باطل، إليك رغب القاصدون وابتغوا إليك الوسائل. مولاي تعطف هاعبدك خاضع وسائل، إحسانك واسع عظيم لا يمتص جودك المسائل، فيك توله القاصدون فاللسان كليل والعقل داهش ذاهل، ما أسمع من قطعه عنه إليك ما أطيب من خلوته بين يديك، مولاي سر أرى وشكواي لديك فاعطف كرم فقد توكلت عليك أنت الملك المالك، تعطى وتمنع وتضر وتنفع وتخف وتضرع وتذل وتهدي وتضل وتولي وتمزل وتكشف وتسبل. إذ أمس العباد ضر فزعوا إلى بابك وتوسلوا إليك بأحبابك وهانحن بالباب واقفون وبكرم جودك عارفون. نشكو إليك مرضى القلوب، فأنت ممرضها ومعافيا، ونسألك دواء الغفلة فقد تماقيا، ونستعينك على إصلاح النفوس فقد طال تماقيا، ونلتجئ إليك في دفع شرها فإليك بلتجأ فيها، كان لي وقت فقدم سافر عني فما قدم:

وَكَيْفَ الْغِذَاذِي بِالْأَصَائِلِ وَالضَّحَى إِذَا لَمْ يَمُدَّ ذَاكَ النَّسِيمُ الَّذِي هَبَا
ذَكَرْتُ بِهِ وَصَلًا كَانَ لَمْ أَفْذُرْ بِهِ وَعَيْشًا كَأَنِّي أَقْطَعُهُ وَثَبَا

أترى يجمع الله الشمل بعد الشتات؟ أو ترى يرجع ما ذهب وما فات.

لَا تُخَيِّبْ قَصْدَ مَنْ جَاءَكَ يَسْمَى مَا لَنَا غَيْرُكَ مَنْ يُرْجَى وَيُدْعَى

بِأَغْيَاثِ الْمُسْتَغِيثِينَ وَمَنْ يَسْأَلُكَ فِي الْخَالَيْنِ إِعْطَاءً وَمَنْعًا

عَبْدُكَ الْمُسْكِينُ أَضْحَى سَائِلًا وَاقِفًا عَلَى الْبَابِ يَبْتَغِي مِنْكَ رُجْعًا

اللهم عاف عيون أفعياءنا من رمد الغفلة واسلك بنا إلى مرضاتك طريقا سهلة ولا

تجعلنا ممن جعلت حظ العاجلة شغله بأرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل التاسع عشر

في الاجتهاد وذكر ليلة القدر

الحمد لله الذي زحزح هم الأولياء عن السكون إلى العاجلة ، وشرح صدور السعداء لإيثار الآجلة ، المنفرد بالكمال والكبرياء والجلال والبقاء والعز الذي لا تفادله ، استوى على العرش من غير تكيف علو عظمة وقهر وكيف يحمل العرش حامله ، القلوب تعرفه بمنعته والرقاب خاضعة لعزته والقول في تعظيمه حائرة ذاهلة ، صفاته قديمة وتخيلات المشبهين والمعطلين باطلة ، الحى المليم التقدير السميع البصير المدبر الخبير المتكلم بكلام قديم أزل جل عن المشابهة والمماثلة ، الملك الكريم الذي يغفر لمن استغفروه ويقيم من استقاله ويحب سائله ، اللطيف الذي جعل خواطر الإلهام إلى القلوب رسائله ، الجليل الذي غمر العباد ببره وبحار عطائه سائلة ، الغفور الذي يستر زلات عبادته عند المسألة ، القريب الذي يقرب أحبابه فوجدوا لذة المعاملة ، فقلوبهم بذكره حاضرة وعيونهم في خدمته ساهرة وأبدانهم من مخافته نائلة ، العزيز الذي قطع المبعدين عن بابه وأذلهم بألم حجابيه فهممهم عن النهوض في الخيرات متناقلة ، أسكرهم الهوى فلم يجدوا لذة خطابه وأصم أسماع أسرارهم فلم يزعجهم قوارع عتابه فقلوبهم بحظوظ نفوسهم منشغلة ، السعيد من قرّبه المولى الكريم والطريد من أبعدته الملك الحكيم ، والقلوب بسر تديره جاهلة لا يرد على أفعاله لم ولا كيف ، ولا ينسب في أحكامه إلى حيف فاقطع لسان الاعتراض وكف كف المجادلة فكل ماتصوره ومحك فهو حادث مخلوق وكيف يشبه المفعول فاعله .

أحمد على ما أسبغ علينا من نعمه الكاملة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

له ضمن الريح الجزيل لمن عامله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله إلى أمة غافلة فاستخلص من شرح للإسلام صدره بالمسألة والمساهلة ، ودمر حزب الشيطان بالمكافئة والمناضلة وأوضح كل مشكلة وبين حكم كل فازلة وأضحت شمس الإيمان مشرقة ونجوم البهتان آفلة ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة متواصلة .

في قول الله عز وجل (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ) الآية .

إنما يتبين ربح العاملين يوم المصاد ، وفيها تظهر آثار القرب والبعد ؛ فمن عمل خيرا وجد جزاءه محضرا ، ومن عمل سوءا لقيه في كتابه مسطرا ، هذا الذي أزعج قلوب الخائفين وأسهر عيون العابدين (الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) يعني يعملون بالطاعات ما يعملون وهم مع ذلك وجلون (يُوفُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالليل حتى تورمت قدمه ، وكان يقرأ في ورده ودموعه تقع على الأرض كوكف المطر . وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يُسمع لقلبه خفقان وغليان في الصلاة . هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من شرف المقام ، فالمعجب كيف يطمئن قلب من أثقلت الآثام ظهره .

قال كعب الأحبار : لو أن رجلا عملَ عملَ سبعين نبيا لاستقبله يوم القيامة لما يرى من أهوال ذلك اليوم .

وعوتب بعض الصالحين في كثرة بكائه واجتهاده فقال : وما هذا في جنب ما يلقاه الخلق من ملاقات الأهوال وهم غافلون ، قد اشتغلوا بحفظ نفوسهم ونسوا حقهم الأكبر من ربهم .

وكان بعضهم يصلي حتى أقعد ، وكان يصلي قاعدا ويقول : عجبت للخلقة كيف أرادت بك بدلا ! بل عجبت للخلقة كيف استأنست بسواك !

وقيل لداود الطائي : ألا تسرّح لحيتك؟ قال إني إذا لفارغ، وكان يشرب الفتيت^(١) وقت إفطاره ، فستل عن ذلك ، فقال : بين شرب الفتيت والمضغ قراءة خمسين آية .
وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا .

وكان السلف الصالحون إذا بلغ أحدهم أربعين سنة طوى فراشه . ولما رأت أم الربيع ابن خيثم كثرة بكائه واجتهاده قالت يا بني لعلك قتلت قتيلًا فأنت خائف من ذنوبه ، قال نعم يا أماء ، قالت فقل لنا من هو لعلنا نطلب من أهله أن يسامحك ؟ فوالله لو رأوا ماتصنع بنفسك لرحموك ، قال : يا أماء إنما هي نفسى قتلتها بتقصيري في حقوق الله تعالى .

وصلى على بن أبي طالب رحمه الله صلاة الصبح فلما سلم اغتسل عن يمينه وعليه كآبة ، فكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يديه وقال : والله لقد رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم أحدا يشبههم ، كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقيامًا يتلون كتاب الله تعالى ، يراوون بين أقدامهم وجباههم ، وكانوا إذا ذكروا الله عز وجل مادوا كما تميد الشجرة في يوم ربيع ، وهملت أعينهم حتى تبيل ثيابهم ، ثم نظر إلى الذين حوله وقال كأن هؤلاء باتوا غافلين . وكان أبو مسلم الخولاني يعلق في البيت سوطا بالليل ويقف للصلاة ، كلما فتر ضرب نفسه ، ويقول أنت أحق بالضرب من دابتي .

وقال أبو حازم : أدركت أقواما ما كان رمضان يزيد في اجتهادهم شيئا ولا ينقص خروجه من اجتهادهم شيئا . وقال بعض الصالحين : بينما أنا سائر في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت وادبا وإذا برجل قائم بين شجرتين يردد هذه الآية (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا) الآية ، فلم يزل يرددها حتى صاح ووقع مغشيا عليه ، ثم أفاق بعد ساعة وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين . أعوذ بك من أعمال الباطلين ،

(١) الفتيت : كُسيرات ضئيلة من الخبز تذاب في أمرار .

أعوذ بك من إعراض الغافلين، خشعت لك قلوب الخائفين، وإليك رفعت أعمال المقصرين، ولعظمتك ذلت رقاب العارفين، ثم نفذ يديه وقال: مالي والدنيا، عليك يا دنيا بأبداء جنسك واللاهين في نعمتك، إلى محبيك اذهبي وإياهم فاخذعي، قال: فباديته يا عبد الله أنا منذ اليوم منتظر أن تتفرغ لي فقال: كيف يتفرغ من ببادر الأوقات وتبادره، ويخاف سبقها بالموت على نفسه، أم كيف يتفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه ثم قرأ (وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) ثم صاح صيحة أشد من الأولى وخر مغشيا عليه، فقلت قد خرجت روحه، فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول: من أنا وما خطاري، هب إلى إساءتي بفضلك، وجللتني بسترِكَ، واعف عن ذنوبي بكرم وجهك، فقلت له بالذي ترجوه إلا ما كلتني، فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه، ودع كلام من أوثقته آثامه، إني لفي هذا الموضع ماشاء الله كأني أجاهد إبليس ويجاهدني فلم يجد عوناً عليّ ليخرجني مما أنا فيه إلا بك، إليك عني فقد شغلتنني ومالت إلى حديثك شعبة من قاي، قال فانصرفت وتركته.

وقال بمضهم: بينما أنا في بعض أسفاري إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف على وقال يا هذا قم فإن الموت لم يمت، ثم هام على وجهه فسمعته يقرأ (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ثم قال يا من لوجهه عنيت الوجوه، بيّض وجهي بالنظر إليك واهلاً قاي: بحبك فقد آن لي الحياء منك، وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك، ولولا حلمك لم يسعني أجلى. ولولا عفوك لم ينبسط أُملي، شُكروا والله حتى وصلوا، ووقفوا بالباب حتى قبلوا؛ فطوبى لهم إذا وجدوا ما عملوا، ما أقل ماتمبوا وما أيسر ما نصبوا، وما كان إلا القليل حتى نالوا ما طلبوا. وكان عمر وعائشة رضي الله عنهما يسردان الصوم: وصام أبو طلحة أربعين سنة. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يفطر في الحضر. وصام منصور بن المعتمر أربعين سنة وقام ليالها، لاحت لهم راية السعادة فجذوا، وعلموا بعد السفر فأعدوا، فلامهم على الجِدِّ من لا يعلم، وعاتبهم على

الاجتهاد من لا يفهم . قيل ليسرة القيسى ارفق بنفسك قال : من الرفق أنيت . وقيل
للأسود بن يزيد ارفق بنفسك فقال الرفق أردت .

جَدُّ الزَّمَانُ وَأَنْتَ تَلْعَبُ وَالْعُمُرُ فِي الْأَشْيَاءِ يَذْهَبُ
كَمْ كَمْ تَقُولُ غَدًا أَتُوبُ وَاللَّهِ إِنَّ الْمَوْتَ أَقْرَبُ

وكانت حبيبة المدوبة إذا صلت العشاء قالت : إلهي قد قفلت للملك أبوابها وحجبتها
حجابها ، وكل حبيب خلا بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ، ثم تصلى حتى يطلع الفجر .
وقالت امرأة من المتعبدات : رأيت كأنى دخلت الجنة فى المنام ، فإذا أهل الجنان وقوف
على أبوابهم ينتظرون ، فقلت ما بالكم ؟ قالوا إن الجنة قد زخرت لقدوم شعوانة ، فقلت
هى أختى والله ، بينما نحن كذلك إذ أقبلت على نجيب لها يطير بها فى الهواء ، فلما رأيتها
قلت : يا أختى أما ترين مكانى فاسألى ربك أن يلحقنى بك ، فتبسمت وقالت : لم بأن
قدومك ولكن احفظى عنى اثنين : ألزى الحزن قلبك . وقدئى محبة الله على هواك ، ولا
يضرك متى مت . وكانت معاذة تحبى الليل كله ، فإذا غلبها النوم تقول . يا نفس أمامك
ولو متى لطالت رقدتك على حسرة أو سرور . وكان لابن سيرين ابنة تعبدت فأقامت
فى مصلاها خمس عشرة سنة لا تخرج إلا للوضوء ، وكانت عجوزا تحبى الليل كله ، وكانت
مكفوفة النظر ، فإذا كان وقت السحر ، نادى بصوت محزون : إلهيك قلع العابدون دجا
الليالى ، يستبقون إلى فضل مغفرتك وإلى رحمتك ، فبك يا إلهى أسألك لا بغيرك ، أن تجعبنى
فى زمرة السابقين ، وأن ترفعنى فى درجة المقربين ، وأن تلحقنى بعبادك الصالحين ، فأنت
أرحم الرحماء ، وأعظم العظماء ، وأكرم الكرماء يا كريم ، ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجد
ثم لا تزال تبكى وتدعو حتى يطلع الفجر . وقال يحيى بن بسطام : دخلنا على شعوانة
نأمرها أن ترفق بنفسها ونلومها فى كثرة بكائها فبكت ، ثم قالت : والله لوددت أن أبكى
حتى ينفد دمى ثم أبكى دما حتى لا يبقى قطرة دم فى جارحة من جوارحى ، وأنى لى
بالبكاء ، فلم تزل تقول رانى لى بالبكاء حتى غشى عليها . وقال عبد الرحمن بن الحسن :

كانت لى جارية رومية وكنت أحبها فكانت ليلة نائمة إلى جنبى فانتهبت فلم أجدها فطلبتها فإذا هى ساجدة وهى تقول : اللهم بحبك لى فاغفر لى ذنوبى ، فقلت لها كيف تقول بحبك لى ؟ فقالت يا مولاي بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام ، وبحبه لى أيقظنى وكثير من خلقه نيام . وقال أحمد بن على : استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلأزمننا الباب ، فلما علمت ذلك قامت وهى تقول : اللهم إنى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك ، ثم فتحت لنا الباب فدخلنا وسألناها الدعاء فقالت : جمل الله قراكم المغفرة ، ثم قالت : مكث عطاء السلى أربعين سنة لا يرفع بصره إلى السماء فحانت منه يوما نظرة فخر مغشياً عليه فباليت عفيرة إذ رفعت طرفها إلى السماء لم تعص الله ، وباليته إذ اعصت الله لم تعد . وقال بعضهم : كانت لى جارية حبشية فضت معى إلى السوق فى حاجة فأقعدتها فى مكان وقلت لها اقمى حتى آتيك ومضيت فمضيت أربعين يوماً ، ثم أتيت المسكان فلم أجدها فأتيت إلى منزلى مغضبا ، فلما رأته قالت ياسيدى لا تغضب إني تركت لى فى مكان لم أجده من يذكر الله تعالى فيه فخفت أن يخسف الله تعالى بهم ويخسف لى معهم ، فقلت لها : إن هذه الأمة قد أمنها الله تعالى من الخسف ، فقالت ياسيدى إنما خفت أن يخسف بالقلوب فنزل عن الاستقامة ، فقلت لها اذهبي فأنت حرمة لوجه الله تعالى ، قالت ياسيدى حرمتنى من خير كثير كنت أعبد ربى وأخدمك فيكون لى أجران . وقال العلماء السعدى : كانت لى بنت عم تسمى بريرة تعبدت وكانت تكثر القراءة فى المصحف وتبكي حتى ذهب نظرها ، فدخل بنو عمها عابها فقالوا لها : كيف أصبحت يا بريرة ؟ فقالت . أصبحنا أضيافا مقيمين فى أرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب ، فقلنا لها كم هذا البكاء ؟ قد ذهبت عيناك منه ، فقالت إن يكن لى خير عند الله فما يضرها ما ذهب منها فى الدنيا ، وإن كان لى عند الله شر فسيزيدها بكاء أطول من هذا ، فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شىء غير الذى نحن فيه . وكانت معاذة إذا جاءها النهار تقول هذا اليوم الذى أموت فيه فتصوم ، فإذا جاء الليل تقول هذا ليلى الذى أموت فيه ، فلا تزال تصلى إلى الصبح ، فكانت لا تزال صائمة . وكانت رابعة تقوم الليل كله

ثم تقول إن شكر قيام هذه الليلة أن أصوم غدا . وصامت زحلة حتى انقلب لونها، وصلت
حتى أقعدت وبكت حتى ذهب بصرها ، وكانت تبكي وتقول : يا ليتني لم أكن شيئا
مذكورا . وكانت شعوانة تقول : إلهي ما أشوقني إلى لقاءك ، وأعظم رجائي لجزائك ،
وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين .
إلهي إن كان قد دنا أجلي ولم يقر بني عملي فقد جعلت الاعتراف بالذنوب وسائل على ، فإن
غفرت فمن أولى منك بذلك ؟ وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك . إلهي قد جرت على
نفسى في النظر لها ، وبقى لها حسن نظرك ، فالويل لها إن لم يسعدها حسن نظرك . إلهي إنك
لم تزل بي برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد وفاتي ، ولقد رجوت من تولاني في حياتي
بإحسانه أن يسمعني عند مماتي بغفرانه . إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتك لي
قد أجارتنى ، فتول من أمرى ما أنت أهله ، وعد بفضلك على من غره جمهله . إلهي لو أردت
إهانتى لم تهدنى ، ولو أردت فضيحتى لم تسترنى ، فتمنى بما له أهدى منى ، وأدم لى ما به
سترتنى . إلهي ما أظنك تردنى في حاجة أفنيت فيها عمري . إلهي لولا ذنوبي ما خفت عقابك ،
ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك ، ثم لا تزال تبكى حتى يطام النجر . واحسرتا
أشخاص النساء حوت هم الأبطال ونحن رجال ، فأين عزم الرجال ، كأننا تقاسمنا الذكورية
فلهم المعاني ولنا الصور « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى
قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » فيا ليتنا حيث قصرنا عن أعمال الأبرار سلمنا من كسب الآثام والأوزار .
قال رجل لبعض الصالحين : إني عاجز عن قيام الليل فقال : يا أخى لاتعص الله بالنهار .
وقار الفضيل : إذا لم تقدر على الصيام والقيام ، فاعلم أنك محروم بذنوبك . فالجاهل
يظن أن هؤلاء عبدوا الله بصحة الأجسام ، وقوة الأركان ، لا والله ولكن عبدوا الله
بصحة القلوب وقوة الإيمان ، أكل الرضى ، ونومهم نوم الغرقى ، وكلامهم كلام
الخائفين بين يدي ملك جبار ، وزعمهم عزم الهارب من سيل مغرق أو نار محرقة . وكان
عمران بن عبيد يأتى القبور ويقول يا أهل القبور طوبت مصحفكم ، ورفعت أعمالكم ،

ويقف يصلي حتى يطلع الفجر ويرجع فيصلّي الصبح في جماعة . وكان أبو حنيفة ليس له فراش للنوم . وكان الملاة بن زياد يختم كل ليلة ختمة ، فنام ليلة فرأى شخصا في المنام أخذ بمقدم رأسه وهو يقول : قم يا ابن زياد فاذا كر الله يذكرك ، فما زالت تلك الشعرات قلعة حتى لقي الله . ونام بعض الصالحين على فراش لين فنام عن ورده ، فحلف أن لا ينام على فراش أبدا . هذه أوصاف السادة الأتقياء ، هذه أوصاف أحوال الفائزين السعداء ، فمالك لا تمنّ إلى أحوالهم ، ولا تحرك غصن همتك رياح أقوالهم ، قُلْ قلبك رومي عسر الفتح . يا عجباً قلبك في الخلد أضعف من بموضة ، وعند الوعظ أقسى من الصخر ، وحرصك أحر من الحجر ، وهمتك أبرد من الثلج ، فما الذي انتفعت بموهبة العقل ؟

وَأَنْتَ كَدُودِ الْقَرْيِ يَنْسِجُ دَائِمًا وَيَهْلِكُ غَمًّا وَسَطَ مَا هُوَ نَاسِجُهُ

عباد الله : إن شهر رمضان مضمار السابقين ، وغنيمة الصادقين ، فيه تضاعف الأعمال . وتحط الأوزار الثقالة ، وفيه يجاب السؤال ، ويعفر للمستغفر ويقال ، وفضائله فوق ما يقال فهو غرة الدهور ، ومصباح الشهور ، ثم فيه ليلة القدر التي جعل الله عبادتها خيرا من عبادة ألف شهر .

روى في الصحيح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراه الله تعالى أعمار الناس قبله ، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر ، خير من ألف شهر » وألف شهر ثلاث وثمانون سنة وثلاث . قال الله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) يعني القرآن أنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل مفرقا على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة . قال ابن عباس وهو معنى قوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ) هي ليلة القدر على الصحيح ، وهو معنى قوله تعالى (مَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) ومجموع هذه الآيات يدل على أن ليلة القدر في رمضان ، خلافا لمن قال هي في سائر السنة .

وروى أن صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنزلت في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت

التوراة بعد ست من رمضان ، وأنزل الإنجيل بعد ثلاث عشرة من رمضان ، وأنزل الزبور بعد ثمان عشرة ، وأنزل القرآن بعد أربعة وعشرين من رمضان ، وقوله (تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا) الروح هنا جبريل عليه الصلاة والسلام . قال ابن عباس رضى الله عنهما : إذا كانت ليلة القدر أمر الله تعالى جبريل عليه الصلاة والسلام أن ينزل إلى الأرض ، فينزل معه سبعون ألف ملك سكان سدرة المفهى ، ومعهم ألوية من النور فيركزون ألويتهم في المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم وبيت المقدس وطور سيناء ، ويركز الجبرائيل عليه الصلاة والسلام لواء أخضر على ظهر الكعبة ، ثم تنفرق الملائكة في أقطار الأرض فيدخلون على كل مؤمن يجدونه في صلاة أو ذكر ويسامون عليه ويصافحونه ويؤمنون على دعائه ، ويستغفرون لجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويدعون لهم حتى يطلع الفجر ، فهو قوله تعالى (تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) أى بكل أمر قدره الله تعالى في تلك السنة إلى مثل تلك الليلة ، ولذلك سميت ليلة القدر ، وقيل سميت بذلك لعظم قدرها (سَلَامٌ) من الملائكة على المؤمنين (هِىَ) إلى طلوع الفجر . وقيل سلام أى سلامة وبركة المؤمنين . قال مجاهد : عبادتها خير من عبادة ألف شهر صيام وقيام إذا لم يقم صاحبها ليلة القدر . ثم إن الله تعالى أخفى ليلة القدر في رمضان ليجتهد المؤمنون في سائر الشهر كما أخفى الولي بين المؤمنين ليجتهد الجميع ، وأخفى الساعة في يوم الجمعة ونحو ذلك ، ويقال هى في النصف الآخر ، وقيل في العشر الآخر ، وقيل هى تدور فيه .

وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُرِيتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ثُمَّ أُنْسِيَتْهَا وَقَدْ رَأَيْتُنِي أُسْجِدُ مِنْ صَبِيحَتِهَا فِي مَادٍ وَطِينٍ فَأَلْتَمِسُوهَا فِي الْآخِرِ وَالْتَمِسُوهَا فِي كُلِّ وَتَرٍ » قال أبو سعيد فأمطرت السماء فأبصرت عَيْنَايَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انصَرَفَ وَكَلَى جَبْهَتَهُ وَأَنْفَهُ أَثَرُ الْمَاءِ وَالطِّينِ مِنْ صَبْحِ لَيْلَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ

وروى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ » .

وفي الصحيح « التَّمَسُّوهُمَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ » ومعنى التماسها طلب بركتها بالقيام فيها التماسا لتضعيف أجرها وإجابة الدعاء فيها ، فمن قام رمضان كله فقد وجدها ؛ وليس المراد رؤية شيء من خوارق العادة فيها . وقيل لأَبِي بِن كَعْب : إن أخاك ابن مسعود يقول من يقيم الحول يصب ليلة القدر فقال رحمه الله تعالى : أراد أن لا يتشكل الناس ، أما إنه قد علم أنها في رمضان وأنها في العشر الأواخر وأنها ليلة سبع وعشرين ، ثم حلف أنه لا يستغنى عنها ليلة سبع وعشرين . قالت عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وجَدَّ وشدَّ المنزر » . اللهم اجعلنا بطاعتك عاملين ، وعلى ما يرضيك مقبلين ، وألبسنا ملابس الصادقين ، ولا تحرمنا بذنوبنا خير ما عندك يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

الفصل السابع عشر

في الفرح ووداع رمضان والعيد

الحمد لله العليم الحليم ، الغفار العظيم ، القهار الذي لا تخفى معرفته على من نظر في بدائع
ملكته بعين الاعتبار ، القدوس الصمد المتعالى عن مشابهة الأغيار ، الغنى عن جميع
الموجودات فلا تحويه الجهات والأقطار ، الكبير الذى تحيرت العقول فى وصف كبريائه
فلا تحيط به الأفكار ، الواحد الأحد للفرد بالخلق والاختيار ، الحى العليم الذى تساوى
فى علمه الجهر والإسرار ، القادر الذى أوجد بقدرته جميع الأعيان والآثار ، المقدم المؤخر
فبمشيئته تصارب الأقدار ، السميع البصير الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ،
(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَعَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُتَخَفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ) المتكلم بكلام قديم أزلى لا نفاد له ولو أن الشجر أقلام والمداد البحار ، الملك
الذى يؤتى ويعزى ، ويأخذ ويعمل ، ويكشف ويسبل (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)
الذى زين قلوب العارفين بودائع الأسرار ، وأوضح لهم السبيل بما لاح لهم من الأنوار ،
واسكنهم عزائمهم إلى المسارعة والبدار ، فوثقوا على أقدام الجدد بوصف الاقتدار ، وتذللوا
بين يدي مولاهم بالسنة الاعتذار (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْعَاقِلِينَ وَالْمُنْفِقِينَ
وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) أبطع الغافل المسىء أن يلحق بالمتقين الأبرار (أَمْ تَجْعَلُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَمِّينَ كَالْفُجَّارِ ؟)
من أقصاه ماله كيف ينجيه الحدار ، من طرده مولاه كيف يلذه القرار ، ومن أغلق

حونه الباب كيف يمكنه الاصطبار ، كيف لا يتأسف الملموف ويسيل الدموع الغزار ، ويعفر خده في الثرى ويستقبل الجدار ، ويندب زمانه الماضي ويتلمح الآثار ، ويتقطع أسفا على تخلفه عن رفقة السابقين وهو يتأمل بأطلال الديار ، فمسي أن يجبره المولى بلطفه فهو معقل العثار (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ) .

أحمد حمد معترف بتقصيره بذل وانكسار ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من شهد بها يفوز في دار القرار ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اصطفاه واجتباها من صميم مضر بن نزار ، وابتعته وقد سطع من غي الكفر غبار ، ولع من نيران الشرك شرار ، فأخذ لهب البهتان بغيته المذار ، وأوضح بيناته معالم الإيمان وأنار ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطاهرين الأخيار ، الذين أننى الله تعالى عليهم بقوله : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) .

في قول الله تعالى (إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ) الآيات . جمل الله تعالى في قارون عبرة لمن اعتبر بالدنيا ، وموعظة لمن تأمل في الدنيا ، فلا يشتغل بالنعيم عن المولى . كان قارون مؤمناً بموسى عليه الصلاة والسلام ، فلما كثر ماله واتسع حاله كفر وطنى ، وتفرغ عن وبقى ، وكان قد آتاه الله تعالى أموالاً كثيرة ، ومنع حق الله تعالى فيها ، وكل مالم يؤد فيه حق الله تعالى فهو كنز ، قال الله تعالى . (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) الآيات ، وكانت مفاتيح خزائن قارون من جلود ، وكانت تثقل على عدد كثير من الرجال فلا يقدر على حملها ، ومعنى تنوء تثقل ، والمصيبة : ستون رجلاً ، وقيل أربعون ، وقيل فوق العشرة (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) أى لا تفرح بالدنيا وزهرتها فرحاً يلهيك عن طاعة الله ، إن الله لا يحب من شغله الفرح عن أوامر الله ، قال الله تعالى (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) معناه افرحوا بما آتاكم الله تعالى من الإيمان والإسلام والقرآن والتوفيق والإحسان ، وبما وعدكم به من الفوز والأمان والنعيم والرضوان ، فهو خير مما تجمعون من حطام هذه الدار وتكثرون من أموال عاقبتها دار البوار (وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ) اطلب بما أعطاك الله تعالى من النعيم ثواب الآخرة ، فاستمع بنعم الله تعالى على طاعة الله عز وجل ، ولا تمنع حق الله عز وجل ، ولا تنس شكر منة الله عز وجل (وَلَا تَنَسَ نَهْيَكَ مِنَ الدُّنْيَا) أى لا تترك العمل الصالح فيفوتك حظك من دنياك لخروجك منها بغير زاد ، فحفظ المبد من الدنيا ما اقتضى من عمل صالح ، قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد . وقيل معناه تمنع من دنياك بالحلال من مالك فهو حظك العاجل الذى لا وزر عليك فيه ، قاله الحسن وقتادة ومالك بن أنس (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) أحسن إلى نفسك بأن تستعملها بطاعة الله تعالى ، فيحصل لها ما يبقى ، وأحسن إلى الناس بالبر والصدقة ، فكبر قارون فظن أنه مستحق لما أعطى بفضل علمه بالتوراة ، وهو قوله : (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) وهذا وصف للغرور الذى ين على الله بعمله أو بعلمه ، قال الله تعالى : (يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) فازداد الراغبون فتنه وتمنوا مثل ماله ولم ينتر الزاهدون بكثرة ماله نظرا إلى ماله ، وقالوا : (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) وهكذا من تذكر المال مال عن حب المال . قال معروف الكرخي عندهم : تصدقوا بقميصي لأخرج من الدنيا كما دخلتها ، وكان لا يملك غير قميصه . كانت الدنيا إذا قدمت إلى الصالحين قدموها إلى الآخرة ، نظروا في ربع الزرع فبذروا حب القوت . بعث عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة رضى الله تعالى عنهما بأربعمائة دينار ففرقها في وقتها . وبعث مثلها إلى معاذ ففرقها ، فقالت له زوجته : نحن والله مساكين فأعطنا ، وكان قد بقي ديناران فرمى بهما إليها . وتصدق أبو بكر رضى الله عنه بماله كله ، وعمر بنصف ماله .

وكان القوم يديمون الفانى بالباقي ، وأنتم بالعكس ، هيهات هيهات ، كيف تطلب
الشجاعة من جبان :

وإذا بعثت إلى السباخ^(١) برائد تبغى الرياض فقد ظلمت الرائد
هيهات لم يرد المطالب نائم عنها ولا يصل الكواكب راقدا
تصوم وتصلى بلا قلب «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ» تحرق في الظلام وقت خلوة، وقل
باسان الإفلاس والذلة (يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْعَاً وَأَهْلُنَا الضَّرَّ) من لم يقدر على قيام الليل فليبك
على نفسه بالنهار ، لا بد من بكاء وحرقة ، إما في زاوية العبادة وإما في هاوية الطرد ، إما أن
يحرق قلبه بنار الندم والأسف ، أو بنار الشوق والشفف ، وإلا فـ (نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا
لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) ياملوا بالقيام مستلذا بالنام ، قم فقد فانتك يامغبون أرباح الكرام ، واخلوا
دونك بالمولى وفازوا بالمرام ، وكذا يسبقك القوم إلى دار السلام .

روى أن الرجل إذا قام للصلاة يقول الله تعالى للملائكة : ما حمل عبدى على أن قام
يصلى من بين أهل داره ؟ فيقولون : يا ربنا خوفته أمرا نخافه ، ورجيته أمرا فرجاه ، فيقول
الله تعالى : اشهدوا أنى قد أمنت به مما يخاف ، وأعطيته ما يرجو . وقال ثابت البناني : إذا نمت
ثم استيقظت ثم ذهبت لأنام فلا نامت عيناى أبدا . وكان السلف الصالحون يسمع في بيوتهم
بالليل دوى كدوى النحل . ومكث سرى السقطى تسعين سنة ما وضع جنبه على
الأرض .

لو ذاق الغافل السهر في الظلام ، أو سمع الجاهل حس الصالحين عند القيام ، وقد نصبوا
الأقدام وهمهم تجرى إلى القيام ، ولذذوا بأشرف الذكر وأحلى الكلام ، وضربوا على
شاطىء أنهار الصدق الخيام ، وجهزوا مطايا الشوق إلى دار السلام ، وسرت قوافلهم وأهل
العقلة نيام ، وشكوا إلى محبوبهم ما يلقون من الغرام ، ووجدوا من لذة الأنس ما لم يخطر
على الأوهام ، فإذا أصبحوا لبسوا جلباب الصيام ، وصابروا الهواجر بهجر الشراب وترك

(١) إلى السباخ برائد: يعنى الأرض التى يضؤل نباتها أو يضعف .

العلماء، وتذرعوا بدروع التقوى حذرا من الآثام، فلاجلهم يسقى الأرض الغيث، وبدعائهم تجرى النعام، وبهم يسامح العصاة ويصفح عن الإجرام، فإذا جاءهم الموت طاب لهم كأس الحام، وإذا دفنوا في بقعة افتخرت بتلك العظام، فعلى الدنيا من بعدهم السلام.

فسيهان من طهرهم من الأدناس، واصطفاهم لخدمته من بين الناس، وسقامهم من شراب حبه، أطيب كأس، ماشر بها صادق حق نزع من قلوبهم الغل، وآوهم في ميدان الصدق في أوسع ظل، وحامهم من العدو إذا ضعى يستزل، منمك والله قبيدالموى حتى سار القوم، وحبسك عن لحوقهم لذيد النوم، وقطعتك فأنى الشهوات عن ثواب الصوم، والصلاة عندك أثقل من الصخر على الصدر، والزكاة عندك أثقل من جبل أحد، وصدرك في حديث الدنيا أوسع من البحر، وفي العبادة أضيق من تسعين عقدة. أنت في شهواتك أجرى من جواد، وفي العبادة أبطأ من أعرج، يامن هو على نجاحه أنوم من فهد، ضيعت وقتنا أنفس من الدر. إذا عرضت لك خطيئة وثبت كالنمر، وإذا لاحمت لك طاعة زغت كالثعلب، تستعمل في معاملتك غدر الذئب، وتقدم على حظك إقدام الأسد، وتخطف الأمانة اختطاف الخدأة، وما هذا وصف الصالحين.

قال سلمان الفارسي: كل ما شغلك عن الله تعالى من أهل أو مال فهو عليك مشنوم. قال بعضهم: رأيت شابا جميل الصورة عليه عباءة خشفة. فقلت ما هذا اللباس؟ قال يا أخى إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبيد، فإن أعقتنى سيدي لبست ماشئت. وقال عيسى عليه الصلاة والسلام لأصحابه: الحق أقول لكم، إنه من طلب منكم الفردوس فأكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب كثير في حقه.

ودخل رجل على أبي ذر فوجد بيته فارغا فكلمه في ذلك فقال: إن لنا بيتا أصالح من هذا، فما كان عندنا من صالح متاعنا وجهناه إلى ذلك البيت، فقال الرجل: لا بد لكم في هذا البيت من شيء، فقال إن صاحب هذا البيت لا يدعنا فيه. وروى «أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن ربك يقول لك أحب أن أجعل لك هذه

الجبّال ذهباً تكون معك حينما كنت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل : إن الدنيا دارٌ من لا دارَ له ومالٌ من لا مالَ له ، ولها يجمعُ من لا عقلَ له ، فقال يا محمدُ ثبّتكَ اللهُ بالقولِ الثَّابتِ « وقيل ل محمد بن واسع : لم لادخلت على السلطان ؟ فقال : لأن ألقى الله مؤمناً مهزولاً خير من أن ألقاه منافقاً سميناً . وفي صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام : يادنيا ما أهونك على الأبرار ، الذين تصنعت لهم وتزينت ، إني قدفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك ، ما خلقت خلقاً أهون على منك كل شأنك صغير ، وإلى الفناء يصير ، إني قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدوم لأحد ، ولا يدوم لك أحد ، وإن بخل بك صاحبك وشحّ عليك ، طوبى للأبرار الذين أطاعوني من قلوبهم على الرضا ، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة ، طوبى لهم ما لهم عندي من الجزاء ، إذا وفدوا إلى من قبورهم ، النور يسعى أمامهم ، والملائكة حافون بهم ، حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي . قال لقمان لابنه : يا بني إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيه ناس كثير ، فأتسكن فيه سفينةك تقوى الله تعالى ، وحشوها بالإيمان بالله ، وشراعها بالتوكل على الله لعلك ناج ، ولا أراك ناجياً . وقال الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه : حب الدنيا يخرج حلاوة الإيمان من القلب . قيل لبعضهم . إن فلاناً كان عابداً زاهداً ثم رجع إلى الدنيا ، فقال : لا تعجب ممن رجع وأعجب ممن يستقيم . وقال حاتم الأصم : الدنيا مثل ظلال إن تركته تراجع وإن تبعته تباعد . وكان العلماء بعضهم يكتب لبعض . من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله تعالى أصلح الله ما بينه وبين الناس . وقال عمر بن عبد العزيز : الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله ؛ أما أولياء الله تعالى ففهمهم ، وأما أعداء الله تعالى ففترتهم . عباد الله من رأى تصرف الدهر انقلب ، أما في القبر عبر ، وأعجباً لمن أشفق أن ينفق ماله وقد ضاق عمره . وكان رجل يبيع الثلج فبقى عنده شيء كاسد فجعل ينادى ويقول : ارحموا من يذوب رأس ماله . يامضيها أوقاته بالكسل ، متى كان الفقير كسلان فلا وجه للفقير . يا هذا تبيع قيام الليل بزيادة لقمة شربت

كأس النعاس ففاتك رفقة (تَجَاوَيْ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) نخرج عَلَى تَوْقِيعِ قِصَّتِكَ
عند السحر (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) والله لو بمت لحظة في خلوة بما يملك
قارون في عمر نوح لكنت مغبوناً خسرانا ، يا من اختار علينا ما لا قدر له عندنا يا ليتك بعثنا
بشيء أقبل فإنني مقبل عليك ، إن رمت طلبى فاطلبنى عندك ، ويسعنى قلب عبدي المؤمن ،
يا هذا لا ضرر يلحقنا في معاصيك ، إنما المطلوب سلامتك ، ولا نفع لنا من طاعتك ، إنما
المقصود كرامتك . من محبتنا لك ألزمتك الفرائض ، ومن غيرتنا عليك حرمتنا عليك
الفواحش ، كم ندعوك وتأنى إلا الهجر ونحن نحسن إليك وتأنى إلا الفدر ، فلا العهد رعيت ،
ولا بالقويم استويت ، يا هذا تهباً لسماع المواعظ بحضور قلبك ينفعك ما نسمع . إذا فاض
النهر وإن لم تحفر ساقية إلى زرعك لم يصل الماء إليه ، يا نائماً طول الليل إذا أصبحت فزر
أهل السهر واسألهم عما جرى لهم في وقت السحر ، فإذا أملوا عليك ما كان فاصتبه
في صحيفة خذك بمداد دمعك ، يا سوق الأكل أين أرباب الصيام ، يا فراش النوم أين
حراس الظلام ، درست المعالم ، وقوضت الخيام ، فلي أطلأهم منى السلام ، يا نائماً في سفينة
الأمن لا تنظر إلى سكونك فإنما يسار بك وأنت لا تشعر . يكتب الأوزاعي إلى بعض
إخوانه : اعلم يا أخى أنه قد أحيط بك من كل جانب ، وأنت يسار بك في كل يوم وليلة
مرحلتين ، فاحذر الله والسلام .

ذكر الفرح

عباد الله : إن الفرح بفضل الله ورحمته هو السرور ، وإن الفرح بالحفظ العاجلة هو
الفرور ، فاشكروا نعمة الله تعالى عَلَى ما يسر لكم من صيام رمضان ، وأعطاكم من نعمة
الإيمان ، فقد أمركم بذلك من بنوره يهتدى المهتدون . فقال تعالى : (وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ
وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

وودعوا شهر رمضان بكثرة الاستغفار من التقصير ، والعزم على دوام الجدد والنشير ،

ألا وإن من كان يعبد محمداً فمحمداً قد مات، ومن كان يعبد رب محمد فإن رب محمد حي*
لا يموت ، فإن رمضان قد تهيأ للرحيل ولم يبق منه إلا القليل ، بل بقي منه سبع ليالٍ وقد فاز
المجتهدون بالنوال ، وقد بقي منه ليلة أو ليلتان وقد صار أترأ بعد عين ، بقيت منه ليلة واحدة
وقد اقتسم العاملون فوائده ، بقي منه بقية هذا اليوم وكأنه طيف زار في النوم ، فلقد كان
للعقنين روضة وأنسا ، وللغافلين قيداً أوحسباً . كان نزهة الأبرار ، وقيدا الأشرار ، فطوبى
لمن حل فيه عقدة الإصرار ، وحل في روضة التقوى في منزل الافتقار :

أَيُّ شَهْرٍ قَدْ تَوَلَّى بِأَعْيَادِ اللَّهِ عَنَّا
حَقٌّ أَنْ نَبْكِي عَلَيْهِ بِدِمَاءِ لَوْ عَقَلْنَا
كَيْفَ لَا نَبْكِي لِشَهْرِ مَرٍّ بِالْغَفْلَةِ عَنَّا
نُمُّ لَا نَعْلَمُ أَنَا قَدْ قُبِلْنَا أَوْ طُرِدْنَا
لَيْتَ شِعْرِي مَنْ هُوَ الْمَخْرُومُ وَالْمَطْرُودُ مِنَّا
وَمَنْ الْمَقْبُولُ مِمَّنْ صَامَ مِنَّا فِيمَنَّا
كَانَ هَذَا الشَّهْرُ نُورًا بَيْنَنَا بِزَهْرٍ حُسْنًا
فَجْعَلِ اللَّهُمَّ عَقْبِي لَنَا نُورًا وَحُسْنًا

يا إخوان شهر رمضان عليكم بالاجتهاد في باقيه ، وتلافوا فقر بطاكم ما أسكن
تلافيه ، فكم متأهب ليوم فطره فيصبح يوم العيد في قبره ، قد فارق الإخوان وعدم الخللان
أين الذين كانوا معكم في عيدكم الماضي فذهبوا ، وأين الذين كانوا في مثل هذا العيد قد
فرحوا وطربوا ، أملوا أملاً شديداً وتوهموا البقاء فبينوا مشيدا فاختطفهم ريب المنون ، فأبلى
منهم ما كان جديداً وسيعابنون لفراقه كأسا مرَّ المذاق ، فكم بين من يرى رمضان
كأنه حبيب زار بعد طول بقاء ، وطيف خيال ألم في طيف سهاد ، فقد شغلته أنسه بحبيبه عن
الأنام ، فهو يتمنى لو كان على الدوام قد هجر فيه لذيق المنام ولزم الوقوف في حندس^(١) الظلام ،

(١) الحندس : شدة الظلمة .

وآخر يرى رمضان موسماً لنيل الشهوات ، وبعد أيامه استعجالاً لأوقات البطالات .
وآخر قد فرط في الإنابة والعوبة ، وقصر عن الإجابة والأوبة ، فازداد بمرضان وزراً على
وزره ، واكتسب بأيامه خسراً على خسره ، ولم يزود منه ليوم حشره ، ورضى بإبعاده
وهجره ، والسميد في يوم العيد يتذكر الوعد والوعيد ، ويطلب من مولاه المزيد ، فهو
يوم بتفضل فيه الملك الحميد بعتق الإمام والعبيد .

وروى أن الله تعالى يقول للملائكة إذا اجتمعوا لصلاة العيد : « ياملائكتي ماجزاء
من وفى عمله ؟ فيقولون ياربنا يوفى أجرته » ، فيقول : أشهدكم ياملائكتي أنى قد غفرت
لهم . قال الفراء : إنما سمي العيد عيداً لعود السرور فيه ، لكن شتان ما بين سرور وسرور ،
قوم سرورهم بمولاهم ، ونعيمهم وقوفهم على بساط نجومهم (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) . وقوم سرورهم بدنياتهم الباطلة ، ونعيمهم بحفظهم
الزائلة (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ) . فإذا رأيت يوم العيد خروج الناس من الدور فاذا
خروج الأموات من الأجداث يوم النشور ، وآخر يزين بأغفر ثيابه ، وآخر حزين لأجل
مصابه ، وآخر يتعطر بأطيب الروائح ، وآخر يسمع في داره النوايح ، وهم ما بين ماش
وراكب ، مصحوب وصاحب ، ومطلوب وطالب ، وكذلك يخرجون يوم القيامة ، واحد
يأتى فرحاً مسروراً ، وآخر يدعو وبلاً وثبوراً (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا
وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا) وإذا رأيت أنواع الخلائق إلى الفضاء قد برزت ،
فاذا كر نشر الأعلام للسعداء إذا ساروا إلى دار السلام ، وإذا رأيت الخلائق قد اجتمعت
وللآذان قد استمعت ، فاذا كر وقت الوقوف بين يدي الملك الديان ، إذا شخصت الأبصار ،
وصفت الآذان (وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ) وإذا رأيت تفرق الناس من المصلى كل
يذهب إلى منزله ومأواه ، فاذا كر يوم يصدر الناس أشتاتاً عن مورد القيامة ، كل إلى محله
ومثواه . ليس الطيب في العيد ين تعطيه بريح العود ، وإنما الطيب أن تقوب فلا تعود ،
وتعمرى من لباس السمعة والرياء وتلبس ثياب الورع والحياء ، وتعطيب بطيب الصدق
(١٢ - طهارة التلويح)

والوفا، وتركب مركب الود والصفاء، وتتجلى بالعبادة وترتدى بالزهادة، وتتمنطق بالصيانة وتتختم بالأمانة وتخرج إلى المصلى خروج وجل من الرد، وتمشي مشى خجل من الصد، وتخاف أن تكون أعمالك مرعودة معلولة، وطاعتك غير مقبولة، وتكبر تكبير من عظم ربه، وتصاغت عنده نفسه وتذكر ذنبه، وتقف في الصلاة وقوف خاشع، وتركع ركوع خاضع، وتسجد سجود طامع، وتجلس لسماع الخطبة كمن أحضر للحساب وهو ينتظر ما يرد عليه من الخطاب، وإلا فما ينفع التزين باللباس البيض، والقلب في وهم الدنيا مريض وما يفيد التزين باللباس ولم تنزع رداء الإلباس.

ومر بعض الصالحين على شباب يلعبون يوم الفطر فقال : يا هؤلاء ! إن كان صومكم قد قبل فما هذا فعل الشاكرين ، وإن كان صومكم لم يقبل فما هذا فعل الحزوين ، فوقع كلامه في قلوبهم وتركوا المصوم . ودخل رجل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم عيد فوجده يأكل خبزاً خشناً فقال يا أمير المؤمنين يوم العيد تأكل خبزاً خشناً ، فقال اليوم عيد من قبل صومه ، وشكر سعيه ، وغفر ذنبه ثم قال اليوم لنا عيداً وغداً لنا عيد ، وكل يوم لانعمي الله تعالى فيه فهو لنا عيد .

قَالُوا غَدًا الْعِيدُ مَاذَا أَنْتَ لَا يَسُّهُ فَقُلْتُ خِلْمَةٌ سَاقِي حَبِّهِ جَزَعَا
فَقَرُّ وَصَبْرٌ هُمَا ثَوْبَانِ تَحْتَهُمَا قَلْبٌ بَرَى إِلْفَهُ الْأَعْيَادَ وَالْجَمَاعَا
أَوْلى الْمَلَائِسِ أَنْ تَلْقَى الْحَبِيبَ بِهِ يَوْمَ الزِّيَارَةِ فِي الثُّوبِ الَّذِي خِلْمَا
الدَّهْرُ مَا تَمُّ لِي إِنْ غِيبَتْ بِأَمَلِي وَالْعِيدُ مَا كُنْتُ لِي مَرَأًى وَمَسْتَمِعَا
لَا كُنْتُ إِنْ كَانَ لِي قَلْبٌ يَحْنُ إِلَى خِلٍّ سِوَاكَ وَلَوْ قَطَعْتَنِي قِطْعَا

وقف عمر بن عبد العزيز بعد الصلاة يوم العيد فقال : اللهم إنيك قلت وقولك الحق (إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) فإن كنت من المحسنين فارحني ، وإن لم أكن من المحسنين فقد قلت (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) فارحني وإن لم أكن من المؤمنين فأنت أهل القوى وأهل المغفرة فاغفر لي ، وإن لم أكن مستحقاً لشيء من ذلك فأنا صاحب

مصيبه وقد قلت (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) . اللهم فارحمي .

وقد بشر الحنفي يوم العيد في طرف الناس ، فقيل له لم لا تتوسط الناس في الصفوف ؟
فقال : هذا موضع السائل الضعيف ، فلما انصرف الناس صاح : إلهي جئنا نرضيك فياليتنا
لا نخصيك ،

اللهم أصلح لنا ضمائرنا ، ونزه عن التعاق بغيرك خواطرنا ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع
المسلمين آمين آمين .



مرکز تحقیقات کتب و تاریخ اسلامی

الفصل الثامن عشر

في العبودية وذكر العشر

الحمد لله الذي تفرد بأوصاف عظمته وكاله ، وتقديس بعز كبريائه وجلاله ، وتوحد بالخلق والإبداع فلا شريك له في أفعاله ، وعم كل مخلوق جزيل إفضاله ونواله ، وخص المؤمنين بتوحيده فضلا وإنعاما . أدلة وجوده وآثار جوده للعقول ظاهرة ، والأفهام عن إدراك ذاته والإحاطة بصفاته قاصرة ، والأسرار في تعظيمه داهشة حائرة ، والأفكار إذا نظرت في عجائب صنمته قصرت عن إدراك حكمته ورجعت خاسرة ، والأرواح إذا هب عليها نسيم إسماعده رقت في رياض وداده تيهام وهيما ، هو الأول والآخر بالتقدم والبقاء الظاهر والباطن بالقهر والكبرياء ، القدوس الصمد الغني عن جميع الأشياء ، الواحد الأحد المنزه عن جميع الأنساب والشركاء ، العزيز الذي يعز من والاه ويذل من ناواه قهراً وإرغاماً ، الحى العليم فلا يخفى عليه خافية ، السميع البصير سواء عنده السر والعلانية ، المريد القدير وشواهد قدرته واضحة كافية ، المتكلم بكلام قديم أزلى وصلت بركاته إلى القلوب الصافية ، صفاته ثابتة بالأدلة فلا يجحدها إلا من عمى أو تعامى ، عظم ربك بنفى التشبيه مع إثبات صفات الكمال ولا تركز إلى جهود المشبهين فإنما تعلقوا بالوهم والخيال ، ولا تصغ إلى شبه الممثلين « فَمَا ضَلَّ قَوْمٌ إِلَّا أُولُوا الْجِدَالِ » وكفى من الذين مدحهم الله تعالى بقوله وله العز والجلال : (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) تبطل بذكره وتمسك بكتابه وتنعم بمناجاته ، فكفاك أن يراك من الواقفين ببابه ،

ألم تسمع قوله تعالى مبشراً لأحبابه : (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) مولى إن أطمعته أدناك، وإن اكتفيت به أغفأك، وإن دعوته لباك، وإن أدبرت عنه ناداك، فكم غمر ببرد، وستر بستره عصيانا وإجراما .

أحمد على ما أسبغ من جزيل المعطاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، رب الأرض والسماء، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم الرسل والأنبياء، صلى الله عليه وسلم وصلى آله وأصحابه الأئمة الأتقياء، صلاة يزيدهم بها شرفاً وعزاً وتقرباً وإكراماً، انطرد الظلام، وانتظم الكلام، وغرد الحمام وبكى الغمام، فضحكت الرياض ابتساماً، في قول الله عز وجل : (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) الآيات . وقوله تعالى : (إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِ الرَّحْمَنِ عَبْدًا) وإنما هؤلاء خواص العباد، والخصوصون بالقرب والوداد، مدحهم الله تعالى في هذه الآيات بأوصاف العبودية . ومعنى الآية : خواص عباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض هونا والذين لهم هذه الأوصاف هم الذين يجزون الغرفة بما صبروا يعني الجنة ويلقون فيها تحية وسلاماً يسلم الله عليهم فيسمعون كلامه القديم : (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) (وَالْمَلَائِكَةُ بَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ) (الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) برفق وتواضع من غير طيش ولا كبر ولا مروح، قال الله تعالى : (وَلَا تَمْسُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) معناه أنت أقل وأضعف، فإنك لن تقدر أن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال بتماعظك وتكبرك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ يَجْرُ ثَوْبُهُ خِيَلًا » وفي الحديث : « طَوْبِي لِمَنْ تَوَاضَعَ مِنْ غَيْرِ مَنَقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْكَنَةٍ ، وَأَنْفَقَ مَالًا جَهَنَّمُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفَقْرِ وَالْحِكْمَةِ » .

وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ إِلَّا تَوَاضَعًا فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ مِمَّنْ مِنْكَ أَرْفَعُ
فَإِنْ كُنْتَ فِي عِزٍّ وَجَاهٍ وَمَنْعَةٍ فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ مِمَّنْ مِنْكَ أَمْنَعُ
قال الله تعالى : (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) أى قالوا قولا فيه السلامة
من الإثم من غير مقابلة ولا أذى ، وهذا من محاسن الأخلاق ، وقد أرشد إليه العليم الحكيم
بقوله تعالى : (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)
معناه ادفع إساءة من أساء إليك بإحسانك إليه تنقلب عداوته مودة . قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِمَّا الشَّدِيدُ بِدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ
الغَضَبِ » وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : أول فائدة الحليم أن الناس كلهم أنصاره .
وَإِذَا الْمُسِيءُ جَنَى عَمَلَيْكَ جِنَابَةً فَاقْتُلْهُ بِالْمَعْرُوفِ لَا بِالْمُنْكَرِ
أَحْسِنْ إِلَيْهِ إِذَا أَسَاءَ فَإِنَّهُ مِنْ ذِي الْجَلَالِ يَسْمَعُ وَيَنْظُرُ
وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أَمِرْتُ بِمُدَارَاةِ النَّاسِ » ويقال
في المداراة سلامة الدنيا والدين ، وفي المقابلة تعريضهما للخطر :

مَا دُمْتَ حَيًّا فَدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمْ فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي دَارِ الْمَدَارَاتِ
مَنْ يَذَرِ دَارَ مَنْ لَمْ يَذَرِ سَوْفَ يَرَى عَمَّا قَلِيلٍ نَدِيمًا لِلْبِدَائِمَاتِ
ومن دارى الناس واحتمل أذاهم طلبا للسلامة لدينه فقد وافق الحكمة ، فإن من رأى
الأفعال من الله تعالى لم يعتب على أحد من الخلق ، فهذا صاحب توحيد ومعرفة ، ومنهم
من يحصل الأذى ويراه جزاء لذنوبه فيشتغل بلومه لنفسه ، وآخر يحتمل الأذى امتثالاً
لربه وطلباً للثواب في الآخرة .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ
الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ » وفي الحديث « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ
دَرَجَةً الْقَائِمُ بِاللَّيْلِ الظَّالِمُ بِالْهَوَاجِرِ » ولى الأحنف بن قيس شخصا بمنى فزاحمه
فشتمه ولم يعرف أنه الأحنف ، فلم يزل يسبه حتى وصل إلى عرفة ، فأمسك الأحنف زمام

ناقته ووقف وقال : يا هذا قل كل ماني نفسك لثلاث سمعتك أحد من قومي فيؤذيك ،
فصرف حينئذ أنه الأحنف فاعتذر له واستعفى . وقال له رجل يوما والله يا أحنف لن كلمة
كلمة لأكلمتك عشرا ، فقال له الأحنف لكن أنا لو كلمتني عشرا ما كلمتك واحدة .
وقالت امرأة لملك بن دينار يامرائي ، فقال هذه المرأة قد أصابت اسمي الذي أضله أهل
البصرة . وقال تعالى (وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) هؤلاء بالليل أحياء والناس
بالنهار موتى قال تعالى (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) أى كان نومهم بالليل قليلا ولم
يزل الصالحون أصحاب قيام وصيام لأصحاب دعاوى وكلام ، ولذلك كانت رؤيتهم موعظة
قبل روايتهم ، فأما من وعظك بغير حاله فهو كمن أعطاك من غير ماله . ويقال من ادعى
بغير حاله فهو كالمتنخر بغير ماله . ويقال عمل رجل في ألف رجل أضع من كلام رجل
في رجل . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِيَنِي بِقِيَامِ
اللَّيْلِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْ خِيَارَ أُمَّتِي لَا يَنَامُونَ » وقال عيسى عليه الصلاة والسلام : لا تأكلوا
كثيرا فتشربوا كثيرا فتفاموا كثيرا فيفوتكم خير كثير ، كثرة النوم نقصان في العمر
وخسران في الحشر :

تَعَوَّذْ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ	لِإِنْ النَّوْمَ خُسْرَانُ
وَلَا تَرْكَنْ إِلَى ذَنْبٍ	فَعَقَبَى الذَّنْبِ نِيرَانُ
وَقُمْ لِلْوَاحِدِ الْمَعْبُودِ	دِ قُلِّقُرْآنِ خِلَانُ
إِذَا مَا جَنَّهْمُ نِيلُ	فَعُهُمْ فِي اللَّيْلِ رُهْبَانُ
يَنَامُ الْغَافِلُ السَّاهِي	وَمَا فِي الْقَوْمِ وَشْنَانُ ^(١)
وَيَلْمُهُو الْمَعْرِضُ اللَّاهِي	وَعِنْدَ الْقَوْمِ أَحْزَانُ
فَمَا يُلْمُهُمْ رَبُّعٌ	وَلَا أَهْلٌ وَإِخْوَانُ
هُمْ وَاللَّهِ فِتْيَانُ	إِذَا مَا قَيْلَ فِتْيَانُ

(١) الوسن : هو النعاس الخفيف .

الناس نيام وهم قيام ، الناس هجوع وهم ركوع ، الناس رقود وهم سجود ، الناس مع الخلق وهم مع الحق ، شتان ما بين من أنيسه المولى القريب ، وخلوانه مع الحبيب من غير رقيب ، وبين من أوقاته تمر في غير طائل ، وسروره بغير زائل ، ومسامرته في ليل وباطل قال القائل :

لِلَّهِ قَوْمٌ أَخْلَصُوا فِي حُبِّهِ فَأَخْتَارَهُمْ وَرَضِيَ بِهِمْ خُدَامَا
قَوْمٌ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ عَلَيْهِمْ أَبْصَرَتْ قَوْمًا سُجَّدًا وَقِيَامَا
يَتَلَذَّذُونَ بِذِكْرِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَيُسْكَا بِذِي النَّهَارِ صِيَامَا
فَسَيَمْتَمُّونَ عَرَائِيسًا بِعَرَائِيسٍ وَيُبْهِوْنَ مِنَ الْجِنَانِ خِيَامَا
وَتَقْرَأُ أَعْيُنُهُمْ بِمَا أَحْفَى لَهُمْ وَسَيَسْمَعُونَ مِنَ الْجَلِيلِ سَلَامَا

ويقال الليل المحبين سهر على كل حال ، فمن كان وقته وقت فراق وهجر ، فهو يقول :

كَمْ كَثِيلَةٍ قَضَيْتُهَا سَاهِرًا لَمَّا تَوَلَّى هَجْرُكُمْ مُغْرِبًا
أَطُوفُ فِي ظُلُمَاتِهَا مُبْهِرًا وَلَيْسَ ضَوْؤُهُ مِثْلَ ضَوْءِ الرُّضَا

فإذا كان يوم القيامة يكون الناس على جبر الغضا ، وعباد الرحمن على بساط الرضا ، الناس في الكرب والشقاء . وعباد الرحمن في القرب واللقاء ، جزاء السهر النظر ، وجزاء الغنى نيل النى .

حَجَبْتُ عَيْنِي عَنْ رُؤْيَاكَ يَا أَمَلِي فَلَوْ مَنَنْتَ عَلَى عَيْنِي بِالنَّظَرِ
حَتَّى أَقُولَ لِعَيْنِي عِنْدَ رُؤْيَتِكَ هَذَا جَزَاءُ لَطُولِ الدَّمْعِ وَالسَّهْرِ

يا هذا سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر الهجامة ، تجتمع جنود السكسل ، فتتعاقد بذيل النواى ، وتزين حب النوم ، وتزخرف طيب القراش ، وتخوف برد المساء ، فإذا نارت شعلة من نار العزم أضاءت بها طريق القصد ، فسمعت أذن اليقين نداء : هل من سائل ، هل من مستغفر ، هل من تائب ؟

فَقُمْتُ أَفْرُسُ خَدِّي فِي التُّرَابِ لَهُ ذُلًّا وَأَشْحَبُ أَجْفَانِي عَلَى الْأَثَرِ

رياح السحر أقوات الأرواح ، عبارة النسيم لا يفهمها إلا المشتاق ، حديث البرق لا يروق إلا للأحباب ، خلوا بالحبيب على بساط المناجاة ، فكساهم ثياب الوصلة ، وضمخهم بطيب المعاملة وغالية السحر ، يصيحون وعليهم سيبا القرب ، تفوح أرواح نجد من ثيابهم ، تأسف يا حيفة النوم ، أهلك يا عريان الغفلة ؟ ويحك أتدري كيف مر عليهم الليل ألك علم بما جرى للقوم ؟ أنعلم حال كيف بات للتيق ؟ رحلت رقيقة تتجافى جنوبهم عن المضاجع قبل السحر ، ومطروود الغوم في حبس الرقاد ، فما فك عنه السجان قيد الكرى ، حتى استقر القوم بالنزل فقام يتلمح الآثار .

حَدَّ الْمُدَّ لِحْجُونٍ غِبَّ سُرَّامُ وَكَفَى مِنْ نَأْخِرِ الْإِبْطَاءِ

آخر :

حَدَّثَ فَتَدَّ نَابَ تَمِيَّ الْيَوْمَ عَنْ بَصَرِي قَنَعْتُ فِي الْحَبِّ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ
بِاللَّهِ قُلْ لِي أَحَادِيثَ الَّذِينَ مَضَوْا إِنْ كُنْتَ مُطْلِعًا مِنْهُمْ عَلَى خَبَرِ
ملئت بالقوم الأشواق ميل الريح بالأغصان ، هز الخوف أفنان^(١) القلوب ، فانتثرت
الأفنان ، فاللسان يضرع ، والعين تدمع ، والوقت بستان . أخذوا من الدنيا الكفاف ،
وقالوا نحن ضيفان ، باعوا الحرص بالقناعة بما ملك أنوشروان ، أين أنت منهم ، مانأثم
كيةظان ، كم بينك وبينهم ، أين الشجاع من الجبان ، شغلهم الخلة بالحبيب عن نعم
ونعمان ، اشتاقوا إلى لقاء مولاهم والحب ظمآن ، فإذا وردوا القيامة تلقاهم بشير ، لولاهم
ماطابت الجنان (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ) .

قال الجنيد : رأيت في المنام ملكا من الملائكة فقال لي : أقرب ما يقترب به المتقربون .
ماذا ؟ قلت عمل خفي ، بميزان وفي . فأنصرف الملك وهو يقول كلام موفق والله (وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ) هؤلاء مع الطاعات والاجتهاد خائفون ، وعلى
باب الفل والافتقار واقفون ، وبين يدي مولاهم بأمرارهم عاكفون ، يسألون مولاهم

(١) أفنان القلوب : أغصانها ، ومنها قوله تعالى : (ذواتا أفنان) .

صرف العذاب ، ويخافون من إقامة العدل والتوبيخ والعتاب ، ويخشون سطوة القهر وصوله العز والمنع والحجاب ، والناقل مع تفريطه وإهماله وتقصيره في أعماله ، قليل الفكرة في حاله وماله ، فشتان ما بين الفريقين ، وما أبعد هاتين الطريقتين .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأسامة بن زيد « يَا أُسَامَةُ إِيَّاكَ وَدُعَاءَ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ أَذَابُوا اللَّحُومَ وَأَخْرَقُوا الْجُلُودَ وَغَشَيْنَهُمْ أَبْصَارُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ بِأَمْرِ بِهِمْ مَلَائِكَتَهُ » بهم يصرف الله تعالى الزلازل والفتن (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا) بإنفاق أموالهم في المعاصي والتهو والعبث وما لا فائدة فيه (وَلَمْ يَقْتُرُوا) لم يعمسوا حق الله تعالى من أموالهم ولم ييخسروا بما أمروا بالإنفاق فيه من مصالح نفوسهم وعيالهم (وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) أى وسطاً أى ينفقون في الطاعات وفيما يحتاجون إليه من المباحات (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) أى يوحدون الله تعالى ويحفظون أنفسهم وأيديهم عن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ويحفظون فروجهم عما حرم الله تعالى (وَلَا يَمُوتُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ) قتلها (إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ) أى واحداً من الثلاثة (يَلْقَ أَثَامًا) أى عقوبة (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْلًا) أى من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً منهم (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ) المذكورة (حَسَنَاتٍ) في الآخرة (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) أى لم يزل متصفاً بذلك ، (وَمَنْ تَابَ) من ذنوبه غير من ذكر (وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) أى يرجع إليها رجوعاً فيجازيه خيراً (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) أى لا يشهدون شهادة الزور لا يحضرون مواضع الباطل ومجالس الفسق (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ) أى بمواضع الباطل (مَرُّوا كِرَامًا) يكرمون أنفسهم بصونها عن الاشتغال بالباطل (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) أى لم يتصاموا عن سماعها ولم يتعموا عن تدبرها (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّعِينَ إِمَامًا) أى يسألون الله تعالى أن يجعلهم من الصادقين ليهتدى بهم من يحتاج إلى

معرفة طريق المتقين . سئل الجنيد رضى الله عنه عن عباد الرحمن من هم ؟ فقال : هم الذين طاعة الله حالوتهم ، والفقر كرامتهم ، وترك الدنيا لذتهم ، وإلى الله حاجتهم ، والتقوى زادهم ، ومع الله تعالى تجارتهم ، وعليه اعتمادهم ، وبه أنسهم ، وعليه توكلهم ، والجوع طعامهم ، وحسن الخلق لباسهم ، والسخاء حرقهم ، والعلم قائدهم ، والصبر سائقهم ، والهدى مركبهم ، والقرآن حديثهم ، والشكر زينتهم ، والذكر همتهم ، والرضا راحتهم ، والتقناعة ما لهم ، والعبادة كسبهم ، والحياء قيضهم ، والخوف سجيئتهم ، والنهار عبرتهم ، والليل فسكرتهم ، والحكمة سيفهم ، والحق حارسهم ، والحياة مرحلتهم ، والموت منزلتهم والنظر إلى الله تعالى مثيتهم فهو لاء عباد الرحمن . ويقال للعبودية أربعة أركان : صحة العقد ، وصدق القصد ، والوفاء بالعهد ، وحفظ الحد فصحة العقد الإيمان بالله ، وصحة الاعتقاد من غير تشبيه ولا تعطيل ، وصدق القصد الإخلاص لله تعالى ، والوفاء بالعهد امتثال الأوامر ، وحفظ الحد اجتناب النواهي . ويقال العبودية أن تكون عبدا لله على كل حال كما أنه ربك . وقال سهل بن عبد الله أجمل مقام في العبودية ترك التدبير والاختيار . ويقال العبودية أن تسلم إليه كُلاكَ وتحمل عليه كُلاكَ^(١) وقال رجل لبعض الصالحين ضاقت بي الخيلة قال فما الخيلة ؟ قال قصر اليد ، وتغفير الخلد ، وخوف الصد

ذكر فضيلة العمل في عشر ذي الحجة

عباد الله هذه ليالى العشر التى أقسم الله بها فى سورة الفجر فقال تعالى (وَالْفَجْرِ) أى أقسم بالفجر ، وهو كل فجر ، وقيل يوم الفجر لأنه آخر وقت الوقوف بعرفة ، وقيل فجر أول يوم المحرم ، وقيل عني به صلاة الصبح (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) هى عشر ذي الحجة عند أكثر المفسرين . رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل هى العشر

(١) الكَلَّ : هو الحمل الثقيل .

الأواخر من رمضان ، وقيل الأول من المحرم . قال مجاهد : ليس عمل في أيالي السنة أفضل منه في ليالي العشر ، وهي عشر موسى التي أممها الله تعالى له . روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا مِنْ أَيَّامٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ لَهُ فِيهَا مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ صِيَامُ كُلِّ يَوْمٍ مِنْهَا بِصِيَامِ سَنَةٍ وَصِيَامُ كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْهَا بِصِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

وروى مالك رضي الله تعالى عنه في موطنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَا رَأَى الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْفَرٌ وَلَا أَذْهَرٌ وَلَا أَحْقَرٌ وَلَا أَغْيَظَ مِنْهُ فِي يَوْمٍ عَرَفَةَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا يَرَى مِنْ تَنْزِيلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ تَعَالَى هُنَ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرِ ، قِيلَ وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلَائِكَةَ » .

وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ » . وروى مسلم عن أبي قتادة « أَنَّ رَجُلًا أَتَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : كَيْفَ نَصُومُ ؟ فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ ، فَلَمَّا رَأَى عَمْرُ غَضَبَهُ قَالَ : رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَمِلَ يَرُدُّ هَذَا السَّكَّامَ حَتَّى سَكَنَ غَضَبُهُ فَقَالَ عَمْرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَمْنُ بِصَوْمِ الدَّهْرِ كُلِّهِ ؟ قَالَ : لَا صَامَ وَلَا أَفْطَرَ ، أَوْ قَالَ لَمْ يَصُمْ وَلَمْ يَفْطَرْ ، قَالَ كَيْفَ يَمْنُ بِصَوْمِ يَوْمَيْنِ وَيَفْطَرْ يَوْمًا ؟ قَالَ أَوْ يَطْلِقُ ذَلِكَ أَحَدٌ ؟ قَالَ كَيْفَ يَمْنُ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَيَفْطَرْ يَوْمًا ؟ قَالَ ذَلِكَ صَوْمُ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؟ قَالَ كَيْفَ يَمْنُ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَيَفْطَرْ يَوْمَيْنِ ؟ قَالَ وَدِدْتُ أَنِّي طَوَّعْتُ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ثَلَاثَةٌ مِنْ كُرِّ شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ فَمَهَذَا صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ ، صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحَدَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ ، وَصِيَامُ عَاشُورَاءَ أَحَدَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ

يُكَمِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ « فينبغي للمؤمن أن يُقبلَ في العشر على العبادة ، ويعظم ما عظم الله تعالى من حرمة . وأشرف أيام العشر يوم عرفة ، فيه أكمل تعالى شرائع الإسلام ، وذلك أن الله تعالى فرض على هذه الأمة شهادة التوحيد وتصديق الرسل ، وركعتين أول النهار وركعتين آخره ، ثم فرض الصلوات الخمس ليلة المراج قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا ، ثم فرض الزكاة وصيام رمضان بالمدينة ^{مكة} بعد الهجرة بسنة ، ثم فرض الحج سنة تسع من الهجرة فحج المسلمون من المدينة ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم أبا بكر رضي الله عنه ثم نزل أول براءة فأقرأها النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وبعثه فالحق الحاج فقرأها على الحاج بعرفة ، وأمر مناديا ينادي أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع سنة عشر ، فأزل الله تعالى عليه يوم عرفة وكان يوم الجمعة (الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) ومعناه أن المشركين كانوا يطعمون أن يقهروا المسلمين ويظهروا عليهم فيبطلوا الإسلام وينهبوه ، فلما فتح المسلمون مكة ودخلوها ظاهرين وحجوا حجة الوداع ومنعوا المشركين انقطع أطماع الكفار ، فتقديره (الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ) اليوم أكملت شرائع دينكم ، وخصصتم بالحج دون الليل ، وجعلت الحج في وقت معلوم وكانت الجاهلية يحججون كل سنة في شهر حتى اختلطت أشهر الحج وخفيت ، فيوم عرفة يوم كمال الدين وإتمام النعم .

قال ابن مسعود : ما من عبد يدعو الله تعالى بهذه الدعوات ، ثم يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه : سبجان الذي في السماء عرشه ، سبجان الذي في الأرض حكمه ، سبجان الذي في القبر قضاؤه ، سبجان الذي في البحر سبيله ، سبجان الذي في النار سلطانه ، سبجان الذي في الجنة رحمته ، سبجان الذي في القيامة عدله ، سبجان الذي رفع السماء ، سبجان من بسط

الأرض ، سبحانه الذي لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .
 والأيام المعلومات أيام النحر ، وقد أمر الله تعالى بالذكر فيها .
 وروى في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَيَّامُ النَّشْرِ بَقِيَّ أَيَّامُ
 أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى » .
 وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنها الأيام المعدودات والله تعالى أعلم . والأيام
 المعلومات لا يكف فيها رجل بصرة عما لا يحل له إلا كتب الله له مثل أجر من يجمع ،
 وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



مركز تحقيقات کتب و تراث اسلامی

الفصل التاسع عشر

في القلوب

الحمد لله العليم الخبير ، الحى السميع البصير الجيب ، العلى الكبير الخالق البديع القدير ،
هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، الملك الواحد الأحد الذى رفع السماء بغير عمد ،
ودحا الأرض على الماء ومهد ، المنزه عن الصاحبة والوالد والولد ، الفنى عن الأدوات
والجهات والأماكن ، زين السماء بزينة السكواكب ، وقابل بحكته بين المشارق
والمغارب ، فالعاصى مدبر كالهزيم الهارب ، والطائع مقبل كالخصيم الطالب . فانظر إلى
حركات عساكرها^(١) فى الليل الساكن ، ينزل الماء من السماء فيمتد وجه الأرض بمد
سكونه ، ويحمره بقدرته منقسما بين أنهاره وعيونه ، وينبت به الزرع والحب والفاكهة
والأب^(٢) ، ويظهر من الروض أنواع رياحيته (هَذَا خَلَقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ
دُونِهِ) أدلة التوحيد ظاهرة ، ولكن عقل الغافل المنافق واهن . تأمل عجائب بدائع
مصنوعاته ، وتدبر صفحات واضحات آياته ، وكف فكرك عن الجولان فى صفاته ، فغاية
العقل من الإدراكات المعجز عن الإحاطة بعد إثباته ، لا غاية للجلاله ، ولا نهاية لسكّاله .

(١) العسكر : بمعنى الجيش ، كأنه يعنى بها جنود الحق مبيحانه . ومنها قوله تعالى :

(وما يعلم جنود ربك إلا هو) :

(٢) الفاكهة والأب : الفاكهة : كل ما أكل رطباً . والأب : ما أنبت الأرض مما

تأكله الدواب ولا يأكله الناس .

من شبه فهو ملحد ، ومن عطل فهو جاحد مأث ، المشبه متعلق بالحس والخيال ، والمعطّل تائه في بيداء الضلال ، والمحقق مصدق بصفات الكمال ، معترف بالمعجز عن إدراك الجلال ؛ فسبحان ذي العزة والعظمة والكبرياء والجلال والإكرام والحاسن ، الذي أبْقَظ قلوب السعداء من سينة الرقاد ، وسأَمَها بمنابته من الشقاء والعناد ، وطهرها بمنته من دنس العباد ، وأنزل عليها من بحار رحمته مطر الوداد ، فذاقوا حلاوة الموعد بقوله سبحانه وتعالى (فيها أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) فأسرارهم بهجة بطيب ولانه ، وألسنتهم لهجة بحسن ثنائه ، وقلوبهم مشرقة بتعظيمه وكبريائه . وحرقتهم لانسكن إلا بقلائه ، فحينئذ يأمن الخائف ، ويخاف الآمن ، هنالك يقنبه من كان اليوم في نوم غفلته ، وينقطع قلب المفرط بما يتجرع من حسرته ، ويفدم على ما ضيعه من سالف مدته ، ويتضاعف ألمه إذا نوقش على قببح زلته ؛ فياحسرة على من حمل الأمانة ، ثم كشف ديوانه فإذا هو خائن ، فسبحان من قدّر وقسم ، وأبرم وحكم ، وخلق الأنوار والظلم ، وجعل توبة عباده الندم ، وعلم ما كان وما هو كائن .

أحمد على جميع أفضاله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في صفاته ولا شريك له في أفعاله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أثلج حرارة الصدور ببارد زلاله ، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع عترته وأصحابه وآله صلاة دائمة ماحرك ساكن الأشواق ذكر المواطن .

في قول الله عز وجل : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) الآية . قال ابن مسعود : عاتبنا الله سبحانه وتعالى بهذه الآية بعد إسلامنا بسبع سنين . وروى أن بعض الناس أصابتهم فترة في قلوبهم فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال بعض أهل المعاني هذا الكلام يشبه الاستبطاء ، ومعناه أما حان وقت الخشوع . أما حان أو ان الرجوع ، أما حق على التفريط إسبال الدموع ، أما هذا وقت التذلل والخضوع ؟ وفي ذكر الإيمان في أول الآية تعريف بالثقة ، وإشارة إلى استبطاء ثمرته هذا الإيمان وثمرته

أن تخشع قلوبكم هذا الإيمان ، وثمرته أن تبسكوا على ما خاف من ذنوبكم ، ألم بأن المؤمن أن يخشع ويبتوب وينيب ؟ ألم بأن للغافل أن يتنبه ويحيب ؟ ألم بأن للذنوب أن يرجع من قريب ؟ ألم بأن للمريض أن يقف على باب الطبيب ؟ وقوله : (أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) يعنى القرآن ، فمن حضر قلبه لذكر الله وأصغى بسمع سره لكتاب الله تعالى خشع قلبه ، قال تعالى : (إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِّمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) أى عقل وقلب حتى بنور الموافقة ، حاضر على بساط المراقبة ، صاح عن سكر الغفلة غير معرض عن الاعتبار ، ولا مشغول بحديث الأغيار (أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) أى أصغى بسمعه وهو حاضر بسره . قال صلى الله عليه وسلم : « إِنْ لِلَّهِ أُوَانِي أَلَا وَهِيَ الْقُلُوبُ فَأَقْرِبُهَا إِلَى اللَّهِ مَارِقًا وَصَفَاءً وَصَلْبًا » قال أبو عبد الله الترمذى : الرقة خشية الله تعالى ، والصفاء للإخوان فى الله ، والصلابة فى دين الله تعالى . ويقال شُبِّهَتِ الْقُلُوبُ بِالْأَنِيَةِ ؛ فقلب الكافر إناء منكوس لا يدخله شيء من الخير ، وقلب المنافق إناء مكسور ما ألقى فيه من أعلاه نزل من أسفله ، وقلب المؤمن إناء صحيح معتدل ، يلقى فيه الخير فيصل ، لكن قلوب قوم طاهرة من دنس الغفلات والزلات فما ألقى فيها بقى طاهرا ، وقلوب قوم فيها دنس قليل يغلب عليه ما يلقى فيها من الطهور ، وقلوب قوم كثيرة الأدناس يغلب دنسها على ما يلقى فيها من الخير وربما امتلأت من الأدناس فلا تسع شيئا ، قال الله تعالى فى حق المتطهرين (وَذَكَرَ فَإِنَّ اللَّهَ كَرَّمَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) ذكر العاصين عقوبتى أيرجموا عن مخالفتى ، وذكر المطيعين ثواب طاعتى ليزدادوا من خدمتى ، وذكر عبادى ما صرفت عنهم من بلائى ، ومنحتهم من عطائى ، وأعددت لهم من لقائى ليستغرقوا أوقاتهم من ثنائى ، وقوله تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ) وهم اليهود (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ) بعد موسى ثم وقت الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فكفر النصارى واليهود (فَكَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) أى كفارون ، ومعناه لم يبق منهم على الإيمان إلا القليل وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويقال قسوة القلب إنما تسكون لانحرافه

عن مراقبة الرب، ويقال إنما تحصل القسوة من متابعة دواعي الشهوة فإن الشهوة والصفوة لا يجتمعان، وأول ما يقع في القلب غفلة، فإن أيقظه الله تعالى وإلا صارت خطرة، فإن ردها الله وإلا صارت فكرة، فإن صرفها الله وإلا صارت عزيمة، فإن حماه الله وإلا وقعت المعصية، فإن أنقذه الله بالتوبة وإلا وقعت قسوة، فإن نهله الله وإلا صارت طبعاً وريئاً، قال الله تعالى : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) قال إبراهيم بن آدم: قلب المؤمن نقي كالمرآة فلا يأتيه الشيطان بشيء إلا أبصره، فإن أذنب ذنباً ألقى في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب محيت، وإن عاد إلى المعصية ولم يتب بقيت النكتة حتى يسود القلب فقل ما تنفع فيه الموعظة . وقال الحسن : الذنب على الذنب يظلم القلب حتى يسود القلب، ويقال القلب كالسكف لا يزال يُقبض أصبع بعد أصبع حتى يطبق .

وقال الترمذی : حياة القلوب الإيمان، وموتها الكفر، وصحتها الطاعة، ومرضاها الإصرار على المعصية، ويقظتها الذكر، ونومها الغفلة . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ففقدوا قلوبكم . والقلب القاسى يعيد من الله ولكن لا تعلمون وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب فإنما الناس معافى ومبتلى، فارحوا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية . عباد الله البدار البدار فالعمر طيار كما قيل :

إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ مَتَاعٌ فَاتَّجِهُوا إِلَى السَّيِّئِ مَنْ يَصْطَفِهَا
مَا مَضَى قَاتَ وَالْمُؤَلُّ غَيْبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

يا هذا، قد قرب السفر فأحكم أحوال الأعمال، واقطع علقك من البلد فإذا ضرب بوق الرحيل كنت أول سائر، كم تعاهد ثم تغدر، أأمنت غب زجرنا؟ أو رضيت عاقبة هجرنا؟ ألك عن وصلنا مندوحة، أما أبواب كرمنا لك مفتوحة، يا ناسياً ميثاق (أأنت بربكم) حسن العهد من الإيمان، ومن كرم المرء فرط الحنين إلى أوطانه.

بِاحْتِبَاذِ الْعَرَّعَرِ^(١) النَّجْدِيِّ وَالْبَهَانِ وَدَارُ قَوْمٍ بِأَكْنَافِ الْحِمَى بَانُوا
وَأَطْيَبُ الْأَرْضِ مَا لِقَلْبٍ فِيهِ هَوًى سَمُّ الْخِيَاطِ مَعَ الْأَحْبَابِ مَيِّدَانُ
يا غافل القلب عنا ما هذا الكلام ليس لك على الخراب خراج . قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « إِنْ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ
وَأَعْمَالِكُمْ » . يا هذا دع حديث السالكين فإنه من لعبك ، لاتدع نسب المجتهدين فإنه
ليس من أهلك ، لاتعرف البحر إلا ساجح ، ولا البر إلا سائح ، ولا الزناد إلا قاذح .
وهيهات كيف يزاحم الأبطال بطل ؟ أين أنت من الأحباب ؟ أين القشر من اللباب ؟
قبيح عليك يا مسكين أن تدخل الميدان بحمار أعرج :

هَلْ مُدْ لَجَّ عِنْدَهُ مِنْ مُبْكَرٍ خَبَرٌ وَكَيْفَ يُعْلَمُ حَالُ الرَّائِحِ الْفَادِي ؟
فَإِنْ رَوَيْتَ أَحَادِيثَ الَّذِينَ مَضَوْا فَمَنْ نَسِمْ الصَّبَا وَالْبَرْقِ إِسْنَادِي
ما أحلى ذكر العباد ، ما أطيب أخبار الزهاد ، ما أحسن مصاحبة أهل الوداد ، ما ألد
معاملة أهل الاجتهاد ، أكلهم أكل المرضى ، ونومهم نوم الغرقى ، وحنينهم حنين الشكى
فرغت منهم المنازل وجدوا القبور منازل . إذا أويت إلى المقابر فتأمل بقبالك قبور الصالحين
كبشر ومعروف وأحمد تراها عمراناً وبقية القبور خراب بلقع . وكان بعض الصالحين من
السلف يوقد المصباح ولا يزال يبكي إلى الصباح كلما رأى النار وكان بعضهم يوقد النار
ويقرّب يده منها وكلما أحس بالحرارة يقول يا ويلك لم فعلت كذا وكذا ؟ يا هذا إنما خلقت
في الجنة وسجنت في الأرض فإذا سمعت روحك ذكر وطنها الأول حنت وأنت ، وكلما
جلا صقيل الرياضة مرآة سرها قوى الشوق . وكان أبو الدرداء يقول إني أحب الموت
اشتياقاً إلى ربي . وكان أبو عبيدة يقول واشوقاه لمن يراني ولا أراه . وكان فتح الموصلي

(١) هو نبت ينبت في أرض نجد بالحجاز طيب الرائحة ، وإليك قول الشاعر :

تنتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

يقول قد طال شوقى إليك فمبجل قدومى عليك كما قيل :

وَبِى شَوْقٌ إِلَيْكَ أَذَابَ قَلْبِي وَمَالِي غَيْرُ وَصْلِكَ مِنْ صَبِيبِ

إذا صحت المحبة فعلت ما يرضى ورضيت ما يفعل :

إِنْ كَانَ سُكَّانُ الْفَضَا رَضُوا بِقَلْبِي فَرَضَا

وَاللَّهُ لَا كُنْتُ لِمَا يَرْضَى الْخَبِيبَ مُبْغِضَا

مَنْ لِمَرِيضٍ لَا يَرَى إِلَّا الطَّبِيبَ الْمُرَضَا

دخل على عابد فى مرضه فقالوا له كيف أصبحت ؟ قال أصبحت وكل عرق يتالم على حديثه ولا يحب إلا الله . وقيل لآخر فى مرضه كيف أصبحت ؟ قال أصبحت ومالى حاجة إلا أن يتوفانى الله على الإسلام . إلهى إن عيوبنا لا يسترها إلا بحاسن عطفك ، وذنوبنا لا يغفرها إلا بكارم لطفك ، يامن عليه المتكسل ، يامن إليه المبتهل ، يامن إليه المشتكى الضر إذا الضر نزل ، يامن لو أن الخلق أضعافاً عليه لسكفل ، وكيف لا يكفلهم وهو غنى لم يزل . إلهى أدعوك مع خوفى لأنك رب الأرباب ، وأرجوك مع تقصيرى كرجاء الأحباب ، أدعوك بلسان أملى لما كل لسان على ، فإن قبلتنى فبفضلك ، وإن رددتنى فبعدمك .

أَتَيْتُكَ سَائِلًا فَارْحَمْ عَنَائِي فَعِنْدَكَ يَا كَرِيمٌ دَوَاءُ دَائِي

فَلَا أَحَدًا سِوَاكَ إِلَيَّ أَشْكُو فَبِرَحْمٍ غَبْرَتِي وَبَرَى بُسْكَائِي

فِيَا مَوْلَى الْوَرَى جُدْ لِي بِعَفْوٍ وَمَنْ بِنَظَرَةٍ فِيهَا شِفَائِي

رَأَيْتُ كَثِيرًا مَا أَهْدَى قَلِيلًا لِمِثْلِكَ فَاقْتَصَرْتُ عَلَى الثَّنَاءِ

إلهى أدعوك لإقرارا بذل العبودية ، وأنت نجيتنى اختيارا بكرم الربوبية ، يا أكرم من سمح بالنوال ، وأرحم من جاد بالإفضال ، أيقظنا من غفلتنا بلطفك وإحسانك ، وتجاوز عن جرائمنا بعفوك وغفرانك ، وألحقنا بالذين أنعمت عليهم فى دار رضوانك ، وارزقنا ما رزقهم من نعم قربك ، ولذة مناجاتك وصدق حبك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين آمين .

الفصل العشرون

في الفراق

الحمد لله منشىء الموجودات ، وباعث الأموات ، وسامع الأصوات ، ومجيب الدعوات
وكاشف الكربات ، عالم الأسرار ، وغافر الإصرار ، ومنجى الأبرار ، ومهلك الفجار ،
ورافع الدرجات ، الذى علم وألهم ، وأنعم وأكرم وحكم وأحكم وأوجب وأزيم ، (وَهُوَ
الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ) الأول الذى لبس له ابتداء ، الآخر
الذى ليس له انتهاء ، الصمد الذى ليس له وزراء ، الواحد الذى ليس له شركاء ، الحى
القيوم الذى لا مشارك له فى الصفات ، العليم الخبير القدير السميع البصير ، المنفرد بالتدبير ،
قدر الأشياء على ما أراد من الحالات والأوقات ، تكلم بكلام قديم أزلى فى الأزل ، وفرد
بالعز الذى لم يزل ، وتنزه عن النقائص والعلل ، وتقدس عن الفتور والخلل ، وتعالى عن
الأوهام والشبهات ، ما عرفه من جعد صفات السكال ، ولا امتدى إليه من سلك طريق
الاعتزال ، ولا نزه من شبه واتبع الوهم والخيال ، قصرت العقول وعجزت الأبواب عن
إدراك الجلال ، وكيف للحادث أن يدرك القديم هيهات . سبحان من نور بعرفته قلوب
أحبابه ، وظهر سرائرم فتنعوا بخطابه ، وصدقوا ما بعد له فقطعهم عن بابه ، ورد قوما
بحكمه فعذبهم بحجابه (اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الْمَلَأُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) يا خيبة من لم يؤيده
الحكيم العليم ، باحسرة من لم يقبله الملك العظيم ، يامصيبة من فاته هذا الجود العميم ،

بارزية من سمع هذا العتاب وهو على خطايا مقيم ، يا فضيحة من لم يستمع من مولاه
في الخلوات ، أثار بالقبيح من عاملك بالجليل ؟ أبحر بالعصيان من غمرك بفضل الجزيل ؟
أرضى بالبعد بدلا عن الوداد فبئس البديل (أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ قَدْرًا مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) مالكم لانهضوا إلى الفناء ، ولا تقعدوا عن
المخالفات ، أين البعيد من القريب ؟ أين الطريد من الحبيب ، أين الخطي من المصيب ،
أين المحروم من هو وافر النصيب ، (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ
وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْخُرُورُ وَمَا يُسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ) فسبحان الذي قسم عطاءه
بين عباده ، وأبرم قضاءه فلا معارض له في مراده ، وسبقت عنايته وولايته لأهل وداده ،
وخصهم برعايته وكفايته وإسماعه ، وأمنهم يوم الفزع الأكبر من جميع المخالفات .

أحمده حمد معترف بالعجز عن ثنائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في عزه
وكبريائه . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سيد أصفيائه وخاتم رسله وأنبيائه ، صلى الله
عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الذين مثلهم في سورة الفتح بالنبات ، وصلى أزواجه الطاهرات سر
قوله تعالى : (الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) وسلم تسليما كثيرا . في قول الله
عز وجل (فَقَرِّءُوا لِلَّهِ إِنَّكُمْ لَعِندَهُ قَائِمُونَ) ففروا إلى الله تعالى من الشرك
إلى توحيد الله تعالى ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الغفلة إلى ذكر الله تعالى ، ومن رؤية
نفوسكم إلى منة الله تعالى ، ومن أبواب الخلق إلى باب الله تعالى (أَلَا إِنَّ مَعَ اللَّهِ) قادر غنى
غير الله :

قُلْ لِلْفَقِيرِ إِذَا مَا أُنْذِنِي	إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ عَنْ بَابِهِ ؟
وَهَلْ أَحَدٌ غَيْرُهُ يُرْتَجَى	بَلِ الْكُلُّ مِنْ بَعْضِ مُلَايِهِ ؟
يَلْذُ التَّذَلُّلُ فِي عِزِّهِ	وَذَاكَ النَّعِيمُ لِأَحْبَابِهِ
يَعَارُ الْحُبُّ عَلَى سِرِّهِ	وَبَلَوَاهُ تُعْرِبُ عَمَّا بِهِ

قف بالباب أيها الفقير الحقير، وتضرع إلى الله تضرع الأسير بقلب كبير ، وقل يا الله
للعالين وأكرم الأكرمين ، أسير الظلمات واقف بباب كرمك ينتظر فوائد رحمتك،
وزوائد نعمتك ، انخير دأبك ، والحكم حكمتك ، اجعل منتهى مطالبنا رضاك ، وأقصى
مقاصدنا رؤياك ، وعن الشهوات باعدنا لأن نلتقاك وأنت راض عنا ، فلعنك تحف من الله
تعالى بحفي إفضاله ، وتحفلى منه بحميل إقباله ، فإن من اعتز بحماه حماه ، ومن استضاء بهداه
هداه ، ومن انقطع إليه كفاه ، ومن حط رحاله ببابه آواه ، ومن أعرض عنه ناداه ،
ومن رجع إليه قبله وأدناه ، ومن تبادى في متابعة هواه أبعداه وأقصاه ، ياناقض المهود
انظروا لمن عاهدتم ، ثم تلافوا خرق الخطايا قبل أن ينسح. أعرضتم عني وما أعرض عنكم
لطفى ، وقطعتم خدمتى وما قطعتم عنكم نعمتى :

فَلَا تَحْسِبُوا أَنِّي نَسِيتُ وِدَادَكُمْ وَلَمَّا إِن طَالَ الْمَدَى لَسْتُ أَنْسَاكُمْ
حَفِظْنَا وَضَعْتُمْ وِدَادًا وَحُرْمَةً فَلَا كَانَ مَنْ فِي هَجْرِنَا الْيَوْمَ أَغْرَاكُمْ
رسائل إليكم لانقطع ، وحي إليكم لا يقبل ، وذكرى إليكم لا يتحول ،
لأنما رددت إبليس لأنه لم يسجد لأبيكم ، فالعجب كيف صالحتموه وقاطعتموني ؟ :

يَا مُعْرِضًا عَنِّي وَمَا لُطْفِي عَنْهُ مُنْفَصِلُ
يَا قَاطِعًا الْيَوْمَ لِيْنُ نَوَيْتُ مَنْ بَعْدِي تَصِلُ

كان لبعض الرجال أوقات مناجاة وطاعات فتغيرت ولم تتغير نعم الله تعالى عليه ،
فجلس يوما في خلوة وقال يارب ، تغيرت خدمتى ولم تتغير نعمك ، فمتف به هاتف ، إن
لك عندنا لأياما حفظناها وضيعتها .

تَعَالَوْا بِنَا نَصْطَلِّحْ قَبَابُ الرِّضَا قَدْ فُتِحْ
نُدَاوِ الْفُؤَادَ الَّذِي بِسَيْفِ الْجَفَا قَدْ جُرِحْ
أَيَا مَدْعَى حُبِّنَا دَعِ الرُّوحَ ثُمَّ امْطَرِحْ
تَعَلَّقْ بِأَهْلِ الْهَوَى وَقُلْ لِلْعَذُولِ امْتَرِحْ

بامتنقلا عن ركب السابقين في ببداء الففلة ، إنما يا كل الذئب من الغنم القاصية ،
شمر عن ساق الجلد ، وشد عن منزر السكد ، واحذر حسرة البعد ، فعسى أن تطحق بالقوم ،
ويحك أما يؤلك ألم المهجران ؟ أما يبكيك الحرمان ؟ قف على أطلال الديار ، وتلمح الآثار
وقل ياديار الأحباب أين السكان ؟ بامنازل الصالحين أين الخلان ؟ يا أطلال الشوق
أين البنيان ؟ :

كَلَىٰ لِرَبِّعِ الْمَآمِرَةِ وَقَفَّةٌ كُنْ عَلَى الشَّوْقِ وَالذَّمْعِ كَانِبُ
وَمِنْ مَذْهَبِي حُبُّ الدِّيَارِ لِأَهْلِهَا وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَعُشُّونَ مَذَاهِبُ
مالبقاع الصالحين قد خلت منهم وأقبرت ، مالوجوه العبادة التي تبرعت بعد
ما أسفرت ؟ أين الجباه التي طال في الدجى ماعفرت .

كفى حزنًا بالواله العصب أن يرى منازل من يهوى مُعْطَلَةٌ قَفْرًا
من وقف على قبر بشر ومعروف ، تذكر ما كانا فيه من خير ومعروف ، أين نحن من
القوم ؟ كم بين اليقظة والنوم ؟ أين العباد من الزهاد ؟ ذهبوا وبقي أهل الرقاد . قالت
أم سعيد النخعي : كان بيننا وبين داود الطائي حائط قصير وكنت أسمع حسه طول الليل
يهذى ، قيام الليل جهاد ، ولا يحضر المعتكز جبان . كانت منيرة العابدة إذا جن الليل تقول
ما أشبه هذه الظلمة بظلمة القيامة (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ثم تقوم فتصلي إلى
الصباح . وقالت أم عمر بن المنكدر : يا بني إني أشهى أن أراك نائمًا بالليل ، فقال يأماه
إن الليل ليرد على فيهلوني ويتقضى عني وما قضيت أربي . وكان بشر الخافي لا ينام إلا أن
يغلب ويقول : إنما أنا رجل مطلوب . وكان بعض الصالحين يصلي بالليل ركعتين يحتم فيهما
القرآن ، ثم يتم الليل بالبكاء ، يا هذا لم يكن للقوم هم غير ما خلقوا له فأما نفوسهم فلا اهتمام
لهم بها . عرى أويس القرني حتى انزرت بحرقه . وقدم بشر الخافي من عبادان وهو مؤثر
بخصير . وكان أويس يلتقط النوى فيشترى به ما يفطر عليه ، فإذا أصاب حشفة ادخرها
لإفطاره ، ويلتقط الخرق من المزابل ويفسلها ويرقع بها ويفر من الناس فلا يجالس أحدا .

يا مطروحا في سجن البعد استعن بمن حبسك ، إذا رأيت قطار القائمين متصلا فتعلق بهم لعلك تحمل معهم ، ما حدا الحادى إلا وقد قرب الموسم ، إذا فتح لك باب فبادر قبل غلقه .

إِذَا مَا تُفُورُ الدَّهْرِ يَوْمًا تَبَسَّمَتْ إِلَيْكَ بِمَشْرِ فَاَنْتَمِيزْ فُرْصَةَ الدَّهْرِ
رَحَى اللَّهُ أَيَّامًا جَفَيْنَا نِمَارَهَا بِأَيْدِي الْمَنَى مِنْ بَيْنِ أَوْرَاقِهَا الْخَضِرِ

إن ذكر منازل الصفا يكدر العيش ، وإن الفكر في وقوع الجفاء يوجب الطيش ، يا هذا تسمع ما يجري ومالك دمع يجري ، وتعرف قبح مآتلى وتدعى التوبة وما تأتى إذا وقع طيب على دائك فاكتب منه نسخة دوائك ، فالحكمة ضالة المؤمن ، استفت بالمقبولين وفاد في نادى الحبين ، ياواصلين اشفعوا في منقطع ، يا بعيدا عن العابدين ، يا وحيدا عن السالكين ، فتح الباب لأرباب الأبواب ، ورد في وجهك ؛ مالك لسان تسألنا به ولا وقت تناجينا فيه ، ولا قلب تجدنا عنده تالله ما أظن قساوة قلبك إلا من آثار البعد . والله إن الرمد لا يخفى من العمى ، دم على القلق والاستغائة فإن حصل المقصود وإلا فلا وجه للسكون . قيل للخنساء لم تبكين ؟ قالت : على فقد الأحباب ، قيل لها إنهم صاروا إلى النار قالت أشد حزنى ، يا هذا مالك سوى نفس واحدة فإن ذهبت حسرة فلا وجه للتدارك ، أرضيت لنفسك مع ذكائك وفطنتك أن تعيش عيش البهائم ؟ نهارك هو وإليك نوم ، وبين يديك الحساب ، قوت المرید الذكر . وراحة الحزون الدمع ، ولذة العارف الخلوة ، كل ذرة من العارف تنطق بحجة الله ، وصاحب الوجد لا يخفى سرأره ، يا غافل القلب عنا أما هذا الحديث معك من يوم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) أف ذلك الذى أوحش بيننا وبينك ، إلى متى أنت من وراء الباب ، أصعب الأشياء . على الحب لقاء من يشغله عن حبيبته ، لأن خلوة « أَنَا جَلِيسٌ مَنْ ذَكَرَنِى » لا تحتمل شركة . قال ذو النون : رأيت شيبان فى جبل لبنان فقلت ادع الله لى فقال آتاك الله بقربه ثم شق شقة فما أفاق إلا بعد ثلاثة أيام كيف لا تشتغل القلوب بساكنها ويسمى قلب عبدي المؤمن .

بِئْتُمُ عَنِ الْأَمِينِ الْقَرِيبَةِ فِيكُمْ وَسَكَنْتُمْ عَلَى الْفُؤَادِ أَوَّالِهِ

قال رجل لداود الطائي أوصني ، قال داود : قرح بطنك بالجوع ، واقطع مفاوز الدنيا بالأحزان ، وآثر حب الله تعالى على هواك ، فما تبالي متى تلتاه ؟ قام القوم فما يعمدك ؟ قربوا من الجنات فما يهمدك ؟ فصحت لهم الأبواب فما حيرتك ؟ هذه الأطلال فأين السؤال ، هذه الخيام فأين الخدام ؟ هذه الربوع فأين الدموع ؟ هذه القصور فما هذا القصور ؟ هذه القبور فما هذا الفتور ؟ هل لك رغبة في مراقة الصالحين ؟ أو رضية أن تكون مع الخالفين ؟ يامن قلبه أقسى من حجر ، حذّ نفسك بيد الفسكرة ، واخرج إلى المقابر وقل لهم ماذا تتمنون ، فإنهم لو نطقوا لقالوا نتمنى ساعة من عمرك ، ومثل نفسك في عرصات القيامة بين المفرطين ، تر الوادي قد امتلأ بدموع الأسف ، ومثل حسك بأصوات المسجونين في العار إذ يقولون : (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا) هذا الذي أفاق العباد ، وأحرق الأكباد . اجتمع أحمد الخزازي وحبيب بن محمد أول النهار فما زالوا يبكون إلى المغرب ، فما قنعت الحبة من القوم بالبكاء والسهير حتى طلعت منهم الأرواح . سمع بعضهم قارئاً يقرأ (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) فاضطرب ومات . وسمع آخر قارئاً يقرأ : (وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنِي الْجَنَّةِ) فصاح ومات . وسمع آخر قارئاً يقرأ (وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) فصاح ومات . وسمع آخر قارئاً يقرأ (وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ آفَةِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) فصاح ومات .

قَضَى اللَّهُ فِي الْقَتْلِ قِصَاصَ دِمَائِهِمْ وَلَكِنْ دِمَاءُ الْعَاشِقِينَ جُبَارُ

لو حضر قلبك لما شرحنا لاسترحنا ، يامن قد ضاع قلبه أنشده في مجالس الذكر ، فإن لم تجده فبين القبور ، فإن لم تجده ففي البرية ، اخرج عن ديار إديارك ساعة إلى فلولات الخلوات ولا تصحب غير الذكر :

تَعَرَّضْ لَأَحْقَافِ اللَّوْىَ غَيْرَ سَاعَةٍ لَكَ أَنْ يَلْقَاكَ قَلْبِي فَيَمْتَحِدِي

وَسَلَّمَ عَلَى مَاءٍ بِهِ بَرْدٌ عَلَيَّ فَظِلُّ أَرَاكَ كَانَ لِلْوَصْلِ مَوْعِدِي
وَعِنْدَكُمْ يَا قَاتِلِي بَغِيَّةٌ عَلَى مُهْجَةٍ إِنْ كَمْ نَمَتْ فَسَكَانٌ قَدِي
وَيَا أَهْلَ نَجْدٍ كَيْفَ بِالْغُورِ عِنْدَكُمْ بَقَاءَ زَيْهَائِي يَوْمُ بَمُنْجَدٍ
قال مالك بن دينار : ماعوقب عبد بمقوبة أعظم من قسوة القلب . وكان علي بن بكار
يفرش له الفراش فيمسه ويقول : والله إنك لطيب ولكن والله لا علونك الليلة . وكان قتي
من بني تميم يحبي الليل كله ، فقالت له أمه : يا بني لو نمت من الليل شيئاً ، فقال يا أماء
إنما أطلب الراحة في الآخرة ، قالت يا بني تخالف السهر أيام الحياة . يا قاصدين عنا ،
يا راضين بالغير بدلاً منا ، لو وفيتم بمهودنا ، مارميتم بصدودنا ، ولو كاتبتُمونا بدموع
الأسف لفغرنا لكم ماسلف .

وَلَوْ أَنَّهُمْ عِنْدَ كَشْفِ الْقِنَاعِ وَحَلَّ الْعُقُودِ وَنَقَضِ الْعُهُودِ
وَحَلَمِهِمْ لِمِذَارِ الْهَوَىٰ وَالْبُيُوتِ لِبُرُودِ الصُّدُودِ
أَتَوْنَا وَقَالُوا مَضَىٰ مَاضِيٌّ وَبَلَّوْا بَقِيضِ الدُّمُوعِ الْخُدُودِ
لَقُلْنَا لَهُمْ مَاضِيٌّ لَا يُمَادُ كَذَا شَرَطْنَا وَالتَّدَانِي بَعُودِ
يا هذا اعرف قدر ماضع منك ، وابك بكاء من يدري مقدار الغائب ، وقف على
باب الافتقار ، وناد في الأسفار :

إِنْ كَانَتْ عُمُودٌ قَدْ دَرَسَتْ فَالْزُوحُ مِنْ سِوَاكُمْ مَا أُنِيتْ
أَغْصَانُ وَدَّكُمْ بِقَلْبِي غَرِسَتْ مُنْزُوا بِوَضْلِكُمْ وَإِلَّا يَبَسَتْ
يا سكران الهوى لو استنشقت ريح الأسفار لأفاق سكرك ، حدث نفسك بأرض
نجدٍ يهن عليك عبور العقبة ، يا محصوراً عن الوصول ناد في النادى بصوت الذل :
أَيُّهَا الدَّاخِلُونَ فِي أَرْضِ نَجْدٍ وَرِكَابُ النُّوَى بِهِمْ تَتَرَامَى
إِنْ أَتَيْتُمْ أَرْضَ الْحَبِيبِ فَأَهْدُوا لِحَبِيبِي نَحِيَّةً وَسَلَامًا
وَاطْلُبُوا لِي قَلْبِي الْمَشُوقَ الْمَعْنَى تَجِدُوا فِيهِ مِنْ هَوَائِهِمْ سِهَامًا

اجلس في ظلام الليل بين يدي مالك، واستعمل فعل الأطفال ، إذا منعوا بكوا ،
تروح إلى حديث المفاجأة ، وابتث رسائل الأحران ، واستغث بمولاك فإنه قادر على
كشف بلواك . كريم من توسل إليه بطاعته تفضل عليه بنعمته ، إن أطاع قبله وإن أضاع
أمهله ، فإن أقر شكره . وإن أصر وغاب ستره ، عزيز ما إليه خطوة ولا بدونه سلوة :
أَفِرُّ إِلَيْكَ مِنْكَ وَإِنْ قَلْبِي جَسِيرَانٌ عَلَيْكَ بِمَا لَدَيْكَ
وَأَهْرُبُ مِنْ صُدُودِكَ أَنْتَ رُكْنِي وَأَبْكِي مِنْكَ بَلْ أَبْكِي إِلَيْكَ
ملك شهدت بجلاله جميع أفعاله ، ونطق بجماله جميل أفضاله ، ودلت على إثباته آياته ،
وأخبرت عن صفاته مصنوعاته ، كريم من توكل عليه كفاه ، ومن التجأ إليه آواه ، ومن
سأله أعطاه ، ومن قصده أدناه ، بدأ المؤمنين بالإحسان ، وكتب في قلوبهم الإيمان ،
وخصهم بنعمة العرفان :

وَكَمْ بِاسِطِينَ إِلَى وَضَلْنَا أَكْفَهُمْ لَمْ يَنَالُوا الْمَنَى
قَطَعْنَاكُمْ وَوَضَلْنَاكُمْ فَكَانُوا بَعِيدًا وَكُنْتُمْ لَنَا

كم نعرف إليك وأنت تتجاهل ، وندعوك وأنت تتصام (وَكَأَيَّ مَنَ آتَى فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَمْزُونَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) أفلا تعقلون أفلا تبصرون ؟ عبدي كل
يريدك له ، وأنا أريدك لك . وأنت تفر مني ، فما أنصفني ، عبدي أنا وحق لك محب ،
فبحق عليك كن لي محبا ، كن لنا وبنا ، وإذا كنت لنا فلا تحتفل بغيرنا ، اذكر
من منعك الإيمان وأعطاك ، وجردك عن الشرك وعراك ، فمن أين كان لك الإسلام
والإيمان والطاعة والإحسان ؟ لولا ما أعطاك من التصديق ، وخلق في قلبك
من التحقيق :

سُفِيًّا لِعَهْدِكَ بِالَّذِي لَوْ لَمْ يَسْكُنْ مَا كَانَ قَائِي لِّلصَّبَابَةِ مَعَهُدًا
قَسَمًا بِحُبِّكَ لَا نَسِيتُ عُهُودَهُ كَلَّا وَلَا يَمُتُ دُونَكَ مَقْصِدًا

كَتَمْتُ حَتَّى ضَاعَ صَبْرِي فِي الْهَوَى أَنْتَ الْحَبِيبُ أَنْعِمِ عَلَيَّ رَغْمَ الْعِدَا
فَأَحْكُمْ بِمَا تَرْضَى فَإِنَّكَ مَالِكِي فَبِحَقِّ جُودِكَ لَا تَكُنْ لِي مُبْعِدَا
إلهي لو أردت إهانتنا لم تهدنا، ولو أردت فضيحتنا لم تسترنا، فقم اللهم ما به بدأتنا،
ولا تسلبنا ما به أكرمنا .

أَيَا مَنْ كَسَا قَابِي مِنَ الْحُبِّ خِلَةً وَأَمْنِي فِي لُبْسَةِ الدَّهْرِ أَنْ تَبْلَى
وَيَا عَوْضِي مِنْ كُلِّ سَقَرٍ وَخَاضِرٍ وَيَا خَلْفِي مِنْ كُلِّ مَنْ صَرَّمَ الْحَبْلَا
إلهي عرفتنا بربوبيتك، ونعمتنا بذكرك وأنسك، وغرقنا في بحار فضلك ورحمتك،
ودعوتنا إلى دار قدسك . إلهي إن ظلمة ظلمنا لأنفسنا قد عمت ، وبحار الغفلة على قلوبنا
قد طمت ، فالعجز شامل والحصر حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالخال أعلم . إلهي ماعصيتك
جهلا بمعاقبك ، ولا تعرضنا لعذابك ، ولا استخفافا بقدرتك ، ولكن سوت نفوسنا ،
وأعانتها شقوتنا ، فغرتنا سترك علينا ، فالآن من عذابك من ينقذنا ويحبل من نعتصم إن
قطعت حبلك عنا ؟ واخجلتنا من الوقوف غدا بين يديك ، إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين
حطوا . إلهي إن كنا قد عصينا بجهل فها نحن قد دعوناك بمقل . حيث علمنا أن لنا ربا يغفر
الذنوب ولا يبالي . إلهي أتحرق بالنار وجها كان لك مصليا أو لسانا كان لك ذاكرا
وداعيا ؟ لا بالذي دلنا عليك ورغبنا فيما أمرنا بالخضوع بين يديك وهو محمد خاتم أنبيائك
وسيد أصفيائك ، فإن حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك ، كما أن منزلته لديك أشرف
منازل خلقك ، صل يارب على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وارحم عبادا غرهم طول
إمهالك وأطعمهم كثرة أفضالك ، وذلوا لمزك وجمالك وجلالك ، ومدوا أكنفهم اطباب
نوالك ، ولولا هدايتك لم يعملوا إلى ذلك ، اغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الحادي والعشرون

في الاصطبار

الحمد لله الذي شهدت بوجوده آياته الباهرة ، ودلت على كرم جوده نعمه الباطنة والظاهرة ، وسبغت بحمده الأفلاك الدائرة ، والرياح السائرة والسحب الماطرة ، والرياض الناضرة ؛ هو الأول فله الخلق والأمر ، والآخر فالإليه الرجوع يوم الحشر ، والظاهر فله الحكم والقهر . الباطن يعلم السر والجهر ، والألسن عن وصف كبريائه قاصرة ؛ تحيرت دون صمدية الألباب ، وانقطعت عن جبروته الأنساب ، وخضعت لعزته الرقاب ، وذلت لرؤيته الأرباب ، فالعقول في تعظيمه وجلاله حائرة ، القدوس الواحد الأحد الخالق القيوم الصمد الغني الذي لا يضره جعوده من جعد ، العزيز الذي نضر وجهه من تذلل بين يديه ومسجد ، ووجوه الجاحدين والمؤمنين بأسرة^(١) قرب أوليائه من بساط أفضاله ، وإتمام السرور بيمين إقباله ، وأحيا قلوبهم بشهود جماله ، وعاملهم بخزير نواله ، فهم في جنة عاجلة عاطرة . الناس في مهاد الغفلة رقود ، وهم بين قيام وركوع وسجود ، وأشواق وإملاق ووجود ، يسألون المولى فيعطف ويحود ، فأعينهم في الليل ساهرة ، حجب قلوب الغافلين بحجب العاجلة فهمي عن العطر في آلائه غافلة ، وصرف أسرارهم فهمي عن جبيلية العرفان عاطلة ، وحرهم من أنس المناجاة ولذة المعاملة ، وأغشى بصائرهم فهمي غير ناظرة ، ماحيلة من طرد عن الباب ، ما يصنع من قطع عن الأحباب ، ما وسيلة من حق عليه حكم الكتاب ، فما يزعمه التعنيف والعتاب ، يا خيبة من لم يكن مولاه ناصره ، السباق السباق ، سار

(١) بأسرة : بمعنى شديدة العيوس ، ومنها قوله تعالى : « وجوه يومئذ بأسرة »

السابقون، واللاحق اللحاق قد أفلح المتقون، والجد الجد فما يغنى السكون، والحذر الحذر
فما أنتم مهملون: فالمبادرة عباد الله المبادرة، تعب العاملون قليلا وجهدوا، ثم وصلوا ونالوا
ما قصدوا، فخطوا واستراحوا وحمدوا، فما أقل تعبهم في جنب ما وجدوا (ألا إن أولياء
الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون - الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) فسبحان من أعطى ومنع، وخفض ورفع، وفرق وجمع،
ووصل وقطع، وبحكمه ربح الطائفة الراجعة، وخسرت الطائفة الخاسرة، أضحك وأبكى،
وأما وأحيا، وأغنى وأفنى^(١) وأوجد وأفنى وأباد بسطوته الأمم الغابرة .

(أحمده) على ما أولى من النعم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله
تفرد بالبقاء والقدم، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وحبيبه وخليله المبعوث إلى كافة الأمم
من العرب والمجم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه كواكب الهدى الزاهرة صلاة دائمة
باقية إلى يوم الوقوف بالساهرة .

في قول الله تعالى (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ
هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) مالك السموات والأرض وما بينهما من الأعيان والآثار فمن ذا الذي
يعبد غيره ويقصد فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا : أى شبيها هل تعلم أحدا غير
الله يسمى الله، فلا يحمل التذلل إلا الله، ولا ترفع الحوائج إلا إلى الله والاصطبار غاية
الصبر وهو الصبر على الأحكام والأوامر وعن المنهيات في الباطن والظاهر، ومن صبر ظفر
ومن لازم الباب وصل :

وَقُلْ مَنْ جَدَّ فِي شَيْءٍ يُحَاوِلْهُ فَاسْتَعْمَلِ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

ولما كان المعبود سبحانه وتعالى لا سمي له ولا نظير له حق للعابدين أن لا يذروا مقدورا
في طاعته إلا بذلوه، ولا يفادروا ميسورا في طلبه إلا تحملوه، ولا يحق بذل المهبج

(١) أغنى : أعطى ، وأفنى : رضى : وقيل معناه : أغنى نفسه، وأفقر الخلائق إليه :

إلا في طلب الأعز يحق للدموع أن تنقطر على فوات قربته ، كما يحق للقلوب أن تنفطر من خوف فرقة :

جَمَالُ الْمُتَيُّونِ لِيَغَيِّرَ حُبَّكَ بِاطِلٍ وَبُسْكَأُوهُنَّ لِيَغَيِّرَ هَجْرَكَ ضَائِعُ
أَنْتَ الْحَبِيبُ فَإِنْ مَنَنْتَ بِنَظَرَةٍ أَضَحَّتْ كَأَنَّ كَلَّمَ تَذَرَهُنَّ مَدَامِيعُ

أيها الفقير لازم باب مولاك وانقطع إليه ، واعتمد في جميع أحوالك عليه ، لمن تدخر مجهودك إذا لم تطلب معبودك (هل تعلم له سميا) في صفات جلاله ، أو شريكا في أفعاله أو شبيها في أفضاله . إن دعوته أجابك ، وإن أطعمته أتابك ، وإن عصيته أمهلك ، وإن رجعت إليه قبلك . اصطفاك في القدم ، وعصمتك من السجود للصنم ، وجعلك محلا للعبود والكرم ، واختياره لك مكتوب بخط واضح غير أن استخراجه ضعيف ، متى رمت طلبه عندك وبسمي قلب عبدي المؤمن . يا من عاملنا مدة ثم قطع ، وواصلنا زمانا ثم رجع ، يا ليتك بعثنا بشيء .

لَقَدْ ضَيَّعْتَ حَظَّكَ مِنْ وَصَالِي وَبَعَثَ بِالْأَنْحَسِ الْأَنْمَانِ كَثْرَا
فَكَيْفَ رَضِيتَ يَا هَذَا بِدُونِي وَقَرَّبُكَ مِنْ جِنَائِي كَانَ عِزًّا
سَتَعْرِفُنِي إِذَا جَرَّ بَتَّ غَيْرِي وَتَعْلَمُ أَتْنِي لَكَ كُنْتُ حِرْزَا

ابن سيرين يقول : أشتى مردابا أخلو فيه بربي ، يا هذا أنا أحدثك عن سيدك بالنهار فاستمع أنت منه بالليل ، يا متشبها بالزهاد في ثيابهم وسميتهم لافي نياتهم ووقتهم ما عندك من الرهبانية إلا بناء الصومعة تأوى فيها لصوص التصنع ، يا هذا الرضا بالمزبلة من البلد ، لو مرت عن هوائك لحظة لاحت لك الأعلام ، مرتع الأحباب فارتع ، وهذا موقف المعاب فاستمع .

انْهَضْ فَهَذِهِ عَذَابَاتُ رَامَةٍ وَمَا وَهَى الْعَذْبُ الزُّلَالُ الْبَارِدُ
وَأَنْشُدْ هُنَاكَ لِي فَوْأَدَا ضَائِعَا لَوْلَا الْهُوَى مَاضِلٌ ثُمَّ نَاشِدُ

أين العباد أين الزهاد ؟ أين العارفون ، أين المحبون ؟ لا إله إلا الله وقع القحط

في الرجال . كان سلفا لنا الأخيار ، فلولاهم لافتضح المتأخرون . كانت رابعة العدوية تحب الليل كله ، فقال لها أحد بن الحواري : إنما أدركت الرجال بنامون أول الليل . فقالت إنما أدعى فأجيب . وقال أبو سليمان لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا . وصام داود ابن أبي هند أربعين سنة لم يعلم الناس ولا أهل بيته ، كان يأخذ الخبز ويخرج فيتصدق به فيظن الناس أنه يأكل في البيت ويظن أهل بيته أنه يأكل مع الناس :

وَمُسْتَخْبِرٍ عَنْ سِرِّ لَيْلَى رَدَدَتْهُ فَأَصْبَحَ مِنْ لَيْلَى بِغَيْرِ يَقِينٍ
يَقُولُونَ أَخْبَرْنَا فَأَنْتَ أَمِينُهَا وَمَا أَنَا إِلَّا أَخْبَرْتَهُمْ بِأَمِينٍ

واشوقاه إلى تلك الأشباح ، سلام على تلك الأرواح ، رحل أولئك السادة وبقي قرناه الوسادة ، كم حول معروف من مدفون ذهب اسمه لما ذهب جسمه ، ومعروف معروف ، لابقاء للأعمال إلا بالإخلاص ، وعمل المرأى كالصلة كلها قشور ، أصحاب القلوب أرباب إشارات . وقف بعضهم على الشط ببعداد فسمع رجلا يقول ياملاح احملني إلى دار الملك ، فقال للملاح معي قوم للقطيعة فصاح الفقير لا بالله أنا منذ أربعين سنة أفر منها . قيل لدى النون المصري أين أنت من يوم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) فقال كأنها الساعة في أذني . يامنقطعين عن القوم سيروا في بلاد الرجال وانزلوا وادى الذل ، لا تملوا الوقوف بالباب ولو طردتم ، ولا تنقطعوا الاعتذار ولو رددتم ، فإذا فتح الباب للواصلين فابسطوا أكف الافتقار وقولوا (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) فاعل منادى القبول يقول (لَا تَتَرَبَّعَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ) أحزان المحبين دائمة وآماقهم بالموع دامية ، لراحة المحب إلا ببقاء حبيبه . ضحك بعض الصالحين يوما ثم فكر فقال : ضحكك وما جزت العقبة ، والله لا ضحكك حتى أعلم بماذا تقع الواقعة ؟

بِأَنَسِ الشَّامِ بِاللهِ بَلَغَ مَا يَقُولُ الْمُتَيَّمُ الْمُسْتَهَامُ
قُلْ لِأَحِبَّائِنَا تَرَكَكُمْ مُحِبًّا لَيْسَ يَسْأَلُو وَمُقَلَّةً لَأَنَنَامُ
كُلُّ أَنَسٍ وَلَذَّةٍ وَسُرُورٍ قَبْلَ لُقْيَاكُمْ هَلَى حَرَامُ

وكان عطاء السلى يبكى حتى لا يقدر أن يبكى . إذا هبت رياح الخوف أفلقت قلوب
العارفين فلم تترك ثمرة دمع في غصن جفن ، إذا نزل (آب) في القلب سكن (أذار)
في العين : وكان فتح الموصل يبكى حتى يبكى الدم قليل له لم يكبت الدم ؟ قال خوفا على
الدموع أن تكون صاحبت لي :

بِأَمْنٍ مِّنْ مَّاءِ الْجُفُوفِ نِ وَكُنْتُ أَنْفِقُهُ عَلَيْهِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ عَيْنِي فَأَنْتِ مَتَّاعُ مَنْ نَظَرَتْ إِلَيْهِ

إذا خيم سلطان المعرفة بقاع القلب ، صارت بقاع السباخ رياضاً :
سَاكِنٌ فِي الْقَلْبِ بِقَمَرِهِ لَسْتُ أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُهُ
حَاضِرٌ عِنْدِي بِسَامِرِي وَسُوبِدَا الْقَلْبِ تُبْصِرُهُ
قُلْتُ لِلْعُدَالِ إِذَا مَرُّوا بِسُوءِ عِزِّهِ وَأَبْسَرُهُ
مَا لِي فِي الْقَلْبِ مَشْكَلُهُ فَسَلَوِي كَيْفَ أَضْمِرُهُ

إذا نزل الحبيب ديار السرور أخرج منها العذالة :

حَبِيبٌ لَا يُعَادِلُهُ حَبِيبٌ وَلَا يَلِيهِ وَاهٍ فِي قَلْبِي نَصِيبٌ
حَبِيبٌ غَابَ عَنْ عَيْنِي وَشَخِي وَفِي قَلْبِي حَبِيبِي لَا يَفِيبُ

فحينئذ يمتلئ القلب بالحبة فلا يسع غيرها ، ويسير الذكر سمير القلب .

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَدَّثِي وَأَبْحَثُ جِسْمِي مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي
فَالْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُوَأِيسٌ وَحَبِيبُ قَلْبِي فِي الْفُؤَادِ أَنْيِسِي
يا من أبعده الذنوب عن ديار الأنس ، ابلت على وطن الوطر عساك ترد .

يَا بَعِيدَ الدَّارِ عَنْ وَطَنِي مُفَرِّدًا يَبْكِي عَلَى شَجْنِيهِ
كُلَّمَا جَاءَ الْغَرَامُ بِهِ زَادَتْ الْأَسْقَامُ فِي يَدَنِي

لما أذن داود بكي حتى أنبت العشب من دموعه :

مَيَّانَ إِن لَّامُوا وَإِنْ عَزَّوْا مَالِي عَنِ الْأَخْبَابِ مُصْطَلَبٌ
لَّابُدَّ لِي مِنْهُمْ وَإِنْ تَرَكَوْا قَلْبِي بِنَارِ الشَّوْقِ يَسْتَعْرِبُ

هجر جميع لذاته فلم يلتفت إلى روحه، ولم يبرِّج على شهوة، ولم يزايل البكاء والضراعة

حتى استحال حلو العيش مرا :

وَإِذَا سَحَابَةُ هَجْرٍ كَمْ قَدْ أَبْرَقَتْ نَرَكْتُ حَلَاوَةَ كُلِّ قَلْبٍ عُلِقَماً

كان داود مسروراً بسلامته مبهجاً بعصمته وكرامته فكان يقول : اللهم لا تغفر للخطائين، فلما رمته أسهم المقادير صار يقول : اللهم اغفر للذنبين عسى أن يغفر لداود معهم فكان يؤتى بالإناء ناقصاً فيتمه بالدموع . وكان داود إذا أراد النياحة ينادى مناديه في أندية المذنبين فيجتمعون في مآثم الندم فيزداد الحزن بالتماون وكان يقول : إلهي خرجت أسأل أطباء عبادك يداوونني فكلهم دلوني عليك . إلهي امدد عيني بالدموع، وضمني بالقوة حتى أبلغ رضاك عني .

يَا مَنْ تَجَنَّبُ صَبْرِي مِنْ تَجَنُّبِهِ هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ بِهِ
حَتَّى مَتَى زَفَرَانِي فِي تَصَعُّدِهَا إِلَى الْمَمَاتِ قَدْ مَعِيَ فِي تَصَوُّبِهِ
وَلِي فَوَادٌ إِذَا لَجَّ الْغَرَامُ بِهِ هَامَ اشْتِيَاقًا إِلَى لُقْيَا مُعَذِّبِهِ
ما زال يغسل العين بدمع العين ، وكلما رفع قصة غصته جاء الجواب بزيادة الجوى ،

وهو يستغيث وينادى ، حتى أفاق الحاضر والبادي .

إِن شَفِيعِي إِلَيْكَ مِنِّي دُمُوعُ عَيْنِي وَحُسْنُ ظَنِّي
فَبِالَّذِي قَادَنِي ذَلِيلًا إِلَيْكَ إِلَّا عَفَا—وَتَ عَنِّي

يا مشر المذنبين تعرضون عنا وتقبل عليكم ، وتبارزوننا ونستر عليكم ، وتنفقون نعمنا على مخالفتنا ونمدكم ، وتبعدون عن باننا واستدنيكم ، وتفاون عنا وتعرض لكم ، هل من

تائب ؟ هل من مستغفر ؟ هل من سائل ؟

أَيَا مَنْ أَعْرَضُوا عَنَّا بِلَا جُرْمٍ وَلَا مَغْنَى

وَأِنْ عَادُوا لَنَا عُدْنَا وَإِنْ خَانُوا فَمَا خُنَّا
وَأِنْ كَانُوا قَدْ اسْتَفْذَنُوا فَإِنَّا عَنْهُمْ أَغْنَى
أَسَاءُوا ظَنَّهُمْ جَهْلًا فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّ

يا حاضرا كغائب إذا رأيت التائبين قد تاهبوا للرحيل عن ديار الهوى فابك على
تخلفك ، وبحك فاض النهر فاعبر قبل الفرق . أتدري ما الذي أزعج هذا التائب ، وأى
كتاب أقدم هذا الغائب ، وأى عتاب أجرى دمه الساكب ؟ تذكر عهد (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)
فحنّ ، وتفكر فى بعده عن الحبيب فأنّ .

سَرَى نَسِيمُ الصَّبَا مِنْ حَاجِرٍ فَصَبَا وَبَاتَ يَشْكُو إِلَى أَنْفَاسِهِ الْوَصَبَا
ذُوصِيوَةٌ لَمْ يَتِمَّ بَرْقُ الشَّامِ وَلَا دَعَا ابْنُ وَرَقَاءَ إِلَّا صَاحَ وَاحْرَبَا
مَا يَبْرَحُ الْبَارِقُ النَّجْدَى يَذْكُرُهُ نَجْدًا وَيُطْرِبُهُ وَجْدًا إِذَا التَّهَبَا
يَوَدُّ لَوْ أَنَّ أَيَّامَ الْحُمَى رَجَعَتْ وَكَيْفَ بَرَجِعُ عَيْشٌ بَعْدَ مَا ذَهَبَا

اللهم اجمع شتات قلوبنا بحسن عنايتك ، وأحى موات أسرارنا بغيث ولايتك ،
ولا تطردنا بعيوبنا عن ولائكم كرامتك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين .

الفصل الثاني والعشرون

في الأسف وذكر آدم

الحمد لله العليم الحليم ، الرحمن الرحيم ، الحكيم الحميد ، الولي القوي ، الغني الحفي^(١)
 للملي المجيد، الأول فلا بداية لكبريائه ، الآخر فلا نهاية لبقائه ، الظاهر بما أظهر من آياته
 وآلائه ، الباطن فلا يحيط العقل بحقيقة ثنائه ، الفكر عن حى قدمه بعيد ، الواحد الأحد
 القدوس الصمد الحى العليم القدير السميع البصير الفعال لما يريد ، المتكلم بكلام قديم
 أزلى جلّ عن التكيف والتحديد ، صفاته ثابتة بالأدلة فن عطل فهو عن الحق بعيد ،
 وتنزيهه عن صفات الحدوث معلوم فن شبه فقد شبه بأبجمل والوليد ، تبارك ذو العز والجلال
 وتنزه عن مشابهة العبيد ، قسم عطاءه بين خلقه فقوى وضعيف ، ودنى وشريف ، وغنى
 وفقير ، وغوى ورشيد ، وغافل وشاكر ، وذاهل وعاقل ، وناس وذاكركر ، ومعذب ومقرب
 وشقى وسعيد ، نور قلوب المؤمنين بالإيمان ، وخلع عليهم خاتم الرضوان ، ووعدهم دار الأمان
 (لَمْ يَأْمُرْ بِمَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) وحجب الغافلين عن خدمته ، وأبعدهم عن نعم
 حضرته ، فشتان بين قريب وطريد ، يا حسرة من حرم جميل الوداد ، ورمى بالطرد والبعاد ،
 وحق عليه الوعيد ، فهو يتردد في أودية الحرمان ، ويتعثر في أذيال الخذلان ، ويشغل بما
 لا يفيد ، ألا إن هجر الحبيب لأليم شديد ، وإن بحر الصدود لطويل مديد ، تفرق عند
 تلاطم أمواجه مراكب الصبر ، ويكل كل بصر حديد . فسبحان من أيد الفائزين

(١) الحفي : بمعنى المبالغ في البر والإكرام : ومنه قوله تعالى (إنه كان بي حفيا) .

جرباح السلامة فأقلعوا في سفن الكرامة ، ويسر لهم المسلك السعيد ، فوصلوا إلى روضة الوصال ، وعاشوا بنسيم الإقبال ، ففي كل وقت لهم يوم عيد (وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا) وأجابوا ، وسمعوا منادى الكرم فأجابوا ، وعلموا أن المولى أقرب من حبل الوريد ، فهبت على قلوبهم رياح العناية ، وسقت رياض أسرارهم سماء العناية ، فأورق فيها كل غصن نضيد ، وكل سرورهم لما علموا أن من أحيا أرضا ميتة فهي له ، وأنه هو يبدى ويبيد .

(أحده) على جميل نواله وجميع أفضاله ، ففي كل نفس علينا منه مزيد وفضل جديد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة صادرة عن إخلاص وتوحيد ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرغم بهز سلطانه كل جبار عنيد . وأخذ بنور برهانه نار كل شيطان مريد ، وأبده بالمعجزات الظاهرة ، وأمدّه بالنصر والتأييد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة التأكيد ، كما يسر لهم طريق السعادة ومهدا أحسن تمهيد .

في قوله تعالى (وَلَقَدْ عَمِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَنسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) خالق الله تعالى آدم من طين من أنواع الأرض ، فبقى جسده ملقى على باب الجنة أربعين سنة ، وكانت الملائكة تمر تتمعجب منه لأنهم لم يروا مثل صورته قط ، فربه إبليس فقال ، لأمرًا خلقت ، ثم ضربه بيده فإذا هو خالق مجوف ، فقال لمن معه من الملائكة هذا خلق مجوف لا يقبض ولا يماسك ، أرايتم إن فضل هذا عليكم ، قالوا نطاع أمر ربنا ، فقال إبليس في نفسه والله لأطيعه ، ولئن فضل هذا على لأهلكنه فذلك قوله تعالى (وَأَعْلَمْ مَاتُتَبَدُّونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) أي ما أمر إبليس في نفسه ، والله لأطيعه ، وذلك من الكبر والمداوة ثم نفخت الروح في جسده فدخلت في دماغه ، ثم نزلت إلى عينيه فخطار إلى بدء خلقه وأصله حتى لا يعجب بنفسه إذا أكرمه الله تعالى ، ثم نزلت الروح إلى خياشيمه فعمطس ، ونزلت إلى فيه فألممه الله تعالى فقال (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وهو قول ماجرى على لسانه ، فقال الله عز وجل : يرحمك ربك يا آدم ، للرحمة خلقت ، فهو قوله

عز وجل «رَحِمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» وقوله (وَلَدَلِكْ خَلَقَهُمْ) أي للرحمة خلقهم، ثم انشردت الروح في سائر جسده فصار لحما ودمًا، فكساء الله تعالى لباسا من الظفر يزداد كل يوم حسنا. ثم ألبسه الله تعالى من لباس الجنة، وكساء الله نورا كنور الشمس، وكان نور محمد صلى الله عليه وسلم يلمع من جبينه فغلب على سائر نوره، ثم رفعه على سرير وحمله على أكتاف الملائكة وأمرهم فطافوا به في السموات ليرى عجائب الملكوت، ثم علمه أسماء جميع المخلوقات، ثم أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس فطرد الله إبليس وأبعده، وأسكن آدم الجنة ثم خلق له حواء زوجته من ضلع من أضلعه اليسرى وهو نائم، فاستيقظ فراها فسكن إليها ومد يده فقالت الملائكة مه يا آدم، فقال: لم وقد خلقها الله تعالى لي؟ فقالوا حتى تؤدي مهرها، قال وما مهرها؟ قال تصلي على محمد ثلاث مرات. ثم إن الله تعالى أباح لهما نعيم الجنة، ونهاهما عن شجرة الخنطة، ففسدها إبليس فهو أول من تكبر وأول من حسد، فأتى إلى باب الجنة فوجد الطاوس فوقف معه وبكى، فقال وما يبكيك؟ قال أبكى على الخلائق، فإنهم كلهم يموتون إلا من أكل من شجرة الخلد، فهو أيضا أول من كذب، فقال له الطاوس أين هذه الشجرة؟ قال إن أدخلتني الجنة أريتك الشجرة. قال لا أقدر على ذلك ولكني أقول للحية فإنها تدخل وتخرج في خدمة خليفة الله آدم، فكانت الحية يومئذ من أحسن الدواب، إفتى إلى الحية فأخبرها فخرجت الحية وتحول إبليس ريحا فدخل بين أنيابها حتى أتى آدم وحواء، فوقف وناح نياحة أحزنتهما فهو أيضا أول من ناح، فقالا له ما يبكيك؟ قال عليكما تموتان وتفارقان النعيم، ألا أدلكما على شجرة الخلد؟ فسكلا منها وحلف لهما بأنه لناصح لهما، فهو أيضا أول من حلف كاذبا وغش، فأكلت حواء ثم زينت لآدم حتى أكل وظنا أن أحدا لا يتجاسر ولا يخاف بالله كاذبا، فموجب بعشرة أشياء:

(الأول) عتاب الله تعالى لهما (أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ).

(الثاني) سقوط لباس الجنة عنهما حتى بدت لهما سوءاتهما.

(الثالث) سلب النور عنهما .

(الرابع) إخراجهما من الجنة فقال الله تعالى أخرجوا آدم وحواء من جوارى فإنه لا يماورنى من عصائى ، فأهبط آدم بسرنديب من الهند ، وحواء بجدة وإبليس بالأبلة وهى البصرة وقيل بيسان ، والحية بأصبهان ، والطاوس ببابل ؛

(الخامس) الفرقه بينه وبين حواء مائة سنة حتى اجتمعا بالمزدلفة فلذلك سميت جمعا وتعارفا بنعمان ولذلك سميت عرفة .

(السادس) العداوة بين آدم وإبليس والحية .

(السابع) النداء عليهما بالمعصية فى كتاب الله تعالى .

روى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام تذكر ليلة فى أمر آدم فقال : يارب خلقت آدم بيدك ، وفتخت فيه من روحك ، وأسجدت له ملائكتك ، وأسكنته جنتك بلا عمل ، ثم بزلة واحدة ناديت عليه بالمعصية وأخرجته من الجنة ! . فأوحى الله تعالى إليه : يا إبراهيم أما علمت أن مخالفة الحبيب للعبيب أمر شديد .

(الثامن) تسلط إبليس على أولاده بالإغواء .

(التاسع) جعل الله تعالى الدنيا سجنًا للعوم منهم .

(العاشر) تعبههم فى طلب القوت إلا أن آدم عليه الصلاة والسلام كان عند الله تعالى حبيبًا فاجتباها وتاب عليه وهداه .

وعوقب إبليس بعشرة أشياء :

(الأول) عزله من الولاية ، فكان مقدما على ملائكة سماء الدنيا ، وملائكة الأرض وخازنًا من خزان الجنة فمزله الله تعالى .

(الثانى) منعه من الجنة فلا يعود إليها أبدا .

(الثالث) مسخه فصار شيطانا .

(الرابع) غير اسمه فكان عزازيل فسمى إبليس والإبلاس : الإياس من الرحمة .

(الخامس) جعله إمام الأشقياء فلا يتبعه إلا شقي .

(السادس) لعنه إلى يوم القيامة .

(السابع) سلبه المعرفة ، فلم يبق عنده من العلم شيء ولا ذرة .

(الثامن) أغلق عنه باب التوبة .

(التاسع) جعله مريدا : أى خاليا من كل خير .

(العاشر) جعله خطيب أهل النار .

ويقال شقى إبليس بخمسة أشياء : لم يعترف بخطئه ، ولم ير أن التوبة واجبة ، ولم يذب ، وتكبر عن أمر الله تعالى ، وقنط من رحمة الله تعالى .

وسعد آدم عليه الصلاة والسلام بخمسة أشياء : اعترف بذنبه ، ورأى أن التوبة واجبة عليه ، وتاب إلى الله تعالى ، وتواضع لله ، ولم يقنط من رحمة الله . قال وهب بن منبه : لما أهبط آدم إلى الأرض مكث سبعة أيام لا ترقأ له دمة وهو منكس الرأس . فأوحى الله تعالى إليه ما هذا الذى أراه بك من الجهد ؟ بفتح الجيم : الشدة ، وبضمها : الطاقة والقوة ، قال آدم : يارب عظمت مصيبتى وأحاطت بى خطيئتي ، وأخرجت من ملكوت ربى ، فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة ، وفى دار الشقاء بعد السعادة ، وفى دار النصب بعد الراحة ، وفى دار البلاء بعد العافية ، فكيف لا أبكى على خطيئتي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ، ألم أكن اصطفيتك لنفسى ، وأحللتك دارى ، وخصصتك بكرامتى ، وحذرتك سخطى ؟ ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي ، وأسجدت لك ملائكتي ، فعميت أسرى ، ونسيت عهدى ، وتمرضت لسخطى . فوعزنى وجلالى لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك يعبدوننى ويسبحوننى ثم مصونى لأنزلتهم منازل العاصين : فبكى آدم على ذلك ثمانمائة سنة .

جلس آدم على سرير الملكة فدبده إلى لقمة نهى عنها فأخرج من الجنة ، فيا بنيہ احذروا بلية المعاصي ، فهى التى نزلت به فنزلت خطيئته عن رتبة (استجدوا لآدم) إلى

(اهبط منها) جاء من سجده بالأمس يجر ناصيته للإخراج ، ولسان حاله يستغيث
بييت مفرد :

حُدَاةَ الْيَسْرِ رِفْقًا بِالْأَسِيرِ لِيَفْهَمَ نَظْرَةً قَبْلَ الْمَسِيرِ
أقام في الأرض يبكي على فقد موطن الفرح ، وكأ رأى جبرائيل عليه الصلاة والسلام
قال لسان شوقه :

* أَلَا بِأَصَبَا نَجْدٍ مَتَى هِجْتِ مِنْ نَجْدٍ *

كَانَ كَلِمًا رَأَى الْمَلَأْسَكَةَ تَصْعَدُ وَجَنَاحَهُ مَقْصُوصٌ زَادَ قَلْبَهُ ، وَأَعْظَمَ الْبَلَاءُ عَلَى الْمَشْتَاكِ
ترداد الراكب إلى بلاد الحبيب وهو محبوس كان يستنشق من القادمين ريح الوصال ويسأل
سؤال متحسر على الديار .

حَدَّثَانِي عَنِ الْعَقِيقِ حَدِيثًا أَنَّهُ بِالْعَقِيقِ أَقْرَبُ عَهْدًا
كان آدم عليه الصلاة والسلام يقول لولده : يا بني طال والله حزني على دار أخرجت
منها ، فلو رأيتها زهقت روحك ، كان أولاده يتمحبون من طول بكائه ، ومن لم يرى يوسف
لم يعذر يعقوب :

أَرْضِينَا بِدُنْيَاكَ الْوَلَّى عَنْ وَرُودِ بَالَمَا صَفْقَةُ غَبْنٍ
ما اندفع عن آدم بلاء (وَعَصَى آدَمُ) بكال وعلم ، ولا رد عنه عز (اسجدوا لآدم)
وإنما خلصه ذل قوله (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) لم يزل منذ نزل يرفع قصص الفصص تحملها
رسائل الأسف .

أَلَا يَا نَسِيمَ الرِّيحِ إِنْ كُنْتَ مُحْسِنًا تَحْمِلُنِي إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ سَلَامِي
وإني لأرضى أن أكون بأرضهم على أنني منها أستميد سقامي
الدينا فرقة كم لمن جرّع لذاتها من شرقة ؟ كم عاش فيها آدم باكيًا ، قام فيها نوح
نائمًا ، وصار داود ناديا ، وبات يعقوب للحبيب مفارقا : كان عيش يعقوب بيوسف سليما ،
فخذ فارقه صار سقيا بغير ثمانين سنة لم يلتذ بنوم ولا سينة ، لما فقد المنظور ذهب الناظر ،

لما دخلوا عليه فأقبل عليهم مسائلا ، وأقبل الدمع سائلا ، وتقلقل^(١) تقلقل الواجد، ليسمع أخبار الوالد ، فلما جاءوا وبلغوه السلام عن يعقوب انتفض طائر الوجد لذكر المحبوب ، فرد السلام قلبه قبل لسانه . لما كشف يعقوب ستر الوجد بكف (إني لأجد ربح يوسف) أهدت به عواذل (تفتأ تذكر يوسف) فخارهم بسلاح (وأعلم من الله مالا تعلمون) تالله لو وجدوا ما وجدوا أنسكروا ما عرف . من تعرض للحجة فليفرس شجر الصبر فإنها إذا انتهت أثمرت رطبا ، يا هذا جزأ بنادي الحجة وناد القوم ، تراهم كالقراش تحت النيران أرواح أزعجها الحب فأفلتها الخوف ، سبحان من يسكنها بلفظه .

كان أويس القرني يهرب من الناس مشغلا بحبيبه حتى قالوا مجنون :

وَأَقِيتُ فِي حُبِّكَ مَا لَمْ يَدَقَّهُ فِي حُبِّ لَيْلَى قَيْسُهَا الْمَجْنُونُ
لَسَكِنِّي لَمْ أَتَّبِعْ وَخَشَّ الْفَلَا كَفِعَالِ قَيْسٍ وَالْجُنُونُ فَنُونُ

وكان يرى الناس ينسبونه إلى الجنون والحجة تنهأ أن يفسر ما استعجم :

أُيْتِمُّهُمْ وَجَدِي وَهُمْ نِي أَعْلَمُ وَأَرْجُو شِفَائِي مِنْهُمْ وَهُمْ هُمُ
وَكَمْ عَذَلُونِي فِيهِمْ غَيْرَ مَرَّةٍ فَقُلْتُ لَهُمْ وَاللَّهُ بِالسِّرِّ أَعْلَمُ
إِذَا كَانَ قَلْبِي مُوْتَقًا بِحِبَابِهِمْ وَرُوحِي لَدَيْهِمْ كَيْفَ أَفْهَمُهُمْ عَنْكُمْ
فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَمْدِلُوا فَتَوَاصَلُوا إِلَيَّ أَنْ يَعُودَ الْقَلْبُ لَا يَتَسَلَّمُ

وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه حلية أويس القرني فقوى شوق عمر وعلى رضي الله تعالى عنهما إلى لقائه ، فكانا في كل عام يسألان عنه أهل اليمن ، فلما كان آخر حجة حجها عمر وعلى رضي الله عنهما وجداه بعرفة فتمارفوا ، فقال له عمر مكانك حتى آتيك بنفقة ، فقال لا أراك بعدها :

إِنْ كَانَتْ الْعَيْنُ مَذْفَرًا قَتَّكَمْ نَظَرَتْ إِلَى سِوَى حُسَيْنِكُمْ قَدْ خُنْتُ فِي نَظَرِي

(١) تقلقل : بمعنى تحرك واضطرب .

سَلَّمَهَا هَلِ اكْتَحَلَتْ مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ سِوَى جَمَالِكَ يَا سَمْعِي وَيَا بَصَرِي
فَارْزُدْ لَهَا كُحْلَهَا الشَّافِي فَنَظَرُهَا سَمَرَانُ يَقْنَعُ بَعْدَ التَّعِينِ بِالْأَثَرِ
ياهاثما في ببداء الهوى ليس الطريق أن تنفق عمرك في التفريط إنفاق البرامكة ، وتشح
بدنياك شح الحاجب ؛ ويحك من قبل فم اللذة عَضَّتْهُ أَسْنَانُ النَّدَامَةِ ، يا عجمي ! الذهن
وافق عرب الفطنة ، إلى متى أنت مع المتلونين ؟ إلى متى تضاف مع النظاف ؟ أنت مع
تقصيرك تأمن وكانوا مع الاجتهاد يخافون ، وأنت مع ذنوبك تضحك وهم مع الطاعة
يكون . دموع الخائفين محبوسة بالنهار فإذا جن الليل عربد الوجد في أبدانهم ، فاستلب
اللحم وأرسل الدمع ثم اشتعل بالعين فصارت شرارة فوقع الحزن في البواطن .

قيل لزيد بن هرون كم حزبك من الليل ؟ فقال أو أنام منه شيئا لانا مت عيناى أبدا :
سَلُّوا عَيْنَ طَرَفِي إِنْ سَأَلْتُمْ عَنْ السَّكَرَى فَمَا لِيَجُفُونَ الْعَاشِيَيْنَ مَقَامُ
قلوب القوم مملوءة بحبه ، فإن فطخوا فبذكروا ، وإن تحركوا فبأمره ، وإن فرحوا فلقربه
وإن حزنوا فلعقته ، لا يصبرون عن مناجاته لحظة ، ولا يتكلمون في غير رضاه بلفظة .

ولما تمسكت نار المحبة في قلب موسى عليه الصلاة والسلام صوب نار الطور فأسرع
إليها ليقتربس فاحتبس ، فلما نودي في الدادى اشتاق إلى اللنادى . وكان عليه الصلاة والسلام
يطوف في بني إسرائيل ويقول : من يحمل لى رسالة إلى ربى ومراده أن تطول المفاجاة
مع الحبيب ، فلما مر عليه نبيفا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج رددته في أمر الصلاة ليسعد
بكثرة رؤية حبيب الحبيب ، الشوق ينحل الأبدان ويقلقل القلوب .

وكان فتح الموصلى يبكى ويقول : قد طال شوقى إليك فمجل قدومى عليك ، ألهام
الشوق إلى الاستقامة

قال بعض الصالحين : لقيت غلاما في طريق مكة ، فقلت له يا فتى أما تستوحش وحدك ؟
قال الأنس بالله قطع عنى كل وحشة ، قلت أين ألقاك ؟ قال فى الآخرة ، قلت أين أطلبك ؟
قال فى زمرة الناعارين إلى الله تعالى ، إني غضضت طرفى عن كل محرم فسألته أن يرزقنى

النظر إليه وصاح صيحة فغاب عن عيني . يا هذا ما خلقت الدنيا ، فلا تألف منزلا لا تصلح به الإقامة . رفيقك قيسى ، وأنت يعانى . من لاح له جمال الآخرة هان عليه فراق الدنيا ، إذا لاح للباشق صيد نسي مألوف الكف ، بأقدام الصبر احملى فما بقى إلا القليل . تذكر حلاوة الراحة يهن عليك مرّ الشرى . ضجت الملائكة حين ألقى إبراهيم الخليل فى النار وقالوا يا ربنا ائذن لنا أن ندفع عنه ، فقال الله إن استغاث بكم فأغيثوه ، فلما رآه جبريل وقد ودّع بلدان العادة ظن ضعف إقدام النوكل فعرض عليه ألاك حاجة ؟ فردّه بأنفة ، أما إليك فلا ، قال فاسأل مولاك . قال حسبي من سؤالى علمه بحالى :

تَمَلَّكُوا وَاحْتَسِكَمُوا وَصَارَ قَلْبِي كَلَمٌ
تَصَرَّفُوا فِي عِبْدِهِمْ فَلَا يُقَالُ ظَلَمُوا
إِنْ وَاصَلُوا يُحِبُّهُمْ أَوْ هَجَرُوا فَهُمْ مُمٌ
قَدْ أَوْدَعُوا سِرًّا فَوَا دِي حُبِّهِمْ وَاسْتَمَكَمُوا
أَرْضُ سَلِي عَنْ جِيرَانِي وَحَسَدِي دِي عَنْهُمْ
بَالَيْتَ شِعْرِي إِذْ غَدَوَا وَأَنْجَدُوا لِمَ أَهَمُّوا؟
مَاضَرَّهُمْ حِينَ سَرَوْا لَوْ وَقَفُوا وَسَلَّوَا

أبدان الحبين بينكم وقلوبهم فى السفر :

إِنَّ قَوْمِي يَوْمَ بَانُوا فَرَقُوا بَيْنِي ^(١) وَبَيْنِي
أَخَذُوا قَلْبِي وَرُوحِي وَكَلَّمُ سَمْعِي وَعَيْنِي
فَإِذَا كُنْتُ أَنَا الرَّهْ نُ فَمَنْ يَقْبِضُ دَيْنِي؟

لما عرف الصالحون قدر قيمة الحياة أمانوا الهوى فعاشوا ، كان أحدهم إذا قهر نفسه بترك شهوة اهتز اهتزاز الرامى ، انتهبوا بأ كف الجلد من الزمن ما تهزوا من البطالة ، هان

(١) يقصد الشاعر هنا أن أحبابه لما فارقه كأن نفسه هى التى فارقت .

عليهم طول الطريق لعلهم أين المقصد ، فيا بشرام (هذا يؤمكم الذي كنتم
توعدون) .

لَمْ تَبْقَ فِيهِمْ حَرَارَاتُ الْهَوَى وَجَوَى الْأَحْزَانِ غَيْرَ خَيَالَاتٍ وَأَشْبَاحِ
تَكَادُ تُنْكِرُهُمْ عَيْنُ الْخَيْرِ بِهِمْ لَوْلَا تَرَدُّدُ أَنْفَاسٍ وَأَرْوَاحِ
كانوا كلما دخلوا سكة من سكك السكون شرع بهم الخوف في شارع القلق :

حُبُّكُمْ يُبْتَلِيْنِي وَالْفَرَامُ يُبْتَلِيْنِي كَلَّمَا بَنَيْتُ أُنَى أُلْفُكُمْ يُبْتَلِيْنِي
إِنْ طُرِدْتُ يَا أَمَلِي مَنْ سِوَاكَ بَدْنِي قَدْ أَتَيْتُ بِأَبْسَكُمْ فِي شِمَارِ مَسْكِينِ
وَالْفَوَادُ يَطْلُبُكُمْ طَائِعًا وَيَعْصِيْنِي إِنْ أَبْخُ بِحُبِّكُمْ فَهَوَّ بَاحَ بِهِ دُونِي

يا هذا لو أشرفت على وادي الدجال رأيت خيم القوم على شاطئ أنهار البكا ، خلوا والله
بالحبيب وطال الحديث ، يامتخلفا في أعقاب القوم اربط على قطارهم عسى تصل معهم ،
كنت لك ليالى مناجاة ثم قطعت المعاملة :

عُودُوا إِلَى الْوَصْلِ عُودُوا فَأَلْهَجْتُ صَغَبًا شَدِيدًا

مسكادة البادية تهون عند ذكر مني ، أكبر معين على طول الطريق نسيم دار

الحبيب :

تَوَلَّعِي بِأَنَمَاتِ نَجْمٍ بِالْشَّيْخِ مِنْ ذَاكَ الْحَمَى وَالرَّندِ
لَعَلَّ رُبَّاكَ إِذَا مَا نَفَحَتْ تُبْرِدُ حَرَّ لَوْعَتِي بِبَرْدِ

كان الشبلى يبكي ويقول : ليت شعري ما اسمي عندك غدا يا علام الغيوب ؟ وما أنت .

صانع بي يا غفار الذنوب ؟ وسم يختم على يا مقلب القلوب ؟ .

هَجَرَانِكَ قَاتِلِي سَرِيحًا وَالْمُجْرُ مِنْ الْحَبِيبِ قَاتِلِ
إِنْ كُنْتَ هَجَرْتَنِي فَعِنْدِي شُغْلُ بِلِكَ بِأَحْبَبُ شَاغِلِ
بِأَغَايَةِ مُنِيَّتِي وَسُؤَالِي مَا أَنْتَ بِمَنْ تُحِبُّ فَاعِلِ ؟

يا سحائب الدموع أمطري على ربح القلوب ، يامن فقد قلبه تحيل في طلبه ، أبواب :

الملوك لا تطرق بالأيدى بل بنفس المحتاج . قال بعض الصالحين : رأيت شابا في سفح جبل وعليه آثار القلق فقلت له من أين أنت ؟ قال أنا عبد آبق هربت من مولاي ، قلت تعود إلى مولائك وتعتذر ، قال لا وجه لي ولا حجة ، قلت تتعاق بمن يستشفع لك ، قال بمن أنشفع والكل يخافون منه ؟ قلت من هذا ؟ قال المولى مولى رباني صغيرا فلما كبرت عصيته كبيرا ، فواحيائي من حسن صنعه وقبح فعلی ، ثم صاح صبيحة خرجت روحه ، فخرجت إلينا عجوز فقالت ، من أعان على قتل الجائس الحيران ؟ فقات لها أقيم أعيذك على تجهيزه ودفنه ؟ فقالت لا ، خليه بين يدي قاتله عساه يراه بغير معين فيرحمه .



الفصل الثالث والعشرون

في المراقبة والإنابة

الحمد لله الغنى الحفى ، القوى الولى ، الوفى العلى ، عن مداناة الأوهام ، العظيم الخليم الحكيم العليم الرحيم العلام . الأول بوصف التقدم . الآخر فلا يجوز عليه العدم . الظاهر فلا يخفى معرفته إلا على من جعد وظلم ، الباطن فلا يحيط به الوصف ولا يمتله الدهن ، ولا تدركه الأفهام ، المنفرد بأوصاف الكمال ، للتوحد بفصوت الجلال ، الصمد الذى لم يزل ولا يزال ، موصوف بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام (تبارك اسمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) نور قلوب العارفين بضياء الإلهام ، وأيقظ أسرار القاصدين وألاح لهم الأعلام ، وأشغل أسماعهم بلذة خطابه عن سماع الملام ، واستنهب عزائمهم فساروا فى حنادس الظلام ، حاديهم الوجد ودليلهم القصد وسائقهم الغرام . شمروا حتى وصلوا ، وطلبوا حتى حصلوا ، ووقفوا حتى قبلوا ، وأهل الغفلة نيام ، ليس القبول كالطرود ، ولا المحبوب كالردود ، ولا الوصال كالصدود ، ولا الخلى كالاستهام ، ليس من رضى بانفدر والجفاء ، كن أقام على حق الوفاء ، ورعى الزمام ، بينك وبين مولاك عهد (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) وحفظ العهد من شيم الكرام ، وقد وضع لك الحبة وأكده عليك الحجة وأسبغ عليك الإنعام ، أفلا تستحي من أوجدك وحباك وعرفك ، وهذاك وأيدك ووالاك وخطبك وناداك ووعدك بشرف المقام .

وقال سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ

بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا . هُوَ الَّذِي بَصَّلِي عَلَيْكُمْ وَمَلَأَ سَكَنَهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا . تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) أحده على ما ألهم أو نعم ، وأكرم وأبرم من الأحكام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله جرت أفعاله على الإتيان والإحكام ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أقام به أركان الإسلام ، وأبطل به الأزلام^(١) والأصنام ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه هداة الأنام ، صلاة دائمة باقية على عمر الليالي والأيام .

في قول الله عز وجل : (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) وقوله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاخْذَرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) المراقبة أصل عظيم من أصول التقوى وهو العلم بأن الله يسمع ويعلم ويرى ، فإذا حصل هذا العلم في القلب وتوالى فلم يعقبه غفلة وقوى حتى أثمر الحياء والهيبة والتعظيم للمولى ؛ فالعبد حينئذ مراقب ، ومنه قوله تعالى (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ » ومن ثمراته تحقيق ألم البلوى والاكتفاء بعلم الله تعالى عن الشكوى ، وقوله (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) ومنه قول الخليل عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه الصلاة والسلام : حسبي من سؤالى علمه بحالى . ومن ثمراته الاكتفاء بنصرة الله تعالى وحفظه وتديبره في دفع مكروه أو تحصيل مطلوب ، قال الله تعالى لموسى وهرون « أَلَيْسَ لَنَا بِاللَّهِ وَاللَّهِمَّ صَلِّ عَلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَمَنْ جَاءَ مِنْهُمْ مِنْ عَشِيرَةٍ أُخْرَى . إِنَّ اللَّهَ كَانَ مُبْصِرٌ » ومن ثمراته تسهيل المجاهدات على العابدين وقوله تعالى (الَّذِي بَرَّ السَّحِينَ تَقَوْمٌ وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّاجِدِينَ) وقد نبه الله تعالى على المراقبة بقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ أَنْتَقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) وقوله تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أفضل الذكرك

(١) الأزلام : واحدها زلم ، وهى قذاح كانوا يستقسمون بها الأمور فى الجاهلية فنهاهم الله عن ذلك ، ومنها قوله تعالى : (وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فُسْخٌ) .

ذكر الله عند ما حرم الله . وفي بعض كتب الله المنزلة : يقول الله سبحانه وتعالى « ما أنصفتني ابن آدم يدعوني فأستجيب أن أرده ، ويمصيني ولا يستجيبني مني » وفيها يقول الله تعالى « عبيد إني ما استجيب مني أنسيت الناس عيوبك وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ، ومحوت من أم الكتاب زلاتك ، ولم أناقشك للحساب يوم القيامة » وفيها يقول الله تعالى : إن كنتم تعلمون أني لا أنظر إليكم ، فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعلمون أني أنظر إليكم ، فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم .

كُنْ حَيًّا إِذَا خَلَوْتَ بِذَنْبٍ لَيْسَ يَخْفَى عَلَى الرَّقِيبِ الشَّهِيدِ
أَتَهَاوَنْتَ بِالْإِلْسِ نَدِيًّا وَتَوَارَيْتَ عَنْ عُيُونِ الْعَبِيدِ
أَقْرَأْتَ الْقُرْآنَ أَمْ لَسْتَ تَدْرِي أَنَّ مَوْلَاكَ دُونَ حَبْلِ الْوَرِيدِ

كان الفضيل رحمه الله تعالى يقول : يامسكين تغلق بابك وترخي سترك ، وتستجيب من الناس ولا تستجيب من الملكين الذين معك ، ولا تستجيب من القرآن الذي في صدرك ولا تستجيب من الجليل وهو لا يخفى عليه خافية .
وروى « أن رجلا حبشيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كنت أفعل الفواحش فهل لي من توبة ؟ قال نعم ، قال فهل كان الله يراني ؟ قال نعم ، فصاح الحبشي صيحة نحر ميتا » .

وروى أن الله تعالى يقول للشيخ يوم القيامة إذا وقف للحساب : يا شيخ ما أنصفتني ، غذيتك بالنعيم صغيرا فلما كبرت عصيتني ، أما إني لأكون لك كما كنت لنفسك ، اذهب فقد غفرت لك ، وإنه ليؤتى بالشاب العامي فإذا وقف وتضعضت أركانه واصطكت ركبته ، فيقول الله عز وجل : أما استجيب مني ، أما راقبتني ، أما خشيت نعمتي ، أما علمت أني مطلع عليك ؟ خذوه إلى أمه الهاوية . ومر منصور بن عمار فوجد شابا يتحدث امرأة ، فانصرف الشاب وتقدم منصور إلى المرأة وكلمها أن تذهب معه إلى بيته ، فحشت خلفه إلى أن دخل منزله فعمدت ووقف منصور يصلي فطول عليها ، فلما سلم قالت له يا هذا طوأت

على ، قال لها ما تقولين في رجل عليه حق بأربعة شهود والخا كم يعلم به هل يقدر أن يمتنع عنه بجحود؟ قالت لا والله ، قال فإن معي ملكين ومعك ملكين ، والخا كم يعلم ، فاضطربت المرأة ووقعت ميتة . وكان طاوس اليماني بمكة فراودته امرأة عن نفسه فلم يزل حتى أتى بها إلى المسجد الحرام والناس مجتمعون فقال لها اقضي ما تريدن ، قالت في هذا الموضع والناس ينظرون؟ قال فالحياء من نظر الله أحق فتابت المرأة وحسنت توبتها :

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ بَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَى رَقِيبٍ
فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا تُخْفِيهِ عَنْهُ يَغِيبُ

قال بعضهم: مررت بجماعة يترامون وواحد جالس منفرداً عنهم، فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال ذكر الله أشهى، قلت إنك وحدك ، قال معي ربي وملكاني ، قلت من سبق من هؤلاء قال من غفر الله له ، ثم قام ومشى وهو يقول: أكثر خلقك مشاغل عنك. وقال محمد بن خفيف: خرجت من مصر إلى الرملة لزيارة أبي علي الروذباري فقيل لي إن في الصور شاباً وكهلاً قد اجتمعاً على المراقبة ، فأتيت إلى الصور وأنا جائع عطشان وفي وسطى خرقه ، فدخلت المسجد فوجدت شخصين قد استقيا القبة ورأساهما على ركبتيهما ، فسلمت عليهما فرفع أحدهما رأسه إلى وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل نخذ من القليل للكثير ، فأقمت عندهما ثلاثة أيام لم نأكل ولم نشرب ولم ننم ، ثم خطر لي أن أسألهما أن يعطاني فرفع أحدهما رأسه وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب مصيبة ليس لنا لسان للموعظة ، يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيئته على قلبك ليعظك بلسان فعله لا بلسان قوله والسلام ، قم عنا . وقال فرقد السبخي . إن المخافق لينظر فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء ، وإذا لم ير أحداً بطش ، وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله عز وجل . وإن المؤمن يعلم أن الله معه ويعلم سره وعلايقته ، وأنه يراه ويعلم نجواه ، فإنما قلبه بين يدي الله عز وجل . فسبحان من تفضل على قوم فقربهم ورفعهم واختصهم بخدمته وأصفاهم ، وتكبر على قوم فأذلهم بحجابه ووضعهم وطردهم عن

بأبه ومنهم ، وحسم باب الوصل وقطاعهم ، لقد جاءهم الإنذار فما نفعمهم (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ - يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ) .
وروى في الحديث « إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُعْطَى كِتَابًا يُحْتَمَى بِمَا بَعْدَ مَا يَجُوزُ لِلصِّرَاطِ فِيهِ فَعَمَتْ كَذَا وَفَعَلَتْ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ اسْتَحْيَتْ أَنْ تُظْهِرَهُ عَلَيْكَ أَذْهَبَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ » فسبحان من يعصيه العبد فيستحيي هو منه ، هل هذا إلا محض الكرم . وقال ذو النون : علامة المراقبة إظهار ما آثر الله تعالى وتعظيم ما عظم الله وتصغير ما صغر الله . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال مالك بن دينار : لقد استحييت من الله تعالى من كثرة ما أتردد إلى الخلاء ، فوددت لو أن الله تعالى جعل رزقي في حصة أمضتها حتى ألقى الله . وكان بعضهم يصلي خارج المسجد فقيل له لم لا تدخل المسجد ؟ قال أستحيي من الله أدخل بيته وقد عصيته . وحكى أن بعض المشايخ كان بفضل واحدا من أصحابه ويخصه بإقباله فينظر أصحابه إلى ذلك فوق في نفوسهم شيء ، فأراد الشيخ أن يبين لهم رتبته ، فأعطى كل واحد منهم طائراً وأمره أن يذبحه في مكان لا يراه فيه أحد ، ففعل كل واحد منهم وذبح طائره وأتى ذلك الفقير بطائره غير مذبوح ، وقال ياسيدي أسرتني أن أذبحه في مكان لا يراني فيه أحد وأبنا ذهبت فآله يراني ، فعلموا أن الفقير الغالب عليه مراقبة الله تعالى .

وكان سهل بن عبد الله يقوم الليل مع خاله محمد بن سوار فأوصاه أن يقول . الله معي ، الله ناظر إلي ، الله شاهدي ، وأمره أن يلزم هذا الذكر بقلبه فإن له أثراً عظيماً في المراقبة وحضور القلب . وقال الفضيل : خمسة من علامات الشقاوة : القسوة في القلب ، وجهود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل ، ثم إن الله تعالى جعل على العباد حفظاً من الملائكة يكتبون الأعمال والأقوال ، فمن لم يصل عقله إلى مراقبة الله تعالى فينبغي أن يستحي من الملائكة ، قال الله تعالى (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ، كِرَامًا كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ) وقال تعالى : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ ، مَا يُلْقِظُ مِنْ قَوْلٍ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) .

وفي الصحيح : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » وروى « أن الذي على اليمين يكتب الحسنات وهو أمين على صاحب الشمال والذي على الشمال يكتب السيئات فإذا عمل العبد حسنة كتبها صاحب اليمين ، وإذا عمل سيئة يقول صاحب اليمين أمهله ست ساعات لعله يتوب أو يستغفر ، فإن تاب لم يكتب عليه شيء ، وإن لم يتب قال له : اكتب أراحنا الله منه ، ما أقل مراقبته لله وأقل حياته » وأقرب الآفات آفات اللسان ولذلك ورد الزجر عنها في آيات كثيرة من القرآن قال تعالى : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) وقال تعالى : (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ اثْنَيْنِ وَلَجَّ الْجَنَّةَ مَا بَيْنَ خَلْيَيْهِ وَبَيْنَ رَجَائِهِ كَرَّرَهَا ثَلَاثًا » وقال عمر رضي الله عنه : من كثر كلامه كثرت سقطه ، ومن كثرت سقطه كثرت غلطه ، ومن كثرت غلطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه . وقال ذو النون المصري : كن بالخير موصوفا ولا تكن للخير واصفا ، فإن الكافر قد ينطق بالحكمة . اجتمع أربعة من حكماء الفرس فقال أحدهم : أنا على ردِّ ما لم أفلأقدر مني على ردِّ ما فات . وقال الآخر : أما أنا فما ندمت على ما لم أفل وطال ما ندمت على ما فات . وقال الآخر : إذا تسكمت بالكلمة ركبقتي ، فإن لم أتكلم بها كنت راكبها . وقال الآخر : عجبت أن يتكلم بالكلمة إن نقلت عنه ضرته وإن لم تغفل عنه لم تنفعه . وقال ابن شمعون : كل نطق بغير ذكر الله فهو لغو ، وكل صمت بغير تفكير فهو سهو ، وكل نظر بغير اعتبار فهو لهو ، فرحم الله امرأ تسكلم بمقدار والتفت إلى الجدران ، فإن هذا زمن السكوت ، ولزوم البيوت ، والرضا بالقوت إلى أن يموت . ومن ثمرات المراقبة الإجابة ومعناها الرجوع عن معصية الله تعالى إلى الطاعة حياة من نظر الله عز وجل . قال تعالى : (وَأَنذِبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْأَلُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) وقال تعالى (هَذَا مَا توعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) وقال تعالى : (وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُوا

الألباب) فالنفس تجرح في ميدان الخالفة باتباع الهوى فإذا تذكر القلب باطلاع الرب أناب ورجعت النفس مقهورة بلعام الجبار .

وروى مسلم عن أبي ذر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله عز وجل أنه قال « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ بُحْرًا فَلَا تَطْلُمُوا . يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِيكُمْ . يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعِمْنِي . يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ . يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ . يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ أَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوَنِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَقْبَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ . يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » .

قال سعيد : كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه . وقال الفضيل : يقول الله عز وجل : « بشر المذنبين إن تابوا قبلت منهم ، وحذر الصديقين إن وضعت عدلى عليهم عذبتهم » . وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العبد ، وإن نعمه أكثر من أن تحصى ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محبت عنه في أم الكتاب . وقال الفضيل : لا يرد الجور بالسيوف إنما يرد بالتوبة . وقال

أبو الجوزاء : إن الرجل ليحدث الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول إبليس ياليتني لم أوقعه فيه . وقال عبد الله بن سلام : ألا لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل : إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين . وقال عبد الرحمن : بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام . وقال عمر بن الخطاب : أجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة .

وقال قتادة : القرآن يدلكم على دلائلكم ودوائكم ، فدواؤكم الذنوب ودواؤكم التوبة . وفي الحديث « مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَيْهِ غُفِرَ لَهُ » وروى أن الله تعالى يقول « يَا عِبَادِيَ كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَاقَبْتُهُ فَاَسْتَغْفِرُ وَنِيَّ أُغْفِرَ لَكُمْ ، وَمَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى أَنْ أُغْفِرَ لَهُ غُفِرَتْ لَهُ وَلَا أَبَالِي » وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : العجب ممن يهلك ومعه النجاة ، قيل وما النجاة ؟ قال الاستغفار . وكان يقول : ما ألهم الله العبد الاستغفار وهو يريد أن يعذبه . وتعلق رجل بأستار الكعبة فقال اللهم إن استغفاري مع إصراري للثوم ، وإن تركي الاستغفار مع علمي بسمة عفوك أمجز ، فكم تشحب إلي بالنعم مع غناك عني ، وأتبغض إليك بالمعصية مع فقرى إليك ، يا من إذا وعد وفا ، وإن توعد عفا ، اغفر عظيم جرمي بعظيم عفوك يا أرحم الراحمين .

وجلس بعض الصالحين في خلوة فقال : إلهي أنت قضيت ، أنت حكمت ، أنت قدرت وأردت ، فهتف به هاتف هذا التوحيد فأين أدب العبودية ، فقال : أنا عصيت ، وأنا جنيت ، وأنا أخطأت ، وأنا أسأت ، فسمع قائلا يقول : إن ربك يقول : أنا غفرت ، وأنا رحمت وأنا تجاوزت ، وأنا سترت ، وأنا أهل التقوى وأهل المغفرة . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يفر منك الناس عن نفسك فإن الأمر خالص إليك دونهم ، ولا تقطع النهار بقيل وقال فإنه محص عليك عمالك ، وإذا أسأت فأحسن فلا شيء أشد إدراكا من حسنة حديثه لذنوب قديم . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لبعض أولاده : يا بني خف الله خوفا قويا لو ترى أنك أنيت بجمع حسنات أهل الأرض لم يقبلها منك ، وارج الله رجاء

تري لو أنك أتيت بجميع ذنوب أهل الأرض لغفرها لك . وقال يحيى بن معاذ : لا يرفع المؤمن قط سيئة إلا وهى بين حسنتين ، رجاء العفو قبلها وخوف العقاب بعدها . وقال إبراهيم الخواص : بينما أنا فى طريق مكة أمشى إذ وقع فى خاطرى العزلة فانفردت عن الناس ومشيت ثلاثة أيام ما خطر فى قلبى طعام ولا شراب ، فوصلت إلى روضة خضراء فيها رياحين كثيرة ونهر من ماء فوقفت متعجبا منها فإذا بنفر قد أقبلوا عليهم صرقات حسان فسلموا علىّ وحفوا بى فقلت من أنتم ؟ قالوا نحن نفر من الجن المؤمنين سمعنا القرآن من محمد صلى الله عليه وسلم فسلمنا حلاوة كلامه جميع اللذات ، فانقطعنا إلى الله فى هذه المكان قفيض^(١) الله لنا هذه الروضة كما ترى ، ولقد اختلفنا فى مسألة وسألنا الله أن يفيض لنا من بينها لنا ، فقلت كم بينى وبين الموضع الذى فارقت أصحابى فيه ، قالوا ثلاثة أشهر ، وإن هذا الموضع لم يصل إليه آدمى قبلك إلا شاب أمانا يوما ونحن جلوس نتذاكر الحبة فلم علينا فرددنا عليه السلام وقلنا له من أين أقبلت ؟ قال من مدينة نيسابور خرجت منها منذ سبعة أيام ، قلنا وما أخرجك منها ؟ قال آية سمعتها قال الله تعالى (وَأَنْذِرُوا إِلَى رَبِّكُمْ) وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ) الآية ، فقلنا ما الإنابة ؟ قال أن يردك الله تعالى عنك إليه ، قلنا فما العذاب ؟ قال عذاب الفراق ثم صاح صيحة ووقع ميتا فواربناه التراب وهذا قبره ، قال إبراهيم فنظرت وإذا قبره فى وسط الروضة حوله رياحين كثيرة وعلى القبر مكتوب هذا حبيب الله قتيل الفجرة ، وإذا طاقة نرجس كأنها رجا عظيمة وعلى ورقة منها مكتوب صفة الإنابة فقرأتها وفسرتها لهم ، فقالوا كفيتمنا جواب مسألتنا ، ووقع فيهم الطرب ووقع على النوم ، فانتهيت فإذا أنا عند مسجد عائشة . ويقال من كرم الله تعالى أنه يقبل الإنابة من القلب وإن لم توافقه النفس ، قال الله تعالى : (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) ولم يقل بنفس منيبة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) قال : هو أن الله تعالى جعل التوبة مقبولة

(١) قفيض : بمعنى قدر ، ومنه قوله تعالى : (وقفيضنا لهم قرنا) .

بكرمه ومنه (فَتَنِّمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) وبئس العبد عبد غذاء بيده ، ورباه تحت ستره ، ولا يخاف عند مخالفة أمره . بئس العبد عبد عصا وتعدي ، وجنى وتواني . نهارة لهو وليله سهو . بئس العبد عبد أصر على الجهاة ، وضع أيامه في البطالة . بئس العبد عبد يعلم أن مولاه يراه وهو يبارزه ولا يخشاه ، ونعم المولى مولى سترك بستره ولا طفك بيده وأطلمك على سره ، مولى يقبل الحسنات ، ويغفر السيئات ، ومولى إن أظمتك شكر ، وإن عصيتك ستر ، وإن تبت إليه قبل وغفر . وإن دعوته لباك ، وإن قصده أدناك ، وإن أعرضت عنه ناداك ، مولى توكل بك بهدايته وطوقك بمبادته ، وسربك بخدمته وأركبك على عطية محبته ، مولى يغفر ذنوب العمر بتوبة ساعة ، ثم يبدل مكان كل سيئة طاعة ، مولى أقام لك الشفعاء قبل العصيان ، ويشفعك فيمن تحب بعد الففران : (فَتَنِّمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) .



الفصل الرابع والعشرون

في الحذر

الحمد لله الذي خلق الإنسان من سلاله ، وركب بلطف حكمته مفاصله وأوصاله ، ورباه في مهاد لطفه ثلاثين شهرا حمله وفصاله ، ورقاه في أطوار خلقه حتى بلغ أشده وكاله ، وزينه بالعقل والعلم فأزال عنه ظلماء الجهالة ، وأجرى عليه ما سبق به القضاء ، فله الاختيار لأنه بمشيئته الضر والنفع والعطاء والمنع والهدى والضلالة . أسعد أوليائه بقربه فجعل حظهم أنسه وإقباله ، وأعزهم بخدمته وطهر أسرارهم لحضرته فهي في الملكوت جواله . ألقوا همهم ببابه وتلذذوا بمناجاته وخطابه وتنعموا بجماع كتابه فأكمل لهم بذلك أفضاله ، لا يبرحون من بين يديه ، ولا يعولون إلا عليه . ولا يشاققون إلا إلهيه . وكيف يصبرون وقد شاهدوا بأسرارهم جماله ؟ امتلأت قلوبهم بهيبته ، وغرقت أفكارهم في بحر معرفته فازدادت عطشا ودهشا حين شاهدت جلاله ، فسبحان من اختارهم لنفسه ، ونعمهم بأنسه وأجزل لهم نواله ، وحجب قوما عن هذه العوارف ، وقطعهم بعذله عن رياض المعارف ، وقيدهم بقيود القواطع والموانق والصوارف ، وكيف يسرح في رياض العرفان من أوثق الحرمان أغلاله ، فأسماعهم لا تلتذ بخطابه ، وقلوبهم لا تنزعج لعبابه ، وأرواحهم لا ترتاح إلى مسارح أحبابه ، شتان بين حالة وسالة ، كم بين من يسر له مولاه سبيل السعادة وحقق آماله ، وأجزل نصيبه من التوفيق وقبل أعماله ، وبين من قطع عن خدمته وأبعد عن حضرته فأطال حجابيه ونكاله . الأمر أمره والحكم حكمه ، والملك ملكه . فلا ترى في الملكوت إلا أفعاله ، تعرض

لنفعات جوده أيها السائل السائل، واستنشق غيث ولائه فسيل الجود سائل، فكم قاصد أعطاه قبل الطلب فكفاه سؤاله .

أحمد على ما أجزل من بر فأناله . وأسبل من ستر على العاصي فأطال إيماله . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة صادرة عن حق يقين وصدق مقال . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بأوضح الدلالة، وختم به النبوة والرسالة ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دأمة ما حسنت في ذوات الياء الإيماله . وصح في حروف البيان قبل الهمز المد والإطالة .

في قول الله عز وجل (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) هذا تخويف عظيم وتعريف بأمر ذي خطر جسيم بأن الله يعلم ما أضمرت في نفسك وإن خفي على الخلائق فاحذر من سطوته وإقامة عدله في المطالبة بإقامة الحقائق (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) بطشه بطش جبار ، وأخذه أخذ قهار ، ثم أتبع هذا التخويف بذكر الجود العميم فقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) رحمته رحمة غني كريم ، وحلمه حلم رؤوف رحيم ، إذا بطش أدهش حتى لا طاقة ، وإذا رحم أنعم حتى لا إفاقة ، فالعارفون أبدا بين الجلال والجمال فهم في دهش عظيم وأنس ووصال ، والعابدون بين خوف ورجاء وخشية وحياء .

قال بعض العارفين : إن الله عابدا أسكتهم خشية الله من غير عي ولا بكم وإلهم لهم للبلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله العالمون بالله وآياته، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله تعالى تقطعت قلوبهم وطاشت عقولهم وكلت ألسنتهم فرقا من الله عز وجل وهيبة لجلاله . قيل للحسن البصري : كيف تصنع بمجالسة أقوام يخافوننا حتى تسكاد قلوبنا أن تطير فقال : والله لأن تجالس من يخوفك حتى يدركك الأمن خير من أن تجالس من يؤمنك حتى يدركك الخوف .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود إن أحوج ما يكون العبد

إلى إذا استغنى عني . وأنا أرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني . وإن أجل ما يكون
 عبدي إذا رجع إلى . يادود قل لشباب بني إسرائيل لم شغلوا أنفسهم بغيري وأنا المشتاق
 إليهم ، ما هذا يادود ؟ لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك
 معاصيهم ؟ لطاروا شوقا إلى ، ولتقطعت أوصالهم من محبتي . هذه إرادتي في المدبرين عني
 فكيف إرادتي في القبلين علي . يامن غره لم الإهمال وجر أذيله في المغفلة والإهمال . ونسي
 ما بين يديه من العظام ، وما أعد للمحسنين من السكرات ، أرضيت ببيع حظك من الله
 بزئوف شهواتك ؟ أم قنعت من غنائم المجاهدين في سبيل الله بكفاية منازل غفلاتك .
 خسرت والله صفقة من باع لحظة من نعيم الآخرة بنعيم الدنيا فكيف يبيع النعيم الباقي
 بشهوة لحظة ؟ لكن قد قال العليم الخبير (هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي
 الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) الكافر أعمى القلب عن الحق ، والمؤمن بصير أبصر بعين قلبه لما
 كشف الغطاء عن بصيرته فانتفع بما سمع ورأى ، فإن أسدل حجاب الغفلة على قلبه وقف
 على ما ظهر له من حجب فلم يظهر لإيمانه ثمرة (أم هل تستوي الظلمات والنور) الاشتغال
 بذكر الله تعالى وخدمته نور ، والاشتغال بغير الله ظلمة ، الأعمى يتعلق بمن لا يبصر
 ولا يسمع ، ومالا يضُرُّ ولا ينفع ، فهو يسعى في ظلمة ، والبصير يتعاقى رب الأرباب ،
 وفتاح الأبواب ، الذي يعلم خفي أنين المذنبين ، وتضرع الخائفين ، ويبصر جريان الدمع
 في آفاق الحزوين ، وتعهد أنفاس اللقطامين ، إذا نظروا إلى أحوال السابقين (وَمَا تَسْقُطُ
 مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ
 مُبِينٍ) يبصر ويستر ، ويمنح ويمدح وينعم ويعطي ، والعبد يحرم ويخفى ، مولى تعصيه
 خسين سنة ثم ترجع إليه مقدار سنة فيبدل مكان كل سيئة حسنة ، يغفر الكبير ، ويقبل
 اليسير ، ويقيل عثرة النادم على التقصير ، ويمن بإطلاق الأسير (فَتَنِمَ الْمَوْلَى وَنِعِمَ النَّصِيرُ)
 (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعٍ ، هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)
 هل يستوي من عى قلبه عن طريق الرجوع إلى مولاه فهو متاد في عصيانه وموافقة هواه

ومن كل بكحل التوفيق فأبصر طريق التحقيق أجاب داعي الله إذا دعاه واستغاث بمن
يعلم سره ونجواه ، ووقف في جنح الظلام وناداه :

بَحْضُوعٍ وَدُمُوعٍ وَرُجُوعٍ وَافْتِقَارٍ
وَنُحُولٍ وَذُبُولٍ وَخُحُولٍ وَانْكِسَارٍ
وَأَيْنٍ وَحَنِينٍ وَيَقِينٍ وَاضْطِعَابٍ
يَا إِلَهِي جُدْ بِعَفْوٍ فَلَقَدْ طَالَ انْتِظَارٍ
ضَاعَ قَلْبِي فِي التَّمَنَّى وَلَهُ حَقُّ الْجَوَارِ

هل يستوى الجاهل والعالم ، هل يستوى الهالك والسالم ، هل يستوى الغائب والحاضر ،
هل يستوى الغافل والذاكر ، هل يستوى البعيد والقريب ، هل يستوى العدو والحبيب ،
هل يستوى من هو مع نفسه ومن هو مع ربه بنعم بأنسه ، هل يستوى من هو في منزلة
الفراق يقاسى وباله ، ومن هو في حالة الوصال يجر أذياله ، هل يستوى من ربط بقيد
الخذلان ، ووسم وصم المهجران ، وحبس في سجن الحرمان . ومن هو في نعيم الرضوان
قد ظهرت عليه أنوار الإيمان ، لا يستويان ولا يلتقيان ولا يجتمعان ، هل يستوى من أبعده
وحجباه ، ومن أخذنا بيده وقربناه ، هل يستوى من أعرض عنا ولم يطلب الإقالة مفاء
ومن أقبل بكلية علينا ووجد نعيم قلبه لدينا كما قيل :

فَيَا وَبَحَّ قَلْبِ رُمِي بِالْجَنَافِ قَبَاتَ عَلَى مِثْلِ جَرِّ الْغَضَى
وَأَصْبَحَ بِنَدْبٍ رَسْمًا عَفَا وَبَيْكِي عَلَى فَقْدِ عَيْشٍ مَضَى
وَلَيْلُ الصَّدُودِ أَتَى مُقْبِلًا وَوَلَّى نَهَارُ الرِّضَا مُعْرِضًا
فَسَمِلُ الدُّمُوعِ وَشَقَّ الْجُيُوبِ حَقِيقٌ عَلَى قَوْتٍ وَقَتِ الرِّضَا

ما أصعب آثار سخطك للكل ، ما أعظم مصيبة من أعرض عنه الحبيب . ما أوحش
الصدود بعد الأنس ، ما أشد السكدر بعد الصفاء :

لَيْسَ الْبَلَاءُ بِبَلِيَّةٍ الْأَجْسَادِ وَمُصِيبَةُ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

هَجَرُ الْحَبِيبِ هُوَ الْبَلَاءُ بِمَعْنَاهُ وَالصَّدُّ بَعْدَ تَوَاصُلِ وَوِدَادِ
فَالرَّبْعُ مِنْ بَعْدِ الْأَنْبَسِ مُعْطَلٌ قَفَرٌ تَبَدَّلَ قُرْبُهُ بِبِعَادِ
مَنْ لَمْ يَنْبُ وَالْتَبَيْنُ يَقْرَعُ قَلْبَهُ لَمْ يَذَرِ كَيْفَ تَفَقَّتْ الْأَكْبَادُ

هل يستوى الهجران والوصال ، هل يستوى الإعراض والإقبال ، هل يستوى من أقصاه مولاه وحرمه ، ومن أدناه ورحمه ؟ هل يستوى من بالطرد وسمه وسد عنه باب الوصل وحسه . ومن حماه عن المخالفات وعصمه ، وأيقظه لذكره وألهمه ، وجزل حفظه من التوفيق حين قسمه . هل يستوى من يبارز الله تعالى بمصيته وهو آمن من عقوبته ؛ ومن أنفق عمره في خدمته وهو خائف من سطوته . هذه قسمة المولى واحد في أسر الدنيا وآخر في طلب المعقب ، وآخر معرض عن الأولى . وآخر مقبل على المولى ، وكل يسمى بما سبق به القضاء (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) إلهي كيف الخلاص من ظلماتنا إلا بنور عنايتك ، وأهل السلامة من آفاتنا إلا بحفظك ورعايتك ، وبمن تتعاق آماننا إلا بكرم جودك العميم ، وإلى من تلجئ إلا إلى ركنك العظيم :

إِلَيْكَ وَإِلَّا لَا تُشَدُّ الرِّكَابُ وَمِنْكَ وَإِلَّا لَا تُنَالُ الرِّغَائِبُ
فِيكَ وَإِلَّا فَلَرَجَاءُ مُخَيَّبُ وَعَنْكَ وَإِلَّا فَاَلْمُحَدَّثُ كَاذِبُ
لَدَيْكَ وَإِلَّا لَا قَرَارَ يَطِيبُ لِي عَلَيْكَ وَإِلَّا لَا نَسِيلَ السَّوَائِبُ
رِضَاكَ وَإِلَّا فَالْفَرَامُ مُضَيِّعُ سِنَاكَ وَإِلَّا فَالْبُدُورُ غِيَاہِبُ

إلهي أنت الغنى الكريم تدعونا إليك وترغبنا فيما لديك ، وتقابل إساءتنا بإحسانك ، وتستر خطايانا بغيرانك ، وتذهب ظلمة ظلمنا لأنفسنا بفور رضوانك ، وتقهر عدونا عنا بمر سلطانك ، فاعودنا منك إلا الجميل ، وما لنا قلب عن بابك يميل :

بِحِمَالِ جُودِكَ مَا حَيَّيْتُ نَوَاشِلِي وَبِهِ بَصِيحُ رَجَاءِ كُلِّ مُؤَمِّلِ
مَنْ كُنْتَ أَنْتَ رَجَاؤُهُ وَمَلَاذُهُ فَلَقَدْ تَعَلَّقَ بِأَلْجَنَابِ الْأَكْمَلِ
يَا مُنْتَهَى قَصْدِي وَغَايَةَ مَطْلَبِي يَا مَنْ عَلَيْهِ وَإِنْ فَنَيْتُ تَوَكُّلِي

أَسْكَنْتَ حُبَّكَ فِي فَوَادِي مَنَزِلَا وَهَوَى سِوَاكَ يَحُومُ حَوْلَ الْمَنَزِلِ
عَقْدُ الْوِدَادِ لِفَيْرِ حُبِّكَ بَاطِلٌ مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
إلهی عبدك المسكين علی الباب ينتظر عفوك عن العبيد ، أو رضاك عن الأحباب ،
قد صکتب قصة إفلاسه ووضع يده على راسه ، وأنت أعلم بالحال وأولى بالوجود
والإفضال :

شَكَآ إِلَيْكَ مَا وَجَدَ مَنْ خَانَهُ فِيكَ الْجَلْدُ
حَيْرَانُ لَوْ شِئْتَ أَهْتَدَى ظَلْمَانُ لَوْ شِئْتَ وَرَدَ
اللهم اجعلنا من المتقين الأبرار ، واسلك بنا سبيل عبادك الأخيار . وألهمنا رشدنا ،
وأجزل لنا من رضوانك حظنا ، ولا تحرمنا بذنوبنا ، ولا تطردنا بعيوبنا ، واغفر لنا ولوالدينا
ولجميع المسلمين والمسلمات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .



الفصل الخامس والعشرون

في الدعوة

الحمد لله الذي أجرى الماء بطيف حكمته في خلال الشجر فالأنه ، وكسا عاقل الروض من حلى الدبات ما كلفه وزانه ، بعث لواقع الرياح إلى الأفنان فحرك كل فن عيدانه ، فقابل الحزين وتبلىل المسكين لما رأى بلبل الأشواق وقد طيب ألحانه ، كل يشهد بكمال صانعه وإن أخرس المعجز لسانه ، الذي أطلع شمس معرفته في قلوب أهل محبته فأكل لديهم إحسانه ، وأرسل غيث ولانه إلى أمرار أوليائه وحفظ عطاءه وصانعه ، ووفق من ارتضاء من عبادہ وجعله من آل وداده فوفى بالأمانة ، وسكن حرق الخائفين عند لقائه ورزقهم أمانه ، وضمن المزيد للمحسنين وهو الذي لا يخلف ضمانه ، الذي تفرد بالبقاء والقدم والعز والكبرياء والمجد والثناء فما أعز سلطانه ، الحى العليم القدير المدبر السميع البصير القيوم الملك الكبير فسبحانه من جبار ما أعظم شأنه ، المتكلم بكلام قديم أزلى لا يشبه كلام خلقه فمن شبه فقد بخس ميزانه ، والقرآن كلام الله نزل به الروح الأمين على قلب محمد سيد المرسلين وقال فيه ليؤمننه نسيانه : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمَاجِلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) جلّ العلى العظيم عن الأشباه فمن شبه فقد أتبع خيالاته ووافق شيطانه ، له الجلال والكمال فمن جسد الصفات فقد أوهن إيمانه ، غرقت الأفهام في بحر تعظيمه وجبروته ، وتحيرت الأبواب في دوام ملكوته فرجعت خاسرة لتسأل الإهانة ، قسم عطاءه بين خلقه فلا مذل لمن أعزه ولا مكرم لمن أهانه ، فالسعيد من أهله تلذمته وعامله برحمته فجعل ذكره راحته وريحانه ، فالقرآن

أنيسه والولى جايسه ، وكيف لايزيل بمجالسة الحبيب أحرانه ، والطريد من حجبته عن معرفته وخذله فصرفه عن خدمته وجعله تابعا لهواه سبغانه الأمر أمره والحكم حكمه والملك ملكه ، فن أعرض فقد ضيع في الهذيان زمانه (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ) سبغانه .

أحمده على ما شاد من فضل فقوى أركانه ، وصرف من سوء فاطفا نيرانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله بين أدلة وحدانيته وأوضح برهانه ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أظهر بالتحقيق سره وإعلانه ، وأثار به سبيل الهدى فأزال به الباطل وبهتانه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما هب نسيم السحر على الشجر فهز أغصانه ، وحرك ما كن حنين المشتاق فتذكر أوطانه .

في قوله تعالى (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) خطاب الله تعالى في كتبه المنزلة على لسان رسوله دعوة عامة لجميع المخاطبين أمر الكل بالإيمان والطاعة ، ونهاهم عن الكفر والمخالفة ، فيجب علينا امتثال الأوامر واجتناب النواهي لحق الربوبية ، وتمكيس رأس الاعتراض بوصف العبودية ، وهداية الله تعالى بمشيئته وإرادته وحكمه وقضائه خاصة للمؤمنين ، فقد دعا الكل وهدى البعض وأمر الكل ووفق البعض ونهى الكل وعصم البعض بفعل في ملكه ما يشاء ويحكم ما يريد (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) دعا الأنام من دار الآلام إلى دار السلام ، فن لبي فنشر له الأعلام ، ومن أبي فبشقوته جرت الأقلام ، دعاهم من دار العبادة إلى دار الزيادة ، دعاهم من دار الشقاء إلى دار البقاء ، دعاهم من دار أولها بكاء وأوسطها عناء وآخرها فناء . إلى دار أولها عطاء وأوسطها لقاء وآخرها بقاء . دعاهم من دار دنية إلى عيشة رضية ، دعاهم من دار التكليف إلى دار التشريف ، دعاهم من دار أصلها مدر ، وعيشها كدر ، ونفعها

ضرر وروحها شرر، ووعدھا غدر، إلى دار أصلها دُرُر وعيشها لقاء ونظار، وطرازها جنات ونهر، فالدعوة عامة التزاما للحجة، والهداية خاصة بيانا للحجة ودار السلام الجنة والسلام من أسماء الله تعالى، فمعناه دار الله تعالى، دعاهم إلى داره فنعم الدار دارهم، ونعم المزار مزارهم؛ ونعم الجار جارهم، ونعم السكن الفردوس الأعلى، ونعم الجار السيد المولى، ونعم الرفيق السيد محمد المصطفى، ويقال سميت الجنة دار السلام أى دار السلامة من الآفات والعاهات والنكبات يسلون فيها من الضرر والفقر والفن والهجر يسلون فيها من الأوجاع والأمراض والصدود والأعراض، يسلون فيها من طلب القوت وضيق البيوت وسكرة الموت وحسرة القوت، ويقال سميت الجنة دار السلام لأنهم دخلوها بسلام آمنين، ولهم فيها سلام بعضهم على بعض، قال الله تعالى (إِلَّا قِيلَ سَلَامًا سَلَامًا) ولهم فيها سلام للملائكة عليهم (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) ولهم سلام الله عز وجل عليهم بلا واسطة (تَحِيَّاتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ - سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) فمن دعاه مولاه إلى داره وشرح صدره بأنواره وحشا قلبه بمكنون أسرارهم، فاز بقربه وجواره، ومن دعاه إلى داره وأشقاه بسوء اختياره صرفه عن جواره وخلده في ناره، وآخر دعاه وهداه ووقاه وقواه وآواه ورعاه وكلاه وأدناه كيف لا يجيبه، وآخر دعاه وأعماه وأشقاه وأقاه^(١) وأخزاه. وقلاه وكيف يجيبه.

وفي الصحيح «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقًا لِلْجَنَّةِ وَبِأَعْمَالِ الْجَنَّةِ يَمْعَلُونَ وَخَلَقَ لِلنَّارِ خَلْقًا وَبِأَعْمَالِ النَّارِ يَمْعَلُونَ» فأولياء الله في الدنيا متنعمون بذكره، متزينون بطاعته وشكره، راحة قلوبهم في التذلل بين يديه، وأسرارهم في الإقبال عليه، فلم نعم معجل في دنياهم ولهم الجنة في عقباهم، والغافلون في سجن الهوى والمصيان، وقيد الشقاء والحرمان، مبعدون عن بابه محجوبون بحجابهم، فلم عذاب معجل بما حرموا من

(١) أقاه: بمعنى صغره، ورجل قىء بمعنى صغير.

خدمته ، ولهم عذاب شديد في جهنم مع ما حرموا من جنته :

وَوَضَعْنَاهُ أَجْسَنُ مِنْ جَنَّتِهِ	بَلْ هَجَرُهُ أَضْمَبُ مِنْ نَارِهِ
وَالنَّيْلُ كُلُّ النَّيْلِ فِي قُرْبَتِهِ	فَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ فِي بُعْدِهِ
الْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ فِي خِدْمَتِهِ	يَأْمَنُ يُرِيدُ الْعِزَّ يَحْطَى بِهِ
وَاسْتَسْقَى غَيْثَ الْجُودِ مِنْ رَحْمَتِهِ	اقْطَعْ تَصِلْ أَقْبِلْ قَرَّ بَرِّهِ
أَسْمَدُهُ بِالْقُرْبِ مِنْ حَضْرَتِهِ	لِلَّهِ عَبْدٌ شَفَلُهُ ذِكْرُهُ
يَتَّبِعُهَا التَّقَطِيرُ مِنْ عِبْرَتِهِ	فَشَفَلُهُ تَصْمِيمُهُ أَنْفَاسِهِ
لَبَيْكَ عَبْدِي سَلْ دَلَالًا وَتَبْ	إِنْ قَالَ يَا رَبِّ يَقُلْ رَبِّهِ

والمكلفون على أربعة أقسام :

القسم الأول: قوم خلقهم الله تعالى لخدمته وجنته وهم الأنبياء والأولياء والصالحون والمؤمنون ، عاشوا في الدنيا بين آثاره وأنواره ، اطمانت بذكر الله تعالى قلوبهم ، وطابت بطاعة الله تعالى حياتهم ، وعلت بمحبة الله تعالى أنوارهم ، ورفعت إلى الملكوت أذكارهم قال الله تعالى (مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) والحياة الطيبة لذة الطاعة وعز القناعة ، فازوا بعز الدارين نالوا شرف المنزلة فاعلوا لهم وحسن مآب .

القسم الثاني : قوم خلقهم الله لجهنمه دون خدمته ، وهم الذين عاشوا كفارا ثم ختم لهم بالإيمان أو فرطوا مدة حياتهم وانهمكوا في العصيان ، ثم تاب الله عليهم عند الخاتمة فاتوا على حالة التوبة والإحسان ، كسفرة فرعون ، وكانوا ثلاثين ألفا على ما يقال آمنوا بالله وقتلوا من يومهم ذلك فدخلوا الجنة ، كانوا أول النهار يخلصون (وَعِزَّةٌ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَدْنُّهُ الْغَالِيُونَ) ثم بعد ساعة حلفوا (وَالَّذِي فَطَرَنَا) كانوا يطلبون الجزاء من فرعون ويقولون (أَيْنَا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) ثم بعد ساعة قالوا : (أَنْ نُوْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ بَشَرَةٍ)

الْبَيْنَاتِ وَالْقَدَى فَطَرَنَا فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ (إِلَى قَوْلِهِ (خَيْرٌ وَأَبْقَى) وَالْمُعْجَبُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْطَقَ فِرْعَوْنَ بِمَا كَانَ فِي بَاطِنِهِ الْبَشَرَى وَهُوَ قَوْلُهُ (نَعَمْ وَإِنْ كُنْتُمْ لَمَنِ الْمَقْرَبِينَ) كَانُوا مَقْرَبِينَ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) كُلُّ مَنْ عَمِلَ سُوءًا فَعَمِلَهُ إِلَّا بِجَهَالَةٍ وَغَفْلَةٍ وَقَلَّةِ تَعْلِيمٍ لِأَمْرٍ اللَّهُ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ عَالِمًا ، وَكُلُّ مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ وَيَمَازِينَ الْمَلَائِكَةَ وَيُغْرَغِرَ فَقَدْ تَابَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ الْبَعِيدَةَ تَوْبَةٌ مِنْ فِرَاطٍ حَتَّى عَايَنَ مَلَكُ الْمَوْتِ فَصَارَ فِي حِينِ الْآخِرَةِ ، وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ (وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ الَّذِينَ يَتُوبُونَ فِي الْآخِرَةِ وَيَسْتَرْفُونَ فِي دَرَكَاتِ لُطَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) أَيْ لَا تَقْبَلُ تَوْبَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ وَقَالَ تَعَالَى (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ^(١) مِنْ مَسْكَانٍ بِعِيدٍ) أَيْ وَكَيْفَ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى التَّوْبَةِ وَتَنَاوُلَهَا وَقَدْ بَعُدَ عَلَيْهِمْ مَكَانُهَا فَإِنَّهَا إِنَّمَا تَقْبَلُ فِي الدُّنْيَا . قَالَ تَعَالَى (فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَمُسَخَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

القسم الثالث: قوم خلقهم الله تعالى لخدمته ولا لجنته وهم الكفار الذين يموتون على الكفر في الدنيا ، حرموا في الدنيا نعم الإيمان ، وفي الآخرة مخلدون في العذاب والهوان .
القسم الرابع: قوم خلقهم الله تعالى لخدمته دون جنته وهم الذين كانوا عاملين بطاعة الله تعالى ثم مُسَكَّرَ بِهِمْ فطردوا عن بابه وماتوا على الكفر بالله ، نَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَافِيَةَ بِمَنْهُ وَكَرَّمَهُ فَإِنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ بِغَيْرِ كَلْفَةٍ وَلَا نَصَبٍ ، وَيَخْتَارُ مَا يَشَاءُ بِغَيْرِ زُلْفَةٍ وَلَا سَبَبٍ ، قَوْمٌ أَذْلَهُمْ وَأَشْقَاهُمْ ، وَحَجَبَهُمْ وَأَقَامَهُمْ وَأَضْلَاهُمْ وَأَخْزَاهُمْ ، وَلَوْ أَلْبَسَهُمْ لِبَاسَ السَّعْدَاءِ زَمَانًا ، فَلَا يَبْدُ أَنْ يَسْلِبَهُمْ وَيَلْبِسَهُمْ ذُلًّا وَهَوَانًا ، وَقَوْمٌ اخْتَارَهُمْ وَأَصْطَفَاهُمْ وَانْتَخَبَهُمْ وَاجْتَبَاهُمْ ، وَأَعَزَّهُمْ وَقَوَّاهُمْ

(١) التناوش : التناول ، يعنى من أين لهم أن يتناولوا الإيمان وقد كفروا به من قبل .

وخولهم وأعظام ، ووالاهم وأولاهم، ولو ألبسهم لباس البعد والحجاب فلا بد أن يردم إلى الباب، ويلبسهم لباس الأحباب ، وهو الكريم الوهاب . اللهم اجعلنا من عبيدك المفلحين وأوليائك للفقير الذين أهلكهم نكمتك ، ونممتهم بأنسك وحضرتك ، وسقيتهم لذيذ شرابك ، وخلصت عليهم خلق أحيائك ، هانحن عبيدك قد ألقينا نفوسنا بين يديك ، وطمعنا بحسن وعدك وجعل رفدك فيما لديك ، اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين والمسلمات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين آمين .



مرکز تحقیقات کتب و تراث اسلامی

الفصل السادس والعشرون

في الفقر

الحمد لله الذي لا ينجيب لديه أمل من أملة ، ولا يغييب عن بساط قربه من رضيه وقبله ،
الأول من غير بداية . والآخر من غير نهاية الغنى الذي لا شريك له فيما ثبت له ، القدوس
الصمد الواحد الأحد الذي لا شريك له فيما فعله . استوى على العرش من غير تكليف
ولا تشبيه وقد ضل من شبهه ومثله . العرش لا يمسكه . والعقل لا يدركه . الوهم لا يصوره .
والفكر لا يقدره . وقد خاب من كان ظفنه من الإيمان جدله . القريب بعلمه وقدرته
وكرمه ورأفته . ففي كل ليلة يدعو العباد إليه فيغفر لمن استغفره ويتوب على من تاب إليه
ويعطى من سأل . الحى العليم التقدير المريد السميع البصير ووصف كماله لاحد له ، المتكلم
بكلام قديم أزلى لا يشبه كلام خلقه ، والقرآن كلام الله الذى أنزله : صفاته قديمة ثابتة
بالأدلة وقد ضلت المعتزلة . من نفى عنه صفات الكمال فإنما يتعلق بزخرف الجدل وخاض
في ظلمات المعطلة (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ومن شبه فقد جهل فيما انتجعه ، سبى بحمده كل
ناطق وصامت ففي كل مصنوع سر لمن تأمله ، فالأ كوان كلها واقفة على قدم الافتقار ،
ناطقة بلسان الاضطرار ، متضرعة مبهلة فلعره يجب الخضوع ، ونحوف هجرة تسيل الدموع
وفي جلاله تحق الحيرة والوله . قسم عطاءه بين خلقه ، فالقريب من قربه والبعيد من حجب
وكل يسعى فيما له أهله ، والشقى من قطعه ومنعه وخذله وصرعه ، والسعيد من والاه وتولاه
وارتضاه ووصله ، ما أسعد من أيقظه مولاه لذكركه فلم يقطعه عنه قاطع ولا شغله ، ما أبعد
من ضيع عمره في الففلات فلم ينتفع بما حصله ، ما أطول حسرتة يوم العرض على الجبار ،

ما أشد خيبتته إذا عاين منازل الأبرار ، فتباً للفنائم عن الفنائم ما أغفله . تذل بين يدي مولاك أيها المسكين فهو الذي لاتضيع لديه المسألة ، الذي علم وأحصى ، وقرب وأقصى ، وإليه الرجوع فيوق كل عامل عمله .

أحمد على ما أسدى من خير وأجزله ، وأبدى من برّ فأكمله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله علم الأشياء مجلّة ومفصلة ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أرسله ، وحبيبه الذي أنزل عليه الكتاب فجمع فيه علوم الكتب المنزلة ، وكشف ببرهانه كل معضلة وأوضح ببيانه كل مشكلة ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه كما جعله بالخير أجود من الريح المرسلة .

في قول الله عز وجل (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) الآية ، هذه الآيات في تفضيل الفقراء . وسبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم أول من آمن به الفقراء . وكذلك كل رسول أرسل أول من يتبعه الفقراء . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس مع الفقراء ، أصحابه مثل سلمان وبلال وصهيب وعمار بن ياسر وعامر بن فهيرة ونحوهم من الفقراء ، فأراد المشركون أن يحتالوا عليه في طرد الفقراء لما سمعوا أن علامات الرسل أن يكون أول من يتبعهم الفقراء . فجاء بعض رؤساء المشركين وقالوا يا محمد اطرّد الفقراء عنك فإن نفوسنا تأنف أن تجالسهم فلو طردتهم لآمن بك أشرف الناس ورؤساؤهم ، فأنزل الله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) أي لاتعدها لهم ولا تجاوز عنهم بنظرك رغبة عنهم وطلبك لصحبة أبناء الدنيا (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ) فَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) ثم ضرب لهم مثل الغني والفقير بقوله (وَاصْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ) الآيات (وَاصْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الآيات ، فكان صلى الله عليه وسلم يعظمهم ويكرمهم ، ولما هاجر إلى المدينة هاجروا معه فكانوا في صفة المسجد مقيمين متبتلين فسموا أصحاب للصفة ، فكان ينتهي إليهم من يهاجر من الفقراء حتى كثروا رضى الله عنهم ، شاهدوا

ما أعد الله تعالى لأولياته من الإحسان، وعابنوه بنور الإيمان، فلم يكلف قلوبهم بشيء من
الأكوان، بل قالوا إليك نعبد، ولك نخضع ونسجد، وبك نهتدى ونسترشد، وعليك
نتوكل ونعتمد، وبذكرك نتنعم ونفرح، وفي ميدان ودك نرتع، ولك نعمل ونسكح،
وعن بابك أبدا لا نبرح. فحينئذ أمرهم بهم سبيله، وخاطب فيهم رسوله. فقال تعالى :
(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) أى لا تطرد قوما إن أمسوا فعلى
ذكر ربهم يتقلبون، وإن أصبحوا فإلى بابه ينقلبون، ولا تطرد قوما للمساجد مأواهم، والله
مطلوبهم ومولاهم، لا تطرد قوما انزروا بالذل والمسكنة خضوعا، وارتدوا بالهيبه والوقار
خشوعا، الجوع طعامهم، والسهر إذا نام الناس إدامهم. والفقر والفاقة شعارهم، والعسيت
والحياء دنارهم^(١)، والتجريد مع الله فى القلوب ولائهم. وذكر الله فى الخلوات تمامهم،
فطموا نفوسهم عن الشهوات، وحرموا أبدانهم من اللذات، ربوا خيل عزمهم على باب
مولاهم، وبسطوا وجوههم فى محارب نجواهم.

وَمَا يَعْلَمُ النَّاسُ عَمَّنْ آسْتَفَلُوا
مَنْ ذَاقَ وَصَلَ الطَّيِّبِ هَامَ وَلَمْ
يَحُلْ لَهُ مَنَزِلٌ وَلَا طَلَلٌ
لِلَّهِ قَوْمٌ يَرْوِحُهُمْ سَمَحُوا
عَاشُوا وَقَازُوا هُمُ الْمُلُوكُ وَإِنْ
أَسَاسُ تَهَنُّوا بِمَا بِهِ شَفَلُوا
وَاسْتَصْفَرُوا قَدَرَهَا وَمَا جَهَلُوا
ذَلُّوا وَإِنْ أُمْلَقُوا وَإِنْ حَمَلُوا

للفقر نحر الأنبياء، وشعار الأتقياء، ولباس المتقين، ومطية الصادقين.

مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَلَمْ تَغْنِهِ
مَعْرِفَةُ اللَّهِ فَذَلِكَ الشَّقَى
مَاضٍ ذَا الْفَاقَةِ مَا نَالَهُ
فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمَا ذَا لَقَى
مَا يَفْعَلُ الْعَبْدُ بِعِزِّ النَّعَى
وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقَى

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِنْ سَكِينَةٍ

(١) الدنار : بالكسر ، كل ما كان من الثياب فوق الشعار ، ومنه قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) .

وَأَمِنتُ مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمرَةِ الْمَسَاكِينِ ، فقال أنس بن مالك يا رسول الله إنك لتدعو بهذا الدعاء كثيرا ، فقال : يَا أَنَسُ إِنَّ الرَّحْمَةَ لَا تَخَارِقُهُمْ طَرَفَةً عَيْنٍ يَقُولُ اللَّهُ عز وجل مَا ضَرَّكُمْ مَا فَاتَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَعْدَ أَنْ كُنْتُ لَكُمْ حَفَظًا . وقال أبو سليمان الداراني : بلغني أن تنفس الفقير دون شهوة تعدل عبادة الغني ألفي عام . وقال بعض السلف : العبادة مع طلب الدنيا كروضة على مزبلة ، والعبادة للفقير كمقد جوهر في جيد حساء .

مَنْ كَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَلَمْ يَقْنَعْ فَذَلِكَ الْمَوِيرُ الْمُفْسِرُ
وَكُلٌّ مَنْ كَانَ قَنُوعًا وَإِنْ كَانَ مُقْلًا فَهُوَ الْمُصْغِرُ
الْفَقْرُ فِي النَّفْسِ وَفِيهَا الْغِنَى وَفِي غِنَى النَّفْسِ الْغِنَى الْأَكْبَرُ

هل سمعتم أن فقيرًا ادعى الربوبية ، أم هل بلغكم أن فقيرًا نازع الألوهية ، وكم من جبار تفرعن وطني ، ومترف تجبر وبنى :

مِنْ شَرَفِ الْفَقْرِ وَمِنْ فَضْلِهِ عَلَى الْغِنَى بِأَصَاحٍ لَوْ تَغْتَبِرُ
أَنَّكَ تَمْصِي كَيْ تَنَالَ الْغِنَى وَلَسْتَ تَمْصِي اللَّهَ كَيْ تَفْتَقِرَ

والفقر عام وخاص ؛ فالعام الحاجة إلى الله تعالى وهذا وصف كل مخلوق مؤمن وكافر وهو معنى قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

والخاص وصف أولياء الله تعالى وأحبابه ، وهو خلوة اليد من الدنيا وخلوة القلب من التعلق بها اشتغالا بالله تعالى وشوقا إلى الله تعالى وأنسا بالفراغ والخلوة مع الله تعالى .

أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود أبلغ أهل الأرض أي حبيب لمن أحبني ، وجليس لمن جالسي ، ومؤنس لمن أنس بذكرى ، وصاحب لمن صاحبي ، ومختار لمن اختارني ، ومطيع لمن أطاعني ؛ ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى . من طلبني بالحق وجدني ، ومن طلب غيري لم يجدني ، فارضضوا يا أهل

بالأرض ما أتم عليه من غرورها ، واهلوا إلى كرامتي ومصاحبتى ومجالستى ، وأنسوا بى
أونسكم وأسارع إلى محبتكم .

وأوحى الله إلى بعض الأنبياء « إن لى عباداً من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون
إلىّ وأشتاق إليهم ، يذكرونى وأذكركم ، وينظرون إلىّ وأنظر إليهم ، قال : يارب
وما علامتهم ؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه ، ويحنون إلى غروب
الشمس كما تحن الغاير إلى أوكارها عند الغروب ، وإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت
الفرش ، ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا الأقدام وافترشوا وجوههم
وناجونى بكلامى وتلقوا إلىّ بإنعامى ، فبين صارخ وبالك ، ومتأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ،
وبين راكع وساجد ، يعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمى ما يشتكون من حى . أول
ما أعطيتهم ثلاثاً : أفذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى ، والثانية لو كانت السموات
والأرض وما فيهما فى موازينهم لاستقلتها لهم . والثالثة أقبل بوجهى عليهم ، أفترى من
أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه ! »

وروى أن داود عليه الصلاة والسلام قال : يارب أرنى أهل محبتك . فأوحى الله تعالى
إليه : يا داود أنت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفساً فيهم شباب وكهول ، وفيهم شيوخ ،
فإذا أتيتهم فأقرهم منى السلام وقل لهم : إن ربكم بقرئكم السلام ، ويقول لكم : ألا
تسألونى حاجة فإنكم أحببائى وأصفيائى وأوليائى ، فأتاهم داود عليه الصلاة والسلام
فوجدهم عند عين من العيون مجتمعين مطرئين مشتغلين بتعظيم الله تعالى ، فلما نظروا إلى
داود عليه الصلاة والسلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال لهم إني رسول الله إليكم ، جئتكم
لأبلغكم رسالة ربكم ، فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحوه وأطرقوا إلى الأرض ، فقال
داود عليه الصلاة والسلام : إني رسول الله إليكم ، ربكم بقرئكم السلام ويقول لكم :
ألا تسألونى حاجة ، ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم ؟ فإنكم أحببائى وأصفيائى
وأوليائى : قال فجرّت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم : سبحانك نحن عبيدك

وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من عمرنا. وقال آخر : سبعاثك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك . وقال آخر : اللهم ادم لنا لزوم النظر إليك . وقال آخر : نحن مقصرون في طلب رضاك فارض عنا بجلودك . وقال آخر : اللهم اغفر لنا تقصيرنا في شكرك . وقال آخر : اللهم انك تعلم انه لا حاجة لنا الا العطر إلى وجهك . وقال آخر : اللهم هب لنا نورا نهتدي به إليك . وقال آخر : نسألك أن تقبل علينا وتديم لنا ذلك . وقال آخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبته لنا . وقال آخر : اللهم إني أسألك أن تعمى عيني عن الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بغيرك . وقال آخر : قد علمنا أنك تحب أوليائك فامن علينا باشتغال القلب عن كل شيء دونك . وقال آخر : كلت السنننا عن دعائك اعظم شأنك وقربك من أوليائك وكثرة منتك على أهل محبتك . فأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه ، وليتخذ لنفسه سربا فإني كاشف الحجاب بيني وبينكم : قال داود عليه الصلاة والسلام : يارب بم نالوا منك هذه الكرامة ؟ قال بحسن الظن والزهد في الدنيا وأهلها .

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام أيضا : قل لمبادئ التوجهين إلى محبتي ما ضرركم إذا احتجبتم من خلقي ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى بنور قلوبكم ؟ وما ضرركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا انبسطت إليكم ، وما ضرركم مسخطة الخلق إذا التمس رضاي . ياد داود نزع أنك تحبني فإذا كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإن حبي وحبيها لا يجتمعان في قلب . ياد داود خالص أحبتي مخالصة ، وخالط أهل الدنيا مخالطة . ياد داود تحب إلى بمعادة نفسك ، وامنعها الشهوات أنظار إليك ، وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة .

اللهم أذقنا حلاوة مناجاتك ، واسلك بنا طريق مرضاتك ، واقطع عنا كل ما يبعدنا عن حضرتك ، ويسر لنا ما يسره لأهل محبتك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين والمسلمات آمين .

الفصل السابع والعشرون

في المحبة

الحمد لله الذي تفرد بالعزيز والكبرياء ، والقدم والبقاء ، والمجد الأسنى : الواحد الأحد
القيوم الصمد الذي أعطى وأثنى ، الحى القيوم القدير الذى أوجد وأفنى ، المرید الذى قدّر
وقضى ، وحكم فأمضى ، وأبعد وأدنى ، السميع البصير الذى سترنا بفضله وهو مطلع على
ما أسررنا وما أعلننا ، الملك الذى أعطى ومنع ووصل وقطع وأغنى وأقنى ، المتكلم بكلام
قديم أزلى لا يبید ولا يفنى ، سبى بحمده الرعد والمطر والنجم والشجر والجن والبشر والشمس
والقمر ، فى كل شىء له آية وفى كل ناطق معنى ، فتح أسرار العارفين لسماع تسبیح الموجودات
فشاهدوا فى كل مصنوع حسنا ، ألهمنا معرفة وجوده وأطعمنا فى بره وجوده فطعمنا ، كيف
لا تنفطر قلوب المحبين شوقا إلى لقائه ، وتدهش الأبواب خوفا من بعباده وحزنا ؟ أم كيف
تستقر الأرواح وقد دعاها إلى المقام الأعلى والحظ الأوفى والشرف الأهنى ، لراحة للقلوب
إلا بذكره وثنائه ولا نعيم إلا على بساط رضوانه يوم لقائه ههنا لك يمد الشفاء من كان بحبه
مضنى ، والمغبون من رضى بالمهجر والبعاد والحروم من حرم القرب والوداد والشقى من كان له
الحرمان قيدا وخذلانا وسجنا ، يا خيبة المنقطعين فى بوادی الهوى إذا عاينوا ركب السابقين
فقطعت قلوبهم حسرة وغبنا ، ياندامة من ضيع عمره فى البطالة وأنفق أيامه فى ذكر
سعدى ولبنى ، يا خجلة من نظر إليه مولاه وهو على قبيح خطاياہ قد أغمض عن المراقبة
بفنا ، (أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِنْ مَنًى يُمَسْنَى) فسبحان من

وفق أوليائه لخدمته وعاملهم بحمى رحمة وأقام لهم يوم الجزاء وزنا (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) .

أحمد على آلائه التى ساقى إلينا من عطاءه مزا ومنته علينا إذ هدانا للإيمان وعرفنا فرفنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله عليه توكلنا وإليه أنبنا ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فساكن قاب قوسين أو أدنى، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ما بلبل ساكن الأشواق ذكر طلل ورسم ومغنى، وهب نسيم الأسفار فهز الأشجار غصنا .

فى قول الله عز وجل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) الآية . محبة الله تعالى للعبد إرادته تربيته وإكرامه وتواليا بمنايته فى جميع أحواله ، فمن أحبه الله عامله باطقه، وجاد عليه بإحسانه، وفتح عليه بما يبلغه أملة، ولا يدركه كده وعمله، ومحبة العبد لله تعالى تعلق القلب بذكره، ودوام الشغف به والتفهم بمناجاته والتلذذ بخدمته ، وصدق الشوق إليه والاكتفاء به عن كل ما سواه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَقَدْ اكْتَمَلَ الْإِيمَانُ : مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَبْغِيَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ » .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : من ذاق من خالص محبة الله عز وجل شغفه ذلك عن طلب الدنيا وأوحش عن جميع البشر . وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهدا . وعن سري السقطى قال : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها فيقال يا أمة محمد يا أمة موسى يا أمة عيسى ، ويدعى المحبون فيقال يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تنفلق فرحا . وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة . وقال يحيى بن معاذ :

مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب . وقالت رابعة العدوية يوما: من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت جارية لها حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه .

وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : إني إذا اطلمت على سر عبدى فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوايسته بحفظي . وقال سرى السقطي: من أحب الله تعالى عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، الأحمق يغدو ويروح في غير شيء . قال أبو زيد : الحب دهش في لذة وحيرة في نعيم ، وقال سهل بن عبد الله: المحبة عطف الله بقلب عبده إلى مشاهدته بعد فهم المراد منه .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود ذكركم للذاكرين ، وجنتي للعابدين ، وزيارتي للمشتاقين ، وأنا خاصة للمحبين .

وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه الصلاة والسلام : يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ، ومن أنس بحبيبه رضى فعله ، ومن اشتاق إليه جد في سيره وقال بعضهم رأيت في جبل لكام رجلا أسمر نحيف البدن وهو يفر من حجر إلى حجر ويقول :

إِنَّمَا الشَّوْقُ وَالْهَوَى صَبَّرَانِي كَمَا تَرَى

وقال الجنيد رضى الله عنه : بكى يونس عليه الصلاة والسلام حتى عمى ، وقام حتى انحنى ، وصلى حتى أقعد ، وكان يقول : وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحار من نار خلصتها شوقا منى إليك . ويقال من علامات المحبة حب لقاء الحبيب .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ » وكان سفيان الثوري وبشر الخافي رضى الله عنهما يقولان : لا يكره الموت إلا مريب لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء الحبيب . وقال سهل بن عبد الله: علامات محبة الله تعالى إظهار الله على نفسك . وليس كل من عمل الطاعات صار حبيبا وإنما الحبيب من ترك المعاصي . ومن علامات المحبة أن لا يخلو قلبك ولا لسانك من ذكر الله تعالى . قال بعض الصالحين حصلت عندي فترة عن تلاوة القرآن فسمعت قائلا يقول لى فى المنام : إن كنت تزعم

أنتك تحبني فلم جفوت كتابي، أما ترى ما فيه من لطيف عتابي ، قال فانتبهت وقد مازج قلبي حب القرآن . قال ابن مسعود رضي الله عنه لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله . ومن علامات المحبة الأنس بالخلوة في القلوات ، والليالي المظلمات انقطاعا إلى الله تعالى عن الخلق ، فمن استأنس بالناس فهو من أهل الإفلاس .

وروى أن عابدا كان في غيضة فرأى طائرا حسنا قد عشن في شجرة ، فانتقل قريبا منها ليأنس بالطائر ويستريح بحسن صوته ، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان ، قل لفلان العابد استأنست بمخلوق والله لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدا . وقال يحيى بن معاذ : من لم يكن فيه ثلاث خصال فليس بحبيب يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق ، والمعبدة على خدمة الخلق . ومنها ألا يتأسف على ما فاتته من الحظوظ وإنما يتأسف على لحظة تمر في الغفلة عن الله تعالى . وقال إبراهيم ابن أدم : بينما أنا في السياحة إذ سمعت قائلا يقول :

كُلُّ شَيْءٍ لَكَ مَغْفُورٌ سِوَى الْإِعْرَاضِ عَنَّا
قَدْ وَهَبْنَا لَكَ مَا فَاتَ وَبَقِيَ مَا فَاتَ مِنَّا

وقال بعضهم : عبدت الله حتى ظننت أن لي عنده شيئا كثيرا ، فرأيت في المنام صفاء من الملائكة بعدد ما خلق الله تعالى من شيء ، فقلت من أنتم ؟ قالوا نحن المحبون لله عز وجل نعبد ههنا منذ ثلاثمائة سنة ما خطر على قلوبنا سواء ، ولا ذكرنا غيره قط ، فاستيقظت وقد استحييت من الله تعالى أن أذكر أعمالى وأحوالى .

وحكى أن إبراهيم بن أدم رضي الله عنه لقيه رجل وهو نازل من جبل فقال : من أين أقبلت ؟ قال من الأنس بالله . وقيل لرابعة بم نلت هذه المنزلة ؟ قالت بتركي مالا يعنيني وأنسى بمن لم يزل . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت بعابدا في صومعة ، فقالت له : أعجبتك الوحدة ؟ فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك ، الوحدة رأس

العبادة ، قلت متى يذوق العبد حلاوة الأنس ، قال إذا صفا الود وخلصت المعاملة ، قلت متى يصفو الود ؟ قال إذا صارت المعلوم هما واحدا .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : كن بي مستأنسا ومن سوى مستوحشا ، وسئل الجنيد عن المحبة لله تعالى ، قال : عبد ذهب عن نفسه واتصل بذكر ربه وقام بأداء حقوقه ونظر إليه بقلبه ، فإن تسكلم فبالله ، وإن سكنت فمع الله ، وقال أبو يزيد : المحبة إيثار المحبوب عن كل مصحوب ، ويقال المحبة الميل الدائم بالقلب الهائم ، ويقال المحبة أن تكون للمحسوب كالمملوك حتى لا يكون لك منك شيء ، ويقال المحبة محو ما سوى المحبوب من القلب . وقال سمنون : ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول « المرء مع من أحب » ورؤى مجنون ليلي في المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي وجماني حجة على الحبيين ، ويقال المحبة أن تكون مع محبوبك بنسيان حظوظك وخلع أوصافك ، ويقال الحب كامن في القواد كالنار في الزناد إن قدحته أورى ، وإن تركته توارى ، فهو الطف من أن تدركه عبارة ، وأدق من أن تتناوله إشارة ، يستدل عليه بأفاره ويعرف وجوده بأفواره :

مَعْلَهُ أَطْيَبُ مِنْ وَصْلِهِ وَجَوْرُهُ أَخْلَى مِنْ عَذْلِهِ
وَصَفْبُهُ أَهْنَى مِنْ سَمِّهِ وَمَنْعُهُ أَشْهَى مِنْ بَذْلِهِ

* * *

اهْتَزَّ عِندَ تَمَنَّى وَصَلِهِ طَرَبًا وَرُبَّ أُمْنِيَةٍ أَخْلَى مِنَ الظَّفَرِ
يُجْنَى كُلِّي وَأَجْنَى مِنْ مَعَاظِفِهِ فَنِي الْجَنَى وَالْجِنَا يَاتِ انْقَضَى عُمرِي

وقال يحيى بن معاذ : ليس بصادق من ادعى محبته ولم يحفظه ، وقال الجنيد : المحبة إفراط الميل بلا نيل . وقال الحاسبي : المحبة ميلك إلى المحبوب بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا ، ثم علمك بتقصيرك في حبه ، ودخل جماعة على الشبلي وهو في المارستان فقال من أنتم ؟ فقالوا أحبابك فرمهم بجعر فهربوا ،

فقال يا كاذبة لو صدقتم في ولائي ما فررتن من بلائي . وذكرت المحبة عند ذي النون فقال
اسكتوا لئلا تسمع النفوس فتدعى وأنشد يقول :

الْخَوْفُ أَوْلَى بِالْمَسِي إِذَا قَالَهُ وَالْحَزَنُ
وَالْحُبُّ يَجْمَلُ بِالنِّقَمِ وَبِالنَّقَى مِنَ الدَّارِنِ

وقال إبراهيم بن أدهم يوماً: اللهم إن كنت أعطيت أحداً من المحبين ما يسكن به قلعه
قبل لقائك ، فأعطني ذلك فقد أضرتني اللقائى ، فرأى في المنام قائلاً يقول : يا إبراهيم
أما تستحي تسأل الله أن يعطيك ما يسكن به قلقك قبل لقائه ، وهل يسكن قلق الحب إلا
بلقاء حبيبته :

لَوْ شِئْتَ دَاوَيْتَ قَلْبِي أَنْتَ مُسَقِّمُهُ فَنِي يَدَيْكَ مِنَ الْبَلَاوِي سَلَامَتُهُ
الْقَلْبُ فِي وَلِي وَالطَّرْفُ مُنْتَظَرُ مَنْ كَانَ مِنْهُ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ

وفي بعض كتب الله تعالى المنزلة : إن بسأم المحبون لله عز وجل من طول اجتهدهم
بل يحبونه ويحبون ذكره ويحبونه إلى خلقه ، يمشون بين عبادته بالصالح ، ويخافون عليهم
يوم تهدو الفضائح ، أولئك أولياء الله تعالى وأحبوا وأهل صفوته أولئك لراحة لهم دون
لقائه . وقال ذو النون : ما ولع امرؤ بذكر الله تعالى إلا استفاد محبة الله . وقال إبراهيم
ابن أدهم يوماً لرجل : يا أخي تحب أن تكون لله وليا ويكون لك محبا؟ قال نعم ، قال دع
الدنيا وأقبل على ربك بقلبك بقبل عليك بوجهه ، فإنه باخني أن الله تعالى أوحى إلى يحيى
ابن زكريا عليهما الصلاة والسلام : يا يحيى إني قضيت على نفسي أنه لا يحبني أحد من خلقى
أعلم ذلك من نيتي ، إلا كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، وفؤاده الذى
يعقل به ، فإذا كنت كذلك بغضتُ إليه أن يشتغل بغيري وأدمت فكره ، وأمررت
ليله وأظلمات نهاره ، أنظر إليه في كل يوم سبعين نظرة ، فأرى قلبه مشغولاً بي فأزداد من
حبه وأملأ قلبه نورا حتى ينظر بنورى ، فكيف يسكن يا يحيى قلبه وأنا جليسه وغاية
أمنيته ، وعزتي وجلالى لأبعثه مبعثا يغبطه النبيون والمرسلون ، ثم أمر مناديا ينادى ، هذا
(١٧ - طهارة القلوب)

حبيب الله وصفيه ، دعاه إلى زيارته فإذا جاءني رفعت الحجاب بيني وبينه ، فلما ذكر الحجاب صاح يحبي عليه الصلاة والسلام صبيحة فلم يبق ثلاثة أيام ، فلما أفاق قال فمن لم يرض بك صاحباً فبمن يرضى ؟ وكيف أصحاب خلقك وقد دعوتني إلى مصاحبتك .

وقال ذو النون: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى كن كالطير الوجداني يأكل من رؤوس الأشجار ويشرب من ماء القراح ، إذا جنه الليل آوى إلى كهف من الكهوف استئناساً بي واستقيحاشاً بمن عصاني . يا موسى إني آليت على نفسي أن لا أتم لمدير عني عملاً ، ولأقطعن أمل كل مؤمل غيري ، ولأقصم من ظهر من استند إلى سواي ، ولأطيلن وحشة من استأنس بغيري ، ولأعرضن عن أحب حبيبا سواي . يا موسى إن لي عبداً إن ناجوني أصغيت إليهم ، وإن نادوني أقبلت عليهم ، وإن أقبلوا على أدبتيهم ، وإن دنوا مني قربتهم ، وإن تقرّبوا مني اكتنفتهم ، وإن والوني واليتهم ، وإن صافوني صافيتهم ، وإن عملوا لي جازيتهم ؛ أنا مدير أمورهم ، وسائس قلوبهم وأحوالهم ، لم أجعل قلوبهم راحة إلا في ذكرى ، فمؤلاً سقامهم شفاء وعلى قلوبهم ضياء لا يستأنسون إلا بي ، ولا يحيطون رحال قلوبهم إلا عندي ، ولا يستقر بهم القرار إلا إلي ، اللهم عمر قلوبنا بشكرك ، ووقفنا للقيام بذكرك ، وآمنا من سطوة مكرك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين والمسلمات إنك أهل التقوى وأهل المغفرة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين .

الفصل الثامن والعشرون

في الإسلام

الحمد لله الذي أحيا ماحل الرياض بوابل الأمطار ، وكسا عارى الرُّها من نسج قدرته
ثياب النبات والأزهار ، وفتح لالتقاط درر منثور الفيثأ كف النوار ، وأجرى الماء بلطيف
حكيمته في خلال الأشجار ، وألان الفصوص فاهزت بنسيم الأسعار ، الذي أمطر العناية إلى
موات القلوب والأسرار فأحيها بجميل نظره فتلاآت من أرجائها الأنوار ، هو الأول
والآخر والظاهر والباطن العالم بالجر والأسرار ، الواحد الأحد الفرد الصمد الذي هام العقل
في تمظيمه وحار ، السميع البصير المرید القدير وكل شيء عنده بمقدار ، المتكلم بكلام قديم
أزلى من شبه في صفاته فقد جار ؛ له الجلال والكمال فن عطل فقد مال إلى الجحود
والإنكار ، جل الواحد المهيمن عن أن تحيط به الأوهام والأفكار (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ
وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) قسم عطاءه بين خلقه فلا يغير قسمته الاحتيال والحدار (أَفَمَنْ
يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْخُبْرُ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ .
الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِمَا عَاهَدَ اللَّهُ وَلَا يَنْقُضُونَ أَيْمَانَهُ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)
أحبهم ووالاهم وقرتهم ونولاهم وزينهم وحلام فلا سمداً إلا إياهم فياقره أعينهم في دار
القرار ، إذا كشف عنهم الحجاب ، وأنزلوا منازل الأحباب ، وفازوا بالقرب والجوار ، فسبحان

من أكل عليهم الغم وأخرجهم بأنوار هدايته من غياهب الظلم (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَخِتَارُ) - (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُسَكِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُسَكِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) .
أحمد على نعمه المسبلة الغزار ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبلغ فائدها منازل الأبرار ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المجتبي المختار ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه آتاء الليل وأطراف النهار .

في قول الله تعالى (وَمَنْ يَدْفَعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الإسلام الانقياد لطاعة الله تعالى فإن كان الانقياد مع التصديق في الباطن فهو إسلام صحيح صادر عن إيمان صحيح .

وقد ورد في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بُيِّنَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ عَلَى أَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَحَجُّ الْبَيْتِ » .

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه : قال « جاء رجلٌ من أهل البادية فقال : يا محمد أتنا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله تعالى أرسلك قال : صدق ، قال فمن خلق السماء ؟ قال الله ، قال فمن خلق الأرض ؟ قال الله ، قال فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال الله ، قال فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آله أرسلك ؟ قال نعم ، قال وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليأتينا قال صدق ، قال فبالذي أرسلك آله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا قال صدق ، قال فبالذي أرسلك آله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، قال وزعم رسولك أن علينا صيام شهر رمضان في سنتنا قال صدق ، قال فبالذي أرسلك آله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا ؟ قال صدق ، قال ثم ولي وقال والذي أرسلك بالحق نبيا لا أزيد عليهم ولا أنقص منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : لن صدق ليدخلن الجنة . »

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرَكَ الصَّلَاةَ » :

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الصَّلَاةُ أَلْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكِبَارُ » .

وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غصنا يابساً فمزقه حتى تساقط ورقه، فتبسم فقيل ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ وَضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ صَلَّى الصَّلَاةَ الْخَمْسَ تَسَاقَطَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا يَتَسَاقَطُ هَذَا الْوَرَقُ » .

وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « تَخَسُّ صَّلَاةٍ فَرَضَهُنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَحْسَنَ وَضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لَوْفَتِهِنَّ وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ هَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا مَثَلُ الصَّلَاةِ كَمَثَلِ نَهْرٍ عَذِبَ يَمُرُّ بِبَابٍ أَحَدِكُمْ يَفْتَحُهُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ تَخَسُّ مَرَاتٍ فَمَا تَرَوْنَ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ؟ » .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ كُلَّ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ بَضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ، وَذَلِكَ أَنْ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءِ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَرُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فَلَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَتْ الصَّلَاةُ تَحْدِثُهُ ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ كُلُّ أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ ، يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ تَبَّ عَلَيْهِ مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ » .

وعن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ صَلَّى الْمِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ

فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ » وفي الحديث « مَنْ قَاتَهُ وَرَدَّهُ بِاللَّيْلِ فَصَلَاةٌ قَبْلَ الظُّهْرِ فَكَأَنَّمَا صَلَّاهُ فِي وَقْتِهِ » .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ صَلَّى سِتَّ رَكَعَاتٍ بَعْدَ الْمَغْرِبِ عِدَلَتْ عِبَادَةَ سَنَةٍ ، وَمَنْ صَلَّى عَشْرَ رَكَعَاتٍ يُبَيِّ لَهُ قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ » .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ سُجُودٍ خَفِيٍّ ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةٌ » . وفي الحديث « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ إِذَا كَانَ سَاجِدًا » وقال سميد بن المسيب : من جلس في المسجد فكأنما يجالس الله ، فها حقه أن يقول إلا خيرا . وكان بكر بن عبد الله يقول : من مثلك يا ابن آدم كلما أردت الدخول على ربك توضأت ودخلت المسجد وخاطبت مولاك فأجابك ولبابك .

ويقال : أركان الدين أربعة : صحة العقد ، وصدق القصد ، والوفاء بالعهد ، وحفظ الحد . فصحة العقد : الاعتقاد الصحيح السالم من التشبيه والتعطيل في صفات الله عز وجل . وصدق القصد : إخلاص العمل لله تعالى . والوفاء بالعهد : أداء فرائض الله تعالى . وحفظ الحد : اجتناب محارم الله تعالى .

وفي الحديث « مَا مِنْ مُسْلِمٍ قَرَّبَ وَضُوءُهُ وَتَمَضَّضَ وَاسْتَنْشَقَ وَغَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَغَسَلَ يَدَيْهِ إِلَى مِرْفَقَيْهِ وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ وَغَسَلَ قَدَمَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ ثُمَّ صَلَّى فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَبَجَّاهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

وفي بعض كتب الله تعالى المنزلة « عبيدي ما بال الرجل يجلس إليك فيحدثك فتصغي إليه ، فإذا كلمك متسكلم أو مات إليه إعظاما لجائسك ، وتقف في الصلاة بين يدي وقلبك مع غيري ، أمن الإنصاف هذا ، أن ترضى لي ما لا ترضى لغيري ؟ عبيدي لا تفعل ، يا عبيدي أما تستحي مني بأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتعمد لأجل قراءته وتقرؤه وتندبره حرفا حرفا حتى لا يفوتك شيء منه ، وهذا

كتاب أنزلته إليك أنظركم أوصلت إليك فيه من القول ، وكم كررت عليك فيه لتأمل طوله وعرضه ؟ ثم أنت معرض عنه أفكفت أهون عليك من بعض إخوانك . يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصنعني إلى حديثه بكل قلبك فإن متكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أو مات إليه أن كف ، وما أنا مقبل عليك ومخاطب لك وأنت معرض بقلبك عنى أجملتنى أهون عندك من بعض إخوانك ؟ عبدي لا تفعل .

وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه إذا حضرت الصلاة يقول : يا بنى آدم قوموا إلى ناركم التي أوقدتموها فأطفئوها . وروى أن داود عليه الصلاة والسلام قال : إلهي من يسكن بيتك ومن تقبل الصلاة ؟ فأوحى الله إليه : يا داود إنما يسكن بيتي وأتقبل الصلاة ممن تواضع وقطع نهاره بذكرى ، وكف عن الشهوات من أجلي ، بطعم الجائع ، ويؤوى الغريب ، ويرحم المصاب ، فذلك الذي يضيء نوره في السماء كالشمس ، إن دعائي لبيته ، وإن سألتني أعطيته ، أجمل له في الجمالة حلما ، وفي الغفلة ذكرا ، وفي الظلمة نورا ، إنما مثله في الناس كالقردوس في الجنان لا تبيس أنهارها ولا تتغير ثمارها .

وفي الصحيح يقول الله عز وجل : « مَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي بِأَفْضَلٍ مِنْ أَدَاءِ مَا أَوْفَرْتُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَحَبَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ؟ فَإِذَا أُحِبَبْتُهُ كُنْتُ مَعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَيَبْصُرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، فَبِمَا يَسْمَعُ ، وَبِمَا يُبْصِرُ » وفي الصحيح : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ أَجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ وَجَمَالَ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا يَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ » وقد أمر الله المؤمنين بحفظ أركان الإسلام فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَمُوا وَأَسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ) أى يا أيها الذين آمنوا صدقوا بقلوبكم ، واعبدوا الله بجوارحكم (وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ)

من جميع أبواب البر (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) أى جاهدوا أعداءكم وأهواءكم في طاعة الله تعالى (هُوَ أَجْتَبَاكُمْ) أى اختاركم واختصكم بالإيمان والإسلام (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) أى ما كلفكم شيئاً في مضيق تمجز عنه طاعتكم . وقال ابن عباس (ما جعل عليكم في الدين من حرج) هو أن الله سبحانه وتعالى جعل التوبة مقبولة فارتفع الحرج بذلك (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) أى وسع عليكم في ملتكم كما وسع ملة أبيكم إبراهيم (هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ) معناه أن الله تعالى سماكم المسلمين (مِنْ قَبْلُ) في اللوح المحفوظ، وفي كتب الله عز وجل المتقدمة (وَفِي هَذَا) أى وفي القرآن (لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ) شهيداً لمن آمن وعلى من أنكر (وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ) للرسول (عَلَى النَّاسِ) على الأمم (فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ) أى اعتمدوا على الله تعالى في مهماتكم ومجاريكم لا على أعمالكم (هُوَ مَوْلَاكُمْ) أى ناصركم (فَنِعْمَ الْمَوْلَى) أى متولى الأمور بطفه (وَنِعْمَ النَّصِيرُ) وقد سمي الله تعالى الإيمان رحمة فقال: (وَأَنَا فِي رَحْمَةٍ مِنْ عِنْدِهِ) أى الإيمان وسمى الإسلام رحمة فقال: (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) أى الإسلام وسمى القرآن رحمة فقال: (وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) وسمى التوفيق رحمة ، فقال تعالى : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا) أى التوفيق ، وسمى الرسول رحمة فقال : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وسمى المطر رحمة ، فقال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) وقال : (فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُغْنِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْنِهَا) فأثر المطر حياة النبات ، وأثر الإيمان النبات على الخيرات ، وأثر الإسلام إقامة الصلاة وأداء الزكاة والقيام بالواجبات ، وأثر القرآن حب المناجاة وإيثار الخلوات، وترك الشكايات من الضر والفاقات، وأثر التوفيق فعل الطاعات وترك السيئات ، وأثر الرسول إيثار أمره واتباع سنته في جميع الحالات . أرض حرمت المطر فنفعها قليل ، قلب حرم الإيمان فوته طويل ، بدن لا يستعمل في الإسلام عريان عليل ، لسان لا يقرأ القرآن فهو كليل ، عامل لا يجد التوفيق

فاعمل منه مستحيل ، مذنب لا تلحقه شفاعة المصطفى فهو حقير ذليل ، فإذا رأيت أرضاً
ميتة ، فاعلم أن الله تعالى لم يرسل إليها رحمته . وإذا رأيت قلباً غافلاً عن النية والإحسان
فاعلم أنه لم يصل إليه آثار الإيمان ، وإذا رأيت بدناً تهاون في أداء المكتوبة فاعلم أن آثار
الإسلام عنه محجوبة ، وإذا رأيت حامل القرآن مصراً على العصيان ، فاعلم أنه من أهل
الحرمان والخذلان يلعنه في قلبه نور القرآن ، وإذا رأيت إنساناً مصروفاً عن التحقيق فاعلم
أنه لم يصل إليه أثر التوفيق ، وإذا رأيت عبداً ملازماً للجفا مفرطاً في الوفا ، فأبى بركة
اتباع المصطفى ؟

فنسأل الله تعالى أن يحيي قلوبنا بغيث رحمته ، ويرزقنا التوفيق للقيام بخدمته ،
ويجعلنا من خيار أمة المصطفى المتبعين لسنة ، ولا يخالف قلوبنا عن طريقته ، إنه الرحيم
الثواب ، الكريم الوهاب .



مركز تحقيقات علوم وادب اسلامی

الفصل التاسع والعشرون

في فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم

الحمد لله الذي خلق كل شيء فقدره ، وعلم مورد كل مخلوق ومصدره ، وأثبت في أم الكتاب ما قضاه وسطره ، فلا مؤخر لما قدمه ، ولا مقدم لما أخره ، المنفرد بالقدم والبقاء والعز والكبرياء ، فالعقول عن إدراكه قاصرة ، والألسن عن إحصاء ثنائه مقصرة ، القدوس الصمد الواحد فلا مشارك له فيما أبدعه وفطره ، الحى العليم ، القدير السميع البصير ، اللطيف الخبير ، فلا يخفى عنه ما أسرّه العبد وأخبره ، المتكلم بكلام قديم أزلى أنزله تذكرة : (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ) تبارك من جحد صفات الكمال وعارض القرآن بالجدال فما أكرهه ، وسحقا لمن شبه ومثل ، لقد ابتدع بدعة منكرة ، وطوبى لمن وقف حيث أوقفه مولاه ولم يتعد ما بلغه الرسول وأخبره ، فشمس الكتاب والسنة طالعة مشرقة ليس دونها سحب ولا غبرة ، لكن بقيت قسمة للمالك الذى أعمى من شاء وهدى من شاء وبصره ، خلق آدم من طين وصوره ، وبوأه دار كرامته حتى استنزله الشيطان بأكل الشجرة ، فأخرجه من الجنة ثم اجتباها وقاب عليه وخبره ، ورفع إدريس مكانا علوا وكان كلما تنفس سبح الله وذكره ، وأرسل نوحا بعد فترة وأطال عمره واستجاب دعاءه فى هلاك من كذبه وكفره ، وأهلك عادا بالريح ونجى هودا ونصره ، ودمر ثمود بالصيحة وسلم صالحا لما بلغ ما أمره ، واتخذ إبراهيم خليلا ، وأهلك عدوه نمرود ودمره ، ونجى لوطا وخلفه بقومه فديارهم بحيرة مشهورة ، ورزق الخليل إبراهيم

إسحق بعد الكبر ووعده بيعقوب وبشره ، وفدى إسماعيل من الذبح لما استسلم وأجل مصطبره ، وردّ بصر يعقوب عند قيص حبيبه حين بشره ، وأخرج يوسف من السجن ثم ملكه وأمّره ، وكلم موسى تكليماً ونصره على فرعون وأظهره ، وعافى أيوب بعد أن ابتلاه وصبره ، وأعطى داود الرسالة والملك لما قتل جالوت إذ رمى حجراً ، ومكن سليمان في الأرض فغلب كل جبار وقهره ، ورفع عيسى إلى السماء ووعده بقتل الدجال وأخبره ، وختم الأنبياء والمرسلين بسيد الأولين وآخرين محمد خاتم النبيين فاجتباها واصطفاه (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) .

أحمد على ما أولى من خير وبشره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، اطلع على عمل المسيء وستره ، وقبل توبة العاصي فعفا عن ذنبه وغفره ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أوضح به سبيل الهدى ونوّره صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة تبلغهم بها شرف الدنيا والآخرة آمين .

في قول الله عز وجل : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الأمم ونبيها خير الأنبياء ووسط الشيء خياره ، وواسطة العقد جوهرته الكبرى .

وقد روى أن الرسل يسئلون عن البلاغ فيذعنون البلاغ فيفكر الكافرون من قومهم فيقولون ما بلغونا شيئاً فتشهد عليهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما في القرآن ويشهد بتصديقهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد سمي الله تعالى هذه الأمة صالحين ، قال تعالى : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) هي كل أرض فتحها المسلمون كالحجاز والعراق والشام ومصر وغيرها وقيل يعني أرض الجنة وقال (وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ) ووصفهم بالفلاح فقال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) ووصفهم بالخير فقال تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) أي كنتم في علم الله تعالى وفي اللوح المحفوظ خير الأمم .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «أَنْتُمْ تُتَمِّمُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام وصفهم بالمداقة فقال (لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) .

وقال وهب بن منبه : لما قرأ موسى عليه الصلاة والسلام الألواح وجد فيها فضيلة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : يارب من هذه الأمة المرحومة التي أجدتها في الألواح ؟ قال هي أمة محمد يرضون منى باليسير أعطيهم إياه ، وأرضى منهم باليسير من العمل ، أدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله ، قال فإني أجد في الألواح أمة يحشرون يوم القيامة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر فاجعلهم أمتي ، قال هي أمة محمد ، أحشرهم يوم القيامة غُرًّا محجلين ، قال يارب إني أجد في الألواح أمة أزودتهم على ظهورهم ، وسيوفهم على عواتقهم أصحاب رؤوس الصوامع يطلبون الجهاد بكل أفق حتى يقاتلوا الدجال فاجعلهم أمتي ، قال هي أمة أحمد ، قال يارب إني أجد في الألواح أمة يصلون في اليوم خمس صلوات في خمس ساعات من النهار والليل تفتح لهم أبواب السماء وتنزل عليهم الملائكة فاجعلهم أمتي ، قال هي أمة أحمد قال يارب إني أجد في الألواح أمة الأرض لهم مسجد وطهور وتحل لهم الفنائم فاجعلهم أمتي قال هم أمة أحمد ، قال يارب إني أجد في الألواح أمة يصومون لك شهر رمضان فيفقر لهم ما كان قبل ذلك فاجعلهم أمتي قال هم أمة أحمد ، قال يارب إني أجد في الألواح أمة يحبون لك البيت الحرام لا يقضون منه وطرا بمحبون إليك بالبكاء عجيبا ويضجون بالبكاء ضجيجا فاجعلهم أمتي قال هم أمة أحمد ، قال يارب فما تعطيتهم على ذلك ؟ قال أزيدهم المغفرة وأشفعهم فيمن وراءهم ، قال يارب إني أجد في الألواح أمة شفعاء قليلة أحلامهم ؟ يملفون البهائم ويستغفرون من الذنوب يرفع أحدهم اللقمة إلى فيه فلا تستقر في جوفه حتى يغفر له يفتحها باسمك ، ويختتمها بحمدك فاجعلهم أمتي قال هم أمة أحمد ، قال يارب إني أجد في الألواح أمة هم السابقون يوم القيامة وهم الآخرون من الخلق اجعلهم أمتي يارب قال هي

أمة أحمد ، قال يارب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في الصدور يقرءونها فاجعلهم أمتي
قال تلك أمة أحمد ، قال يارب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة يعملها فلم يعملها
كتبت له حسنة واحدة وإن عمدا كتبت له عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف رب فاجعلهم
أمتي قال تلك أمة أحمد ، قال يارب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بالسيئة ثم لم يعملها
لم تكتب عليه وإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة فاجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد ،
قال يارب إني أجد في الألواح أمة هم خير الناس بأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر
فاجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد ، قال يارب إني أجد في الألواح أمة يحشرون يوم القيامة
على ثلاث ثلث : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يحضرون
ثم يدخلون الجنة فاجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد ، قال يارب بسطت هذا الخير لأحمد وأمة
فاجعلني من أمة قال الله تعالى (يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي
فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما
لأصحابه « ما تقولون في هذه الآية (وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا) فقالوا الله ورسوله
أعلم ؟ فقال لما كلم الله موسى عليه الصلاة والسلام قال يارب هل خلقت خلقا أكرم عليك
مني ؟ اصطفتني على البشر ، وكلمتني بطور سيناء ، فقال : يا موسى ، أما علمت أن محمدا أكرم
علي من جميع خلقي ، وإني نظرت في قلوب عبادي فلم أجد قلبا أشد تواضعا من قلبك
فلذلك اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي فمت على التوحيد وعلى حب محمد صلى الله
عليه وسلم ، قال موسى : فهل في الأمم أكرم عليك من أمتي ؟ ظلمت عليهم الغمام وأنزلت
عليهم المن والسلوى ، فقال الله تعالى يا موسى أما علمت أن فضل أمة محمد على سائر الأمم
كنفضلي على جميع خلقي ؟ قال موسى أفأراهم ؟ قال لن تراهم لكن إن أحببت أن تسمع كلامهم
فعلت ، قال فإني أحب ذلك . قال الله تعالى : يا أمة محمد فأجابوا كلهم بصيحة واحدة
يقولون : لبيك اللهم لبيك وهم في أصلاب آبائهم ، ثم قال تعالى : صلاتي عليكم ، ورحمتي سبقت

غضبي وعفوي سبق عذابي ، وإني غفرت لكم قبل أن تستغفروني ، واستجبت لكم قبل أن تدعوني ، وأعطيتكم قبل أن تسألوني ، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله غفرت له ذنوبه ، فأراد الله أن يمن على بذلك فقال (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا) أمتك . وعن كعب الأحبار رضى الله عنه قال : وجدت في التوراة أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم يصلون صلاة الفجر يسبحون ويهللون فاتهم ثواب الأنبياء ، ووجدتهم مع كل واحد منهم قضيب من نور وهو الإسلام ، ووجدتهم ينظرون يوم القيامة إلى ربهم ، ووجدتهم يمشون على الأرض يستغفرون لهم ، ووجدتهم يصلون كل يوم خمس صلوات ولم بكل ركوع وسجود مغفرة ، ووجدتهم أن الرجل يحجر ساجدا فلا يرفع رأسه حتى يغفر له ، ووجدتهم أن الجنة تشاق إليهم كل يوم خمس مرات عند مواقيت الصلاة ، ووجدتهم بصوموم كل سنة شهرا وهو شهر رمضان فيعطون بكل يوم مباحة مسيرة خمسمائة عام من النار ، ووجدتهم طوبى لهم وحسن مآب ، ووجدتهم أن الموت كفارة لذنوبهم ، وأن الحمى وردم من النار ، ووجدتهم أن من فعل تطوعا منهم فله أجر من أدى فريضة من سواهم ، ووجدتهم يحجون البيت حجاج آدم ، ويستنون بسنة إبراهيم ، فيعطون شفاعته آدم ، وخلة إبراهيم ، ووجدتهم يزكون في كل سنة ؛ فلهم بالزكاة زيادة في أعمارهم وأموالهم .

وقال وهب بن منبه : قرأت في بعض كتب الله المنزلة : « إني باعث رسولا من الأميين ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا قوال بالهجر والحناء . أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة على لسانه ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطلقه والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعرف خالقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والإسلام ملته ، وأرفع به من الوضيعة ، وأغنى به من القيلة ، وأهدى به من الضلالة ، وأولف به بين قلوب متفرقة ، وأهواء مختلفة ، وأجعل أمة خير الأمم ، إيماننا بي وتوحيدي إلى وإخلاصا بما جاء به رسولي ، ألهمهم التسبيح والتحميد والتعجيل في مساجدهم

وصلواتهم ومستقلبيهم ومشاوهم يخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي، يقاتلون في سبيل صفوفا ، ويصلون لي قياما وركوعا وسجودا . قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم في صدورهم ، يكبرونني على كل شرف ، رهبان الليل أسد النهار ، ذلك فضل أوتيته من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم . »

وفي بعض كتب الله المنزلة : أنا الله الذي لا إله إلا أنا وحدي ، لا شريك لي ، محمد المختار عبيدي ورسولي ، أمتة المحادون رعاة الشمس ، فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ماهلكوا بالطوفان ، ولو كانت في قوم عاد ماهلكوا بالريح ، ولو كانت في قوم نمرود ماهلكوا بالصيحة .

اعلم أن الله اختار أمة محمد على سائر الأمم وخيار الأمة علماؤها ، وأعلم هذه الأمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اصعبه النبي صلى الله عليه وسلم ومشاهدة الوحي والتنزيل ، ثم خيار كل قرن علماؤها ، قال الله تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وقال تعالى : (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) والحكمة العلم ، قال الله تعالى (وَأَذْكُرْنِي مَا يُغْنِي فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) .

قال الإمام مالك رحمه الله : الحكمة الفقه في الدين ، ولين في القلب من خشية الله تعالى ، وقال أيضا في وصيته للإمام الشافعي رحمه الله تعالى ، إن الله تعالى قذف في قلبك نورًا فلا تطفئه بظلم الذنوب .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ عَلَى أَذَى رَجُلٍ مِنْكُمْ » ، بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْعَابِدِ سَبْعُونَ دَرَجَةً بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَسِيرَةٌ مائَةٌ عَامٍ » من غدا للعلم يتعلمه فتح الله له به طريقا إلى الجنة ، وصلت عليه ملائكة السماء وحيتان البحر . وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر السكواكب ، والعلماء ورثة الأنبياء . مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدي

بها . إن الله تعالى عند كل بدعة كيد بها الإسلام وأهله ولها يذب عنه . إذا كان يوم القيامة جمع الله تعالى العلماء على صعيد واحد وقال لهم : إني لم أستودعكم حكمتي وأنا أريد أن أعذبكم ادخلوا الجنة برحمتي . يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء . « مامن مؤمن يتعلم حرفا من العلم مما يحتاج إليه إلا غفر له قبل أن يقوم من عند العالم » . وفي الحديث أيضا « النَّظَرُ فِي وَجْهِ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ » من أضاف عالما كان في ظل عرش الله يوم القيامة . والعالم من علم كتاب الله تعالى وسنة رسوله فكان إماما يقتدى به في معرفة الله ومعرفة أحكام الله تعالى ، ولا يجوز الاقتداء بالعالم إلا أن يكون مؤدبا لفرائض الله تعالى مجتنباً لمحارم الله تعالى محافظاً على دين الله تعالى . قال عيسى عليه الصلاة والسلام : « مَنْ عِلْمٌ وَعَمَلٌ وَعِلْمٌ فَذَلِكَ يُدْعَى عَظِيماً فِي مَلَكَوَتِ السَّمَاءِ » .

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إِنْ اللَّهُ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ كَمُوهُ انْتِزَاعًا وَلَكِنْ يَنْزِعُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ فَتَبْقَى نَاسٌ جُهَالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتَوْنَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ » وقال صلى الله عليه وسلم « قَبْلَ السَّاعَةِ سُنُونٌ خَدَاعَاتٌ يُصَدَّقُ فِيهِنَّ الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهِنَّ الصَّادِقُ وَيُخَوَّنُ فِيهِنَّ الْأَمِينُ وَيُؤْتَمَنُ فِيهِنَّ الْخَائِنُ وَيَنْطَلِقُ فِيهِنَّ الرَّؤُوبُ بَضَّةٌ » بمعنى الجاهل . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الأحبار رضي الله عنه : ما أخوف ما يخاف على أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال : أئمة مضلون ، فقال صدقت ، بذلك أسرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي الصحيح « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّمَا أُذْرِجَتْ النُّبُوءَةُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ » . وقال الفاضل : حامل القرآن حامل راية الإسلام ، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ، ولا يسهر مع من يسهر تعظيماً لحق القرآن .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْرِ فِي الدِّينِ ، وَآفَاقِيَّةٍ وَاحِدَةٍ أَشَدَّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ » وقال رجل لأبي هريرة رضي الله تعالى عنه : إني أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه ولا أعمل به ، فقال كفى بتركك له تضییعا . ويقال : العاقل إذا أحبك بذل جهده في المودة والنصرة ، وإذا أبغضك رفع عن الظلم قدره ، وإذا أحسنت إليه اعترف وشكر ، وإن أسأت إليه ستر واعتذر وغفر . والأحمق إذا قربته تكبر وإذا أبعدته تسكدر ، وكلما رفعت من قدره درجة انحط من قدرك عنده درجة . ويروى عن سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام أنه قال : ما ارتدى العبد برداء أفضل وأجل من رداء العقل ، إن انكسر جبره ، وإن صُرع أنفسه ، وإن زلَّ عمدته ، وإن ذلَّ أعزّه ، وإن اعوجَّ أقامه ، وإن عثر رفعه ، وإن افتقر أغناه ، وإن انكشف ستره ، وإن أقام عند قوم اغتبطوا به ، وإن غاب اشتاقوا إليه ، وإن نطق قالوا بليغ ، وإن سكت قالوا لبيب ، وإن أنفق قالوا جواد ، وإن أمسك قالوا مقتصد ، وإن وعظ أحد قالوا ناصح ، وإن سكت عنه قالوا شفيق ، وإن أفطر قالوا معذور ، وإن صام قالوا مجتهد ؛ فالعقل رأس الإيمان ، به يتفاضل أهل الدنيا في دنيائهم ، وأهل الجنة في درجاتهم . والعاقل إذا أخطأ رجع وإذا أساء أحسن . العقل يرد صاحبه إلى خير المواقب . وقال على ابن موسى رضي الله عنه : أعظم الرزايا موت العلماء . وكان ذو النون رحمه الله تعالى يقول : آه آه ثم آه تعطلت الطرق وقلَّ السالكون ، وهجرت الأعمال وقلَّ الراغبون ، واندرس هذا الأمر فلن تراه إلا على لسان كل بطل ، ينطق بالعلم ويفارق العمل ، افتترش الرخص ومهّد التأويل ، واعجبا من كل عالم عليم وناطق حكيم ، كيف سكنت قلوبهم إلى الدنيا وانقطعت عن ملكوت السماء . وقال سفيان الثوري : كانوا يتموّدون بالله تعالى من فتنة العالم الفاجر ، وفتنة العابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون . قيل لإبراهيم بن عيينة أي الناس أطول ندامة ؟ قال : أما في الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره ، وأما في الآخرة فعالم مغرط :

يَا عَالِيَا أَنْتَ الْأَمِيرُ وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْجَبَانِ سِيَاسَةُ الْأَبْطَالِ
يَا أَعْمَشًا تُبْرِى الْعُيُونَ بِكَحَلَةٍ يَا خَيْبَةً لِلْأَعْمَشِ الْكَحَالِ

قال الله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) يعنى إنما يخشى الله من كان عالماً به عارفاً بجلاله وسطوته . يامعشر العلماء أين خشية الله ؟ يامعشر الفقراء أين الرأفة والرحمة ؟ ليس العالم من ضيع الأيام بتزويق الكلام ، وجمع الخطام والتكالب على الحرام ، إنما العالم من هجر الأثام ، وترك الآثام ، وقام في جفج الظلام ، والتذ بأشرف الكلام ، فنسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا ، ويحقق قصدنا ويوقظنا من غفلتنا ، ويلهقنا بمباده الصالحين ، ويحشرنا في زمرة المتقين ، إنه أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



مركز تحقيقات كهنوت و تاریخ اسلامی

الفصل الثلاثون

في الدعاء

الحمد لله العظيم السلطان ، العليم الإحسان ، الحليم المنان ، الأول قبل كل مكان وزمان
الآخر الباقي و (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) القدوس فلا يوصف بموارض الأجسام ولا يستريحه
تغير الحداث ، الواحد الأحد فمن ادعى معه إلها آخر فقد ادعى ما ليس له عليه برهان ،
الحى العليم السميع البصير فسواء عنده السر والإعلان ، المدبر القدير فبقدرته وإرادته جميع
الآثار والأعيان ، المتكلم بكلام قديم أزلى ، تكلم فى الأزل بالقرآن ، صفاته قديمة ثابتة
بالأدلة ، فمن عطل فهو فى تيه وضلال حيران (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ومن شبه فقد مال إلى
عبادة الأصنام والأوثان ، جلّ العلى الأعلی عما يصوره الوهم فقد كبرت كلمة المشبهين فى الوزر
وخففت فى الميزان ، قسم عطاءه بين خلقه فكتب فى قلوب السعداء الإيمان ، ونور قلوب
العارفين بطلوع شمس العرفان ، وعجل لهم من نسيم قر به روضة نضرة ذات روح وريحان ،
وتلقاهم بالتحية والسلام يوم لقائه ففازوا بالأمان ، وقوم ربهم عن رياض المعرفة بعيد
الخلدان ، وسجن أسرارهم عن الجولان فى بستان التنظر فى آلائه فهم فى سجن الحرمان ،
فلا سبيل ولا وصول لهم إلى هذا الميدان ، ولو أرادوا القرب وبذلوا فيه جهد الإمكان
لردتهم السابقة الأزلية وناداهم منادى القسمة ارجعوا فما لكم هنا مكان ، فبكأؤم لا ينفع ،
ونداؤهم لا يرفع ، شتان ما بين الطائفتين ، فشتان (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى
وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ؟) .

أحمد وهو أهل الحمد والامتنان ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله تفرد

برأفته إلى قلوب عباده وهو المهيمن الرحمن ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي اجتباه من أشرف قبائل مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوهم بإحسان .

في قول الله عز وجل (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) روى أن قوما لما نزل قوله تعالى (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) قالوا يا رسول الله في أي وقت ندعو الله ؟ وقال قوم أفریب ربنا فنناجیه أم بعيد فننادیه ؟ فانزل الله تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) وإذا سألك عبادي عن ذاتي فأنا للوجود من غير موجد ، لا يدركني كيف ، ولا يحيط بي أين ، ولا يصفني ما ، ولا يلحطني متى ، وإن سألك عن صفاتي فالعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام ، صفاتي قديمة لا يدركها الأوهام ، وإن سألك عن أفعالي فكل يوم هو في شأن ، أقرب وأبعد ، وأشقى وأسعد ، وأحيى وأميت ، وأغفر لمن شئت ، وأعطى وأمنع ، وأخفص وأرفع . وإذا سألك عن الدلالة على قائله فالدلالة على عجيب تدبيري وحكم آياتي وبديع تقديري في مخلوقاتي . وإذا سألك عن قربي منهم فإنني قريب بالقدرة والنصرة والرحمة والنعمة والعلم والحلم « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » إن دعائي لضر كشفت ، وإن دعائي لحاجة قضيت وأسعفت ، وإن دعائي لمرض شفيت ، وإن دعائي لهم كفيت ، وإن دعائي لرزق أطعمت وأرويت ، وإن دعائي لدين أدبت ، وإن دعائي لعيب أصلحت ، وإن دعائي لذنوب غفرت وصفححت ، وإن دعائي لتوبة قبلت ، وإن دعائي لنقص كملت . إن أطاعوني أحسنت إليهم ، وإن عصوني سترت عليهم ، وإن أدبروا عني ناديتهم ، وإن أقبلوا أدبيتهم ، وإن سألوهم أعطيتهم . وفي بعض كتب الله المنزلة : يا عبادي إذا سألت فاسألني فإنني غني ، وإذا طلبت النصره فاطلبها مني فإنني قوي ، وإذا أفشيت سرك فافشه إلي فإنني وفي ، وإذا أقرضت فأقرضني فإنني مليء وفي ، وإذا دعوت فادعني فإنني حفي .

مُبْعَاثَكَ مَنْ لَا يَخِيبُ مَنْ قَصَدَهُ مَنْ قَصَدَ اللَّهُ صَادِقًا وَجَدَهُ
قَدْ شَتَلَ انْطَلَقَ بِفَضْلِ نِعْمَتِهِ كُلُّ إِلَى فَضْلِهِ يَمُدُّ يَدَهُ

قال ابن عطاء الله: الدعاء أركان وأجنحة وأوقات وأسباب، فإن وافق أركانه قوى،
وإن وافق أجنحته ارتفع، وإن وافق أوقاته فاز، وإن وافق أسبابه نجح، فأركانه حضور
القلب مع الله تعالى والخشوع لله والحياء من الله ورجاء كرم الله، وأجنحته الصدق
وأكل الحلال، وأوقاته أوقات الفراغ والخلوة كالأسفار، وأسبابه الصلاة على النبي
صلى الله عليه وسلم، فإن الدعاء لا يرد إذا كان قبله وبعده الصلاة على النبي صلى الله
عليه وسلم.

روى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « يَقُولُ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا هِنْدٌ ظَنُّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي » وعنه قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ
بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) وقال
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اكُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ
أَشْعَثَ أَعْيَرَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَارَبُّ يَارَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَشَرِبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ
حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ ؟ » .

وروى عن أبي هريرة أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ
لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِسْمِهِ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ مَا لَمْ يُسْتَعِجَلْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْتِعْجَالُ؟
قَالَ يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرِ يُسْتَجَابْ لِي فَيَسْتَحْمِرُ هِنْدٌ ذَلِكَ وَيَدْعُ
اللَّهُعَاءَ » .

وروى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إِنْ فِي اللَّيْلِ
سَاعَةٌ لَا يُوَاقِفُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى خَيْرًا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا
أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يَنْزِلُ رَبُّنَا

تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» ويجب على المؤمن إذا سمع هذا الحديث أن يعلم أن المراد به ترغيب الذاكرين والمجاهدين وتعريف الطالبين بكرم الله تعالى، وأن الله تعالى منزّه في ذاته وصفاته عن مشابهة المخلوقين، ينزل بغير تشبيه ولا تكليف ولا تقدير (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « دَعْوَةُ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِرِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ » .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَعْلِيَّةٌ رَحِمَ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ إِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكْفِيَ عَنْهُ مِنَ الشَّوْءِ بِمِثْلِهَا » .

وروى سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « دُعَاءُ ذِي النُّونِ ^(١) إِذَا نَزَلَ بِأَحَدِكُمْ هَمْ أَوْ بَلَاءٌ فَدَعَا بِهِ فَرَجَّ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) » .

وقال وهب بن منبه رحمه الله : بلغني أن موسى عليه الصلاة والسلام مرّ برجل قائم يدعو ويتضرع طويلاً وهو ينظر إليه ، قال موسى يارب أما تستعجب لعبدك ؟ فأوحى الله

(١) هو نبي الله يونس عليه السلام ، ومنه قوله تعالى : (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ

تعالى إليه : يا موسى لو أنه بكى حتى تليفت نفسه ورفع يده حتى تبلغ عنان السماء ما استجيب له ، فقال يارب لم ذلك ؟ قال لأن في بطنه الحرام وعلى ظهره الحرام وفي بيته الحرام . وصر إبراهيم بن آدم رضى الله عنه بسوق البصرة فاجتمع إليه الناس فقالوا له : يا أبا إسحق مالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قال لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء : الأول عرفتم الله تعالى فلم تؤدوا حقه ، الثانى زعمتم أنكم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركتم سنته ، والثالث قرأتم القرآن ولم تعملوا به ، والرابع أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها ، والخامس قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه ، والسادس قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها ، والسابع قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها ، والثامن قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له . والتاسع إذا اتعبتم من النوم اشتغلتم بميوب الناس ونسيتم عيوبكم ، والعاشر دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم . وكان يحيى بن معاذ يقول : من أقر الله بأساءته جاد الله عليه بمغفرته ، ومن لم يمن على الله بطاعته أوصلته إلى جنته ، ومن أخلص الله دعوته من الله عليه بإجابته . وكان ذو النون المصرى رحمه الله تعالى إذا قام إلى الصلاة يقول : إلهى بأى رجل أمشى إليك ، أم بأى عين أنظر إليك ، أم بأى لسان أناجيك ، أم بأى يد أدعوك ؟ ولكن الثقة بكرمك حملتنى على الجراءة ، وإن العبد إذا ضاقت عليه حيلته قل حياؤه . وقال محمد بن خزيمة : لما مات الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى رأيت فى المنام وهو يتبخر ، فقلت أى مشية هذه ؟ فقال مشية الخدم فى دار السلام ، قلت ما فعل الله بك ؟ قال غفر لى وتوجنى وألبسنى نعلين من ذهب وقال : يا أحمد هذا بقرائك القرآن كلامى وبقولك غير مخلوق . ثم قال يا أحمد ادعنى بتلك الدعوات التى بلغتك عن سفیان الثورى وكنت تدعو بها فى دار الدنيا ، فقلت : يارب كل شىء ، بقدرتك على كل شىء ، اغفر لى كل شىء ، ولا تسألنى عن شىء . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أصاب الناس جلدب فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال كعب الأحبار : يا أمير المؤمنين إن بنى إسرائيل كان إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بأقارب أنبيائهم ، فقال عمر هذا العباس عم النبی صلى الله عليه وسلم ومشى إليه وسأله أن يستسقى

للناس نخرج الناس ووقف عمر والعباس رضى الله عنهما فقال عمر : اللهم إن هؤلاء عبيدك
وبنو عبيدك وملك يدبك أتوك راغبين متوسلين بعم نبيك خير الأنبياء فاسقنا سقيا نافعا
يعم العباد والبلاد ولا تجعلنا من القانطين، فقال العباس : اللهم إنه لا ينزل بلاء إلا بذنب
ولا يكشف إلا بتوبة، وهذه أيدينا مبسوطة إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وقد توجه
القوم إلى مسكني من نبيك صلى الله عليه وسلم فاسقنا الفيث ولا تجعلنا من القانطين ،
يا أرحم الراحمين ، قال فارتجت السماء بمطر عظيم حتى سار إلى الحفر والآكام .



مركز تقيت كچو تير علوم رسدي

فصول تضرع

نحتم بها هذا الكتاب

إلهي تفضلت فم إفضالك ، وأنعمت قم نوالك ، وسرت فوصل غفراك ، وعفوت
فمكامل إحسانك ، جل جلالك فمعالى ، واهل نوالك فتوالى ، تعاليت فى دنوك وظهرت
فى علوك . فلا يدركك وهم ، ولا يحيط بك فهم ، أنت الأول الآخر الباطن الظاهر ،
تنزهت فى أحديثك عن بداية ، وتماظمت فى أبديتك عن نهاية ، أنت الواحد لا من عدد ،
الباقى بعد الأبد ، لك خضع من ركن ، وذلل من سجد ، وبك اهتدى من طلب ووصل
من جد .

(إلهي) كيف يحيط بك عقل أنت خلقته ؟ أم كيف يدركك بصر أنت شقيقته ؟
أم كيف يدنو منك فكر أنت وفقته ؟ أم كيف يحصى الثناء عليك لسان أنت أنطقته ؟
إذا تلمعت عظمتك أبصار البصائر عادت بنور سلطانك كلية ، وإذا تجملت عظام الجرائم
كانت فى جنب عفوك قليلة ، سبقت السبق فانت الأول ، وخلقك الخلق فعليك المعول ،
وعدت إذ جدت بإخير من تطول ، عجباً للقلوب كيف استأنست بسواك ! والأرواح كيف
استقرت والأسرار بنور البصائر تراك ! والألسن كيف شكرت ، من لا يقدر على شيء
لولاك ، والأقدام كيف سمعت إلى غير رضاك !

(إلهي) كيف بناجيك فى الصلوات من يعصيك فى الخلوات لولا حطك ؟ أم كيف
يدعوك فى الحاجات من يفساك عند الشهوات لولا فضلك ؟ أم كيف تنام الميون وفى كل
ليلة تقول هل من تأمب هل من مستغفر هل من سائل ؟ أم كيف كفت الأكف عن

سؤالك وسيل الجود سائل؟ أم كيف ينقطع عنك من لم تقطع عنه الوسائل؟ أم كيف يباع الباقي بالفاني وإنما هي أيام قلائل؟ اللهم ارزقنا حسن الإقبال عليك، والإصغاء إليك والفهم عنك، والبصيرة في أمرك، والنفاذ في طاعتك، والمواظبة على إرادتك، والمبادرة إلى خدمتك، وحسن الأدب في معاملتك، والتسليم إليك والرضا بقضائك.

فصل

اللهم يا حبيب كل غريب، ويا أنيس كل كئيب، أي منقطع إليك لم تكفه بنعمتك؟ أم أي طالب لم تلقه برحمتك؟ أم أي هاجر هجر فيك الخلق فلم تصله؟ أم أي محب خلا بذكرك فلم تؤنسه؟ أم أي داع دعاك فلم تجبه؟

ويروى عنك سبحانه أنك قلت: وما غضبت على أحد كنفي على مذهب أذنب ذنباً فاستعظمه في جنب عفوي. اللهم يامن يغضب على من لا يسأله لا تمنع من قد سألك.

(المهمل) كيف نتجاسر على السؤال مع الخطايا والزلات؟ أم كيف نستغنى عن السؤال مع الفقر والفاقات؟ أم كيف يحمل بعبد آبق عن باب مولاه أن يقف على الباب طالبا جزيل عطاياه؟ إنما ينبغي له طلب المغفرة، والتعلق بأذيال المعذرة لأملك كريم دللت بحودك عليك وأطلقت الأسفة بالسؤال لديك، وأكرمت الوفود إذا ارتحلوا إليك:

إِذَا ارْتَحَلَ الْوُفُودُ إِلَيْكَ يَوْمًا وَتَجَلَّوْا فِي الضَّرَاعَةِ وَالشُّوْلِ
فَإِنَّ رِحَالَنَا حَطَّتْ رَجَاءً إِيضًا عَنْ حُلُولِ وَارْتِحَالِ
أُنَحْنَا عِنْدَ بَابِكَ يَا إِلَهِي إِلَيْكَ مُفَوِّضِينَ بِلَا اغْتِيلَالِ
فَسُنَا كَيْفَ شِئْتَ وَلَا تَسْكِنُنَا إِلَى تَذْيِيرِنَا يَا ذَا الْجَلَالِ

يا حبيب القلوب أين أحبابك؟ يا أنيس المنفردين أين طلابك؟ من ذا الذي عاملك فلم يرحم؟ من الذي اتعجا إليك فلم يفرح، ومن وصل إلى بساط قربك واشتهى أن

يبرح ؟ واعجبا لقلوب آلت إلى غيرك ما الذي أرادت ! ولنفس طلبت الراحة هلا طلبت منك واستغفدت ، ولمزأتم سمعت إلى مرضاتك ما الذي ردها فعادت ، هل نقصت أموال استقرضتها ؟ لا وحقتك بل زادت ، سبق اختيارك فبهطلت الخيل ، وجرت أقدارك فلا يغيرها العمل ، وتقدمت محبتك لأقوام قبل خلقهم في الأزل ، وغضبت على قوم فلم ينفع عاملهم بما فعل ، فلا قوة على طاعتك إلا بإعانتك ، ولا حول عن معصيتك إلا بمشيئتك ، ولا ملجأ منك إلا إليك ، ولا خير يرجى إلا في يديك ، يامن بيده إصلاح القلوب أصاح قلوبنا ، يامن تتصاغر في عفوه الذنوب اغفر ذنوبنا . اللهم إنا قد أتيناك طالبين فلا تردنا خائبين ، لم نزل إلى باب جودك مائلين ، فأصاح كل قلب قسا فلا يلين ، واسلاك بنا مناهج للتيقن ، وألبسنا خلع الإيمان واليقين ، بدروع الصدق فإنهن يقين ، ولا تجعلنا ممن يعاهد على التوبة ويمين ، واجعلنا من فضلك من أهل اليقين ، برحمة منك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين .

مركزية كبرى فصل

(إلهي) اولا أنك بالفضل تجود ما كان عبدك إلى الذنب يعود ، ولولا محبتك للغفران ما أمهلت من يبارزك بالعصيان ، وأسبأت سترك كل من أسبل ذبل النسيان ، وقابلت إساءتنا منك بالإحسان .

أَسْتَغْفِرُ اللهَ جَمًّا كَانَ مِنِّي زَلَلِي وَمِنِّي ذُنُوبِي وَتَغْرِيطِي وَإِضْرَارِي
يَا رَبِّ هَبْ لِي ذُنُوبِي يَا كَرِيمُ فَقَدْ أَمْسَكْتُ حَبْلَ الرَّجَا بِأَخْيَرِ غَفَّارِ

(إلهي) ما أمرتنا بالاستغفار إلا وأنت تريد المغفرة ، ولولا كرمك ما ألهمتنا العذرة ، أنت المبتدئ بالنوال قبل السؤال ، والمعطى من الإفضال فوق الآمال ، إنا لانرجو إلا غفرانك ، ولا نطلب إلا إحسانك ، أدعوك بلسان أمل لنا كل لسان صلى ، إن أطلعك رجوت إحسانك ، وإن عصبتك رجعت إليك طالبا غفرانك .

أَذْنَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
صَيَّعْتُ حَظِّي بِجَهَنَّمَ فَلَمْ أَصْنَعْ فَصْنَهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ مُسْتَحِقًّا لِلْعَفْوِ مِنْكَ فَسَكُنْهُ

اللهم إنا نسألك برحمتك التي ابتدأت بها الطائفة من حتى قاموا بطاعتهم أن تمنّ على
العاصين بعد معصيتهم ، فإنك الحسن بادنا وعائدا يا كريم :

أَجَلْ ذُنُوبِي عِنْدَ عَفْوِكَ سَيِّدِي حَقِيرٌ وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي عَظَائِمًا
وَمَا زِلْتُ غَفَّارًا وَمَا زِلْتُ رَاحِمًا وَمَا زِلْتُ سَتَّارًا عَلَى الْجَرَائِمَا
لَنْ كُنْتُ قَدْ تَابَعْتُ جَهَنَّمَ فِي الْمَوَى وَقَضَيْتُ أَوْطَارَ الْبَطَالَةِ هَائِمًا
فَهَا أَنَا قَدْ أَقْرَزْتُ يَا رَبِّ بِاللَّيِّ جَنَيْتُ وَقَدْ أَصْبَحْتُ حَيْرَانًا نَادِمًا

(إلهي) أنت الحسن وأنا المسيء ، ومن شأن الحسن إتمام إحسانه ، ومن شأن المسيء
الاعتراف بعدوانه ، يا من أمهل وما أهمل ، وستر حتى كأنه قد غفر ، أنت الغني وأنا
الفقير ، وأنت العزيز وأنا الحقير . اللهم انظر إلينا بنظر الرضا ، ونجنا من ديوان أهل الجفاء ،
وأثبتنا في ديوان أهل الصفاء ، وارزقنا على عهدنا حسن الوفاء ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع
المسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين .

فصل

(إلهي) لك بهاء الجلال في انفراد وحدانيتك ، ولك سلطان العز في دوام ربوبيتك ،
بمدت على قربك أو هام الباحثين عن بلوغ صفاتك ، ونحيرت ألباب العارفين في جلالك
وعظمتك .

(إلهي) من أطمعنا في عفوك وجودك وكرمك ، وألهمنا شكر نعمائك ، وأتى بنا إلى
بابك ورغبنا فيما عدته لأحبابك ، هل ذلك كله إلا منك ، دللنا عليك وجئت
بنا إليك ؟

إِلَيْكَ جِئْنَا وَأَنْتَ جِئْتَ بِنَا وَلَيْسَ شَيْءٌ سِوَاكَ يُغْنِينَا
بَابُكَ رَحْبٌ فَنَأُوهُ كَرَّم نُؤْوِي إِلَى بَابِكَ الْمَسَاكِينَا

(إلهي) الصبر جميل إلا عنك، والأسف قبيح إلا ما فات منك:

إِن رَفَعْتُ إِلَيْكَ قِصَّةَ حَازِرٍ وَرَجَوْتُ فَضْلَكَ عِنْدَ آخِرِ قِصَّتِي
لَا فَرَجَ اللَّهُ الصَّبَابَةَ وَالْهُوَى عَنِّي وَلَا زَالَتْ عَلَيْكَ تَحَبُّبِي

(إلهي) عودتني كريم نوالك عند سؤالك، وأطمعتني في كثرة إفضالك بنيل إقبالك،

سألتك فأعطيتني فوق منأى، كم رجوتك فحققت رجائي:

وَأَمَّا لَأَدْعُو اللَّهَ وَالْأَمْرُ ضَيِّقٌ قَلْبِي فَمَا يَنْفَكُ أَنْ يَتَفَرَّجَا
وَرُبَّ قَتِي سُدَّتْ عَلَيْهِ وَجُوهُهُ أَضَاءَتْ لَهَا فِي دَعْوَةِ اللَّهِ تَخْرَجَا

(إلهي) أسكرتني الآمال حتى أنستني هجوم الآجال. (إلهي) أنت أعلم بي مني

فبكمال جودك تجاوز عني.

مَالِكٌ قَلْبِي لَا بَدَّ مِنْكَ وَإِنْ أَوْحَشَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ الزَّلَلُ
عَلَّمَ سِرِّي أَنَا الْغَرِيبُ فَغَدُّ كَفَّ غَرِيبِي عَلَيْكَ بِتَكَلُّ

(إلهي) من لم تجبر كسره ما أطول فقره، من لم تمنعه من كربته مات بشقوته،

واخيبة من طردته عن بابك، واحسرة من أبعده عن طريق أحبابك. (إلهي) إن

كانت رحمتك للمحسنين فإلى أين تذهب آمال اللذنين.

بِأَمْنٍ يُجِيبُ دُعَا الْمُضْطَرِّ فِي الظَّلَمِ يَا كَاشِفَ الضُّرِّ وَالْبَلَاءِ مَعَ السَّقَمِ
قَدْ نَامَ وَفَدُكَ حَوْلَ الْبَيْتِ وَانْتَبَهُوا وَأَنْتَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ كَمْ نَنَمِ
إِنْ كَانَ جُودُكَ لَا يَرْتَجُوهُ ذُو زَلَلٍ فَنَ يَجُودُ عَلَى الْعَاصِينَ بِالْكَرَمِ
هَبْ لِي بِجُودِكَ فَضْلَ الْعَفْوِ عَنْ زَلَلٍ بِأَمْنٍ إِلَيْهِ التَّجَا الْخَلْقُ فِي الْحَرَمِ

اللهم جللنا بسترِكَ، واعف عنا بكرمك، وعاملنا بلطفك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع

المسلمين، وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فصل

(إلهي) إن كنا مقصرين في حفظ حدّك ، والوفاء بمهدك ، فأنت تعلم صدقنا في رجاء
رفدك وخالص ودك ، يا من ظهرت معرفته لأقرب فلا يخفى وجوده ، وعم الخلائق كرمه
وجوده . يا أول فلا بداية لأزليته ، يا آخر فلا نهاية لأبديته ، يا ظاهر بما أبدع من أفعاله ،
يا باطن فالمعقول عاجزة عن وصف كاله ، يا قدوس فلا شبهة له ، يا واحد لا شريك له ، خلقتنا
مسلمين فسلمنا من عذابك ، وجعلتنا مؤمنين فأمننا من عقابك ، أعطيتنا الإيمان قبل
السؤال وهو أفضل مانعطي من النوال ، والكريم لا يرجع في هبته ، والغني لا يعود
في عطيته . اللهم اجعل الإيمان هادما للسيئات ، كما جعلت الكفر هادما للحسنات . اللهم
إن عصيتناك فنحن نحبك ، وإن أطعنا إبليس فمنع نبغضه ، فاغفر لنا معصيتنا لك بحبنا
فيك ، وتجاوز عن طاعتنا له ببغضنا فيه . إلهي ببابك أنحن ، ولمعروفك تعرضنا ، وبكرمك
تعلقنا ، وبتقصيرنا اعترفنا ، وأنت أكرم مسئول وأعظم مأمول :

بِبَابِكَ رَبِّي قَدْ أَنْخَرْتُ رَكَائِي وَمَالِي مَنْ أَرْجُوهُ يَا خَيْرَ وَاهِبٍ
فَإِنْ جُدْتَ بِالْفَضْلِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ فَيَا مُبْجَحَ آمَالِي بِنَيْلِ رَغَائِي
وَأِنْ أَبْعَدْتَنِي عَنْ حِمَاكَ خَطِئْتَنِي فَيَا خَيِّبَةَ الْمَسْعَى وَضَيْعَةَ جَائِي
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي وَإِنْ شَقَّ الضَّنَّا يَمِيلُ إِلَى خِلَّةِ سِوَاكَ وَصَاحِبِ
إِذَا لَمْ أُمْتَ شَوْقًا إِلَيْكَ وَحَسْرَةً عَلَيْكَ فَمَا بَلَغْتُ مِنْكَ مَآرِبِ

اللهم ارحم عباداً غرهم طول إهمالك ، وأطمعهم دوام إفضالك ، ومدوا أيديهم إلى
كرم نوالك ، وتيقنوا أن لا غنى لهم عن سؤالك .

فصل

اللهم يا حبيب الثائبين ، ويا سرور العابدين ، ويا قرة أعين العارفين ، ويا أنيس المنفردين ويا حرز اللاجئين ، ويا ظهر المقطوعين ، ويا من حنت إليه قلوب الصديقين ، اجعلنا من أوليائك المتقين ، وحزبك المفلحين . اللهم وإن كانت ذنوبنا فضيحة فإننا لم نرد بها القطيعة . اللهم إنا لا نبرح عن بابك فلا تعذبنا بأليم حجابك ، نحن إن لم نكن كما أمرتنا ، فأنت ذو عز وغنى ، ونحن المساكين إن لم نكن لنا ، إلى من نلتجىء . إن صرفتنا ؟ إلى أين نذهب إن طردتنا ؟ بمن نتوسل إن حجبنا ؟ من يقبل علينا إن أمرضت عنا ؟

تَعَطَّفَ بِفَضْلِكَ يَا فَاطِمَةُ الْوَرَى فَأَنْتَ مَلَاذِي سَيِّدِي وَمُعِينِي
لَنْ أَبْعِدَنِي عَنْ حِمَاكَ خَطِيئَتِي فَإِنَّ رَجَائِي شَافِي وَبَقِيَّتِي
فَقَلْبِي جَمِيلٌ أَنْتَ بِكَ وَائِقٌ وَأَنْ جَمِيلَ الْعَفْوِ مِنْكَ بَقِيَّتِي
ذَكَرْتُ زَمَانَ الْوَحْلِ فِي رَوْضَةِ الرِّضَا فَطَالَ حَسْبِي نَحْوُهُ وَأُنَيْدِي
وَرَوْقَتُ دَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى كَأَنَّهَا دُمُوعُ دُمُوعِي لَا دُمُوعُ جُفُونِي

اللهم إنا نعبدك طوعا ، ونعصيك كرها ، ونخافك لأنك عظيم ، ونرجوك لأنك إله ، ونخافك لأننا عبيد ، فلك حببنا ، ولنا خوفنا ، فارحمنا بكرم الربوبية ، ولضعف العبودية ، (إلهي) كيف تردنا الذنوب عن سؤالك ، ونحن الفقراء إلى نوالك ؟ هانحن قد أنحنأ ببابك ، فتعطف علينا مع أحبابك . كفانا عزا أن نكون لك عبيدا . وكفانا شرفا أن نكون لغاربا (إلهي) أنت لنا كما تحب فاجعلنا لك كما تحب (إلهي) كل فرح بفيرك زائل ، وكل شغل بسواك باطل ، السرور بك هو السرور ، والسرور بفيرك هو السرور .

فُهْنَا بِذِكْرِكَ وَالظُّلُمَاءُ عَاكِفَةٌ فَكَانَ بِأَسَيْدِي أَحَلِّي مِنَ السَّمَرِ
يَا مَنْ إِذَا قُلْتُ . يَا مَنْ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي عِزِّهِ قِيلَ لِي يَا أَصْدَقَ النَّبِيِّينَ
عَوَّدَتْنِي الطُّوْلَ وَالْإِحْسَانَ يَا أَمَلِي فَأَمِنْ بِجُودِكَ يَا تَمَنِّي وَيَا بَصْرِي

أَصْبَحْتُ فِي حَيْرَةٍ لَا أُرْتَجِي سَبَبًا مَنْ أُرْتَجِيهِ وَقَلْبِي مِنْ سِوَاكَ بَرِي
(إلهي) حَقِّي حاجتي ووسيلتي فاقتني :

كَفَانِي سَبْقُ عِلْمِكَ بِي كَفَانِي وَحَسْنِي مِنْ سِوَاكَ أَنْ تَرَانِي
وَلِي فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْكَ سِرٌّ يُبَشِّرُ بِالْأَمَانِ وَالْأَمَانِي

اللهم إنك قبلت الوفاء من السحرة ، حين ذكروك مرة ، وسجدوا لك سجدة ، وإنا
لم نزل مقرين بربوبيتك ، معترفين بوحدانيتك ، ماسجدنا قط إلا بين يديك ، ولا رفعنا
حوائجنا إلا إليك .

(إلهي) جد علينا بفضلك ، وتعمدنا برحمتك ، وداركنا بلطفك ، وعاملنا برأفتك
ووقفنا لخدمتك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين إنك أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(إلهي) أين يذهب عنك من لا يجد بدا منك ؟ وكيف لا يعتمد عليك من كل أموره
في يدك ، إلهي ذنوبنا لها غاية ، وكرمك لا غاية له (إلهي) إن كنا لا نقدر على التوبة
فأنت تقدر على المغفرة (إلهي) قد أطمعناك في أكبر الطاعات الإيمان بك ، والافتقار إليك ،
وتركنا أكبر السيئات الشرك بك ، والافتراء عليك ، فاغفر لنا ما بينهما ولا تحجلنا
بين يديك (إلهي) إن ذنوبنا صغيرة في جنب عفوك ، وإن كانت كبيرة في جنب نهيك ،
(إلهي) لو أردت إهانتنا لم تهدنا ، ولو أردت فضيحتنا لم تسترنا ، فتمم اللهم ما به بدأتنا ،
ولا تسلبنا ما به أكرمنا :

يَا مَنْ كَسَى قَلْبِي مِنَ الْحُبِّ خِلْعَةً وَأَمْنِي فِي لُبْسِهَا الدُّهْرَ أَنْ تَهْلِي
أَيَا عِوَضِي فِي كُلِّ سَفَرٍ وَحَافِرٍ وَيَا خَلْفِي مِنْ كُلِّ مَنْ صَرَّمَ الْخَبْلَ

(إلهي) أتحرق وجهها بالنار كان لك ساجداً؟ ولساناً كان لك ذاكراً؟ وقلبا كان

بك عارفاً؟

أَخَفْتُ بَعْدَ أَنْ تَوَجَّعْتَنِي بِهِدَايَةٍ وَأَوْكَيْتَنِي الْإِحْسَانَ وَالطَّوْلَ شَامِلًا
تَجَرَّدُ قَلْبِي مِنْ لِبَاسِ عِنَايَةٍ وَتَسْلُبْنِيهِ مَا أَظْنُكَ فَأَمِيلًا

(إلهي) كيف ينقطع إلى خدمتك من وجد كال سروره في نعيم حضرتك؟

بُشِّرِي قُلُوبَ أَنْتَ غَابَةُ شُفْلَاهَا بِأَكْلِ مُطْلُوبِي وَحَامِلِ كُلِّهَا
وَإِذَا الرُّقَابُ تَوَاضَعَتْ وَتَذَلَّلَتْ مِنَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

العجب ممن يتذلل للعبيد وهو يجد من مولاه ما يريد! وللمفبون من خضع للخلق

في طلب حاجته، ولو رجع إلى مولاه لكفاه مهماته :

خُضُوعِي لِشَيْءٍ غَيْرِ عِزِّكَ بِاطِلُ وَحُجِّي لِشَيْءٍ غَيْرِ وَجْهِكَ ضَائِعُ
وَأِنِّي لِأَرْجُو الْفَضْلَ حَتَّى كَأَنِّي أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا أَنْتَ صَائِعُ

(إلهي) أنت ملاذنا إن ضاقت الحيل، وملجؤنا إذا انقطع الأمل، بذكرك نقنع

ونفتخر، وإلى جودك نلتجى ونفتقر، فبك نخبرنا وإليك فقرنا :

بِذِكْرِكَ يَا مَوْلَى الْوَرَى نَتَنَمَّعُ وَقَدْ خَابَ قَوْمٌ عَنْ سَبِيلِكَ قَدْ عَمُوا
شَهِدْنَا بِقَيْنَا أَنْ عِلْمَكَ وَاسِعُ وَأَنْتَ تَرَى مَا فِي الْقُلُوبِ وَتَعْلَمُ
إِلَهِي تَحْمَلُنَا ذُنُوبًا عَظِيمَةً أَسَانَا وَقَصَّرْنَا وَجُودَكَ أَعْظَمُ
سَتَرْنَا مَعَاصِينَا عَنِ الْخَلْقِ غَفْلَةً وَأَنْتَ تَرَانَا نَمُّ نَعْفُو وَتَرْحَمُ
وَحَقَّقَ مَا فِينَا مُسِيءَ بِسْرُهُ صُدُودَكَ عَنْهُ بَلْ يَذَلُّ وَيَنْدَمُ
سَكَنْنَا عَنِ الشُّكْرِ حَيَاءً وَهَيْبَةً وَحَاجَتُنَا بِالْمُعْتَصِي تَعَكُّمُ
إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْعَبْدُ بِالْخَالِ نَاطِقًا فَهَلْ يَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَنْهُ وَبَسْكُمْ
إِلَهِي فَجَدُّ وَاصْفَحْ وَأَصْلِحْ قُلُوبَنَا فَأَنْتَ الَّذِي تُولِي الْجَلِيلَ وَتُكْرِمُ
أَلَسْتَ الَّذِي قَرَّبْتَ قَوْمًا فَوْقَ قَوْمٍ وَوَفَّقْتَهُمْ حَتَّى أَنَابُوا وَأَسْلَمُوا

وَقُلْتَ اسْتَغْفِرُوا مِنِّي وَتَسْكُرُوا وَأَنْتَ الَّذِي قَوَّيْتَهُمْ فَتَقَوُّوا
لَهُمْ فِي الدُّجَا أَنْسَ بِذِكْرِكَ دَائِمًا فَهُمْ فِي اللَّيَالِي سَاجِدُونَ وَقُوَّتُهُمْ
نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةً بِتَعَلُّفٍ فَعَاشُوا بِهَا وَأَخْلَقُوا سَسْكَرَى وَنُومُ
لَكَ الْحَمْدُ عَامِلُنَا بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ وَسَامِعْ وَسَلَمْنَا فَأَنْتَ الْمُسَلِّمُ
اللهم دلنا بك عليك، وارحم ذلنا بين يديك، واجعل رغبتنا فيما لديك، ولا تحرمنا
بذنوبنا، ولا تطردنا بميوئنا، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فصل

(إلهي) أنت الملك الحق البين النور الهادي القوي اللتين، عرفتنا برؤيتك وغرتنا
في بحار نعمتك، ونعمتنا بذكرك وأنسك، ودعوتنا إلى دار قدسك ؟
(إلهي) كيف يصبر عن قربك من وجد طعم حبك ؟
مَا سَرَّني أَنْ لِسَانِي وَلَا قَلْبِي عَنْ ذِكْرِكَ يَوْمًا خَلَا
لَوْ أَنَّ لِي مُلْكَ بَنِي هَاشِمٍ يُجَنِّبُنِي إِلَى الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ
إِنِّي وَإِنْ قَصُرْتُ فِي خِدْمَتِي بَاقٍ عَلَى الْعَهْدِ وَذَلِكَ الْوَلَا
وَالْعَيْشُ كُلُّ الْعَيْشِ إِنْ جُدْتُ لِي بِالتَّقَرُّبِ بِأَسْوَئِي وَإِلَّا فَلَا
(إلهي) إن نظرنا إلى فضلك فالعجب من هلك كيف هلك ! وإن نظرنا إلى عدلك
فالعجب من نجا كيف نجا !

(إلهي) إن حاسبتنا بفضلك فلنا رضوانك، وإن حاسبتنا بعدلك لم نزل غفرانك .
(إلهي) كيف أرجوك وأنا أنا، وكيف لأرجوك وأنت أنت .

مَا زِلْتُ أَغْرَقُ فِي الْإِسَاءَةِ دَائِمًا وَبِكَوْنُ مِنْكَ الْعَفْوُ وَالْغُفْرَانُ
لَمْ تَنْتَقِ عَنِّي إِذْ أَسَأْتُ وَزِدْتَنِي حَقِّي كَأَنَّ إِسَاءَتِي إِحْسَانُ

نُؤَيِّدُ الْجَبِيلَ عَلَى الْقَبِيحِ نَسْكْرُمَا فَاعْفِرْ فَأَنْتَ الْكَفِيمُ الْمَنَّانُ

(إلهي) إن كنا لا نقدر على ترك ذنب كتبته علينا فأنت تقدر على مغفرته لنا .

(إلهي) إن كنا قد عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر

الذنوب ولا يبالي .

(إلهي) أنت تعلم بالخال من قبل الشكوى ، وأنت قادر على تحقيق الآمال وكشف

البلوى :

أَجَلُّكَ أَنْ أَشْكُو إِلَيْكَ الَّذِي أَلْتَقَى وَأَنْتَ تَرَى حَالِي وَتَعْلَمُهُ حَقًّا

وَأَنْ رُمْتُ أَخْفَى مَا أَلَا قِي مِنَ الْأَسَى فَشَاهِدْ هَذَا الدُّمْعَ يَسْتَبْقِي سَبْقًا

وَتُعْطِيَنِي الْأَشْوَاقُ حَتَّى إِذَا بَدَا جَعَلْتُ لَمْ أَمْلِكْ لِسَانًا وَلَا نَفْثًا

إِذَا مَا تَمَنَّى النَّاسُ رَوْحًا وَرَاحَةً تَمَنَيْتُ أَنْ أَفْنَى وَمِيرُ الْهَوَى يَبْقَى

يَجُودُكَ فَأَجْبِرْ قَلْبَ عَبْدٍ قَطَعْتَهُ إِلَيْكَ فَلَا غَرْبًا يَرْوِمُ وَلَا شَرْقًا

تَعَطَّفَ وَلَا تَقْطَعُهُ عَنْكَ فَإِنَّهُ مُقِيمٌ عَلَى بَابِ الرَّجَا أَبَدًا مُلْقَى

اللهم يا من ستر الزلات وغفر السيئات ، وأبدلها حسنات ، أجرنا من مكرك وزينا
بذكرك ، واستعملنا بأمرك ، ووقفنا لشكرك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بحمد الله تعالى قد تم طبع كتاب : إظهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب [للعارف بالله
تعالى سيدي عبد العزيز الدريني
مصصححا بمعرفة لجنة التصحيح بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده
بمصر .

القاهرة في { ١٧ شعبان سنة ١٣٩٢ هـ
٢٥ سبتمبر سنة ١٩٧٢ م

مدير المراجعة
محمد محمود الحلبي

ملاحظ المطبعة
رجب أحمد علام

فهرس

كتاب طهارة القلوب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	تقديم	١٥٩	الفصل السادس عشر في الاجتهاد
٥	خطبة الكتاب		وذكر ليلة القدر
٩	الفصل الأول في الإيمان	١٦٩	الفصل السابع عشر في الفرح ووداع
١٧	الفصل الثاني في الثناء		رمضان والعيد
٢٣	الفصل الثالث في الذكر	١٨٠	الفصل الثامن عشر في العبودية وذكر
٢٩	الفصل الرابع في الفكر		العشر
٣٧	الفصل الخامس في ذكر النبي صلى الله	١٨٧	(ذكر فضيلة العمل في عشر ذي الحجة)
	عليه وسلم	١٩١	الفصل التاسع عشر في القلوب
٤٧	الفصل السادس في القيامة ومقدماتها	١٩٧	الفصل العشرون في الفرار
٦٧	الفصل السابع في الوعيد	٢٠٦	الفصل الحادي والعشرون في الاصطبار
٧٣	الفصل الثامن في الجنة	٢١٣	الفصل الثاني والعشرون في الأسف
٨٢	الفصل التاسع في الخوف		وذكر آدم
٩٥	الفصل العاشر في الرجاء	٢٢٤	الفصل الثالث والعشرون في المراقبة
١٠١	الفصل الحادي عشر في التوبة		والإنابة
١٠٨	(في تفصيل الذنوب)	٢٣٤	الفصل الرابع والعشرون في الحذر
١١٨	الفصل الثاني عشر في التقوى	٢٤٠	الفصل الخامس والعشرون في الدعوة
١٢٩	الفصل الثالث عشر في التشمير وذكر	٢٤٦	الفصل السادس والعشرون في الفقر
	شعبان	٢٥٢	الفصل السابع والعشرون في المحبة
١٣٩	الفصل الرابع عشر في التقديم وقدم	٢٥٩	الفصل الثامن والعشرون في الإسلام
	رمضان	٢٦٦	الفصل التاسع والعشرون في فضل أمة
١٤٩	الفصل الخامس عشر في الاستعانة		محمد صلى الله عليه وسلم
	وذكر رمضان	٢٧٥	الفصل الثلاثون في الدعاء
		٢٨١	(فصول تضرع نختم بها هذا الكتاب)